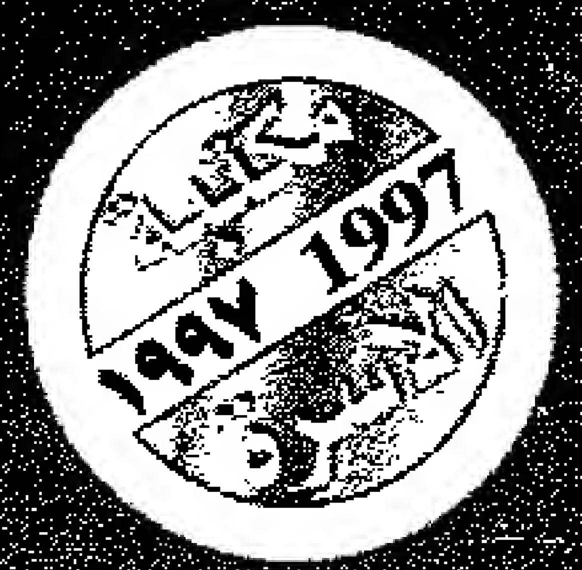


مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

محمد كامل حسين

قرية ظالمة





الهيئة المصرية العامة للكتاب

قرية ظالمة

قرية ظالمة

كامل حسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

قرية ظالمة

كامل حسين

لوحة الغلاف
للفنان: جمال قطب

تصميم الغلاف
الإشراف الفني
للفنان: محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم. . .

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

دعوة للفكر

دكتور صلاح فضل

هذه رواية متفردة فى نوعها وأسلوبها وطريقة كتابتها، صدرت أول مرة عام ١٩٥٤، أودعها مؤلفها الدكتور محمد كامل حسين خلاصة رسالته الفكرية وذوب ثقافته الإنسانية. اختار لها يوماً واحداً من التاريخ القديم ليصب فيه عصارة وعيه ونضارة فكره وصواب رؤيته، عندما اقترف بنو إسرائيل جرمهم الأكبر بإدانة السيد المسيح وحمله إلى الصليب، فأحالوا «أورشليم» القرية الوادعة التى احتضنت رسالة السماء إلى جحيم ظالم مثلما يقترفون اليوم فى القدس ذاتها على مشهد من العالم أجمع وقد استحال بدوره إلى قرية لاتزال بعيدة عن العدل والمحبة والسلام. يدعونا المؤلف فى هذه الرواية العميقة للتأمل الهادئ والجدل الحر حول أخطر قضايا البشر على مر العصور، فيوظف طاقته الشعرية الفذة على تدفقها السردى فى بعث روح الفكر المستنير والحوار الخصب لدى قرائه، مما يجعل

عمله الأدبي يتجدد بالمطالعة ويكتسب بعد نيف وأربعين عاماً من الأبعاد الدلالية والتاريخية ما لم يتوفر له عند إنشائه، فكأن الزمن يعطيه بقدر ما يسلبه، ويثريه بما يستحدثه.

والرواية وإن كانت تمضي على غير ما نألف اليوم من التقنيات السردية وأساليب الأداء الفني واللغوى، مما يجعلها بطيئة الإيقاع كثيرة الجدل عميقة الفلسفة إلا أنها نموذج بديع للعمل الفني الكلاسيكيّ الذى يستحق مكانة دائمة في ذاكرة الأجيال المتلاحقة. تنتظم مع كوكبة من الأعمال الروائية التى تدور فى فلك الرؤية التاريخية وتفسيراتها المعاصرة والتى خطتها أقلام طليعية رائدة لأمثال طه حسين ومحمد فريد أبو حديد وعلى الجارم ممن أشبعوا الثقافة العربية تأملاً نقدياً وحواراً معرفياً وأسسوا وعى الأجيال التالية لهم، فأسهموا فى انبثاق تيارات الرواية المعاصرة بأقدار متباينة ودرجات مختلفة. ولم يكن الدكتور محمد كامل حسين وهو الطبيب العالم بأقل من رجال الجامعة والتعليم تحمساً لرسالة الأدب الحيوية فى تحريك النهضة القومية ولا وظيفة الفن الأخلاقية فى بعث الهمم على مر العصور. وربما التبس فى أذهان بعض القراء اسمه باسم أستاذ جليل معاصر له أيضاً هو الأستاذ الجامعى الدكتور محمد كامل حسين صاحب أدب مصر الإسلامية والفاطمية وتراث الدروز وأدب الاسماعيلية، لكن هذا اللبس لا يلبث أن يزول بمجرد ذكر «قرية ظالمة» التى أصبحت منذ نشرت علامة بارزة فى الرواية العربية الحديثة، وضمنت لمؤلفها هذا التفرد العجيب. وقد يبدو

للوهلة الأولى أن السمة المميزة لهذه الرواية هى طابعها التاريخى؛ لأنها تعرض لقصة السيد المسيح متوزعة على ثلاثة منظورات، يتركز أولها على حال بنى اسرائيل صبيحة اليوم المشهود وحكاية عدد من شخصياتهم من زعماء وقادة وكهنة وغيرهم من عامة الناس. ويدور ثانيها حول عدد من الحواريين وأتباع السيد الميسح والمؤمنين به، بينما يعرض آخرها للجانب الرومانى من حكام وقواد وجنود، يحكى ما آل إليه النظام مسترجعاً شيئاً من ماضى الشخوص القريب ليصب فى بؤرة الحاضر لهذا اليوم التاريخى. لكننا لا نلبث عندما نمعن فى القراءة أن ندرك هشاشة هذا الإطار التاريخى المقنّع لرواية فكرية فى الدرجة الأولى تعتمد على تفسير المواقف والأحداث لتقدم تصوراً كلياً مبثوثاً فى جميع الحوارات والخواطر، يتميز بطابعه الأخلاقى الحاسم.

وحتى لا يحتاج القارئ لأى اجتهاد أو تأويل يتم تقديم هذه الرؤية له بشكل متبلور منذ البداية، عندما يقدم له هذا اليوم قائلاً: «فى ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم، وفى هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الإنسانية الكبرى. وفى أحداث ذلك اليوم تبيان لكل مايدفع الناس إلى الإثم. فلم يحدث فى العالم شر إلا كان أصله ما يريد الناس من قتل ضميرهم وإطفاء نوره والتماس الهدى من غير سبيله غير أنه يعقد شبكة عريضة من المفارقات والتقابلات تنتهى إلى هذه النتيجة ذاتها وتجعلها نظام العمل الروائى ودلالته الأساسية، من أهمها اختلاف الجرائم الفردية عن الجماعية فى مرجعية الضمير الذى لا تعرفه الجماعة وإن اختلجت به نفوس الأفراد. فكما أن

الجماعة لا عقل لها فإنه لا ضمير لها كذلك. ومنها تعارض النظام العسكرى مع الضمير الإنسانى فى منظومة القيم وأولوياتها، ومنها سيادة الأخلاق على السلطة، ورفعة الإنسانية على النزعات الوطنية والقومية مما تكشفه لنا أحداث الرواية وتفسيراتها المطروحة.

ولأن الرواية تعتمد على هذا التحليل العقلى المطول للمواقف والمذاهب والآراء، فهى لا تترك الفرصة للقارئ أن يستخلص النتيجة بذكائه ولماحيته. بل توردها فى أشكال متعددة وسياقات مختلفة، عند مناقشة المشاكل الفلسفية للخير والشر؛ عند التطرق لأصل الإنسان وطبيعة الخلق، يقول المؤلف «الواقع أن الإنسان حيوان خلقه الله من تراب ثم نفخ فيه ما جعله إنسانا، ولم يكن هذا الذى نفخ فيه إلا الضمير، وهو من الله، وهو الذى يميزنا من الحيوان، وهو من طبيعة خلقنا، لا يكون الإنسان إنساناً بدونه. أما العقل والذكاء والنطق والمهارة فهى صفات كان يستطيعها الحيوان لو أنه بلغ درجة كافية من الرقى دون أن يصبح بذلك إنسانا. ومن الناس من يدعى أن الضمير اختراع إنسانى، وأنه ليس طبيعيا فنيا لأن الحيوان لا يعرفه، كأنهم يرون أن ما لم يكن من طبع الحيوان فهو اصطلاح اصطلح عليه الناس، وهذا قول أحمق. لأن الضمير من طبع الإنسان كما تكون الحركة من طبع الحيوان. إن الإنسان لا يكون إنسانا بغير الضمير، وهو الذى يضع لنا قوانينا التى لا يعرفها الحيوان».

أحداث التاريخ ووقائع الحياة إذن ليست سوى أطر يقدم المؤلف من خلالها فكرته الجوهريةعن الضمير الإنسانى. وهى فكرة تقيم حواراً مكتوماً مع الاتجاهات الفلسفية المادية التى كانت رائجة

فى الأوساط المصرية، لكنه حوار يرتكز على المبادئ المثالية، ويتهم المادية بالحمق والضلال؛ ليؤكد ارتباط الضمير بالمصدر الدينى الخالص باعتباره «هبة من الله» وليس نتيجة لأية خبرة تاريخية. وبقدر ما فى هذا الرأى من حماس وإخلاص فإنه يقع فى إشكالية جوهرية عندما يجعل الضمير شيئاً واحداً مصمتاً يتساوى فيه أبناء المجتمعات المختلفة فى المراحل التاريخية المتباينة وجوداً وعدماً، دون أن يدرك حقائق التغير الحركى فى منظومات القيم ودور الخبرة التاريخية فى تراكماتها النوعية واختلاف أولوياتها من عصر إلى آخر.

ومع أن الرواية تحفل بالأصوات المتعدد، والشخوص الذين يقومون بأدوار ووظائف محددة، وتحقق بذلك درجة كافية من الحوارية التى تعتبر أساس فن القص الحديث فإن بوسعنا أن نلاحظ غلبة صوت المؤلف على ماسواه فى نهاية الأمر، لأن هذا التقسيم الثلاثى بين أهل أورشليم - ألم يكن من الأفضل استخدام الاسم العربى؟ - من يهود وحواريين ورومان يجعل الحدث الواحد مجسداً قد تم إبرازه من زوايا عديدة وبأجواء متباينة، فهذه الكتل الثلاث تسهم فى تشكيل الوقائع بأبعادها التاريخية والإنسانية، بالإضافة إلى ما فى داخل كل منها من أصوات واختلافات تساعد على شيوع هذه الحوارية المبثوثة فى تضاعيف الخطاب الروائى.

لكن تشابك الأصوات واشتجار النبرات لا يلبث أن يتمحور حول قضايا جوهرية مثل مفاهيم الجبن والشجاعة، والخلود والزوال، والحرب والسلم، وإبراز الحجج والقرائن التى تفيد فى هذا الجدل.

على أن ذلك لا يترك في الرواية دون حسم كما نرى فى الإبداع المحدث، بل يعمد المؤلف إلى استنفاد الأطراف المختلفة لبراهينها وأسانيدها ثم يتصدى لتفنيدها وتأكيد الاستراتيجية الدلالية التى يضمن لها السيادة المطلقة على ما عداها، وكأن هذه الحوارات مجرد أصداء لفكر المؤلف ذاته وذرائع لسحق حجج معارضيه. وهنا لابد أن نلتمس صدى هذه الإشكاليات الاجتماعية فى المناقشات العديدة التى كانت تدور فى مصر فى مطلع الخمسينيات، بعد أحداث الأربعينيات الحزبية والسياسية. ولا نكاد نلمح أثرا فى الرواية لقيام الثورة إلا من طرف خفى يتمثل فى نقد المؤسسة العسكرية ونظامها المرهق الجافى لعدل الحياة المدنية المستقيمة، كما لا نكاد نلمح أثر حرب فلسطين فى هذه الرواية ولا تبلور فكرة الحق العربى التاريخى الناصع فيها، فهى توزع السكان بمشروعية لا تخضع للجدل، وتتحدث عن التاريخ القديم للقدس دون أن تتميز غيظا لانتهاكه على يد العدوان الصهيونى الآثم، إنها لا تريد أن تكون رواية سياسية، ولا تنهض لتمثيل هذا الضمير القومى العربى الناشئ فى مصر حينئذ، بقدر ما تمعن فى التحليل الميتافيزيقى للضمير الأخلاقى المجرد، لا غرو أنها لا تهتم بالتاريخ ولا تعطى له أولوية كافية فى تنمية خبرات المجتمعات الإنسانية وتعميق وعيها بالمحددات الأساسية.

من هنا فإن الجدل الذى تقدمه الرواية منقوص ومبتور، لايحقق الحوارية الفعلية، كما لا تحققها لغة القص المحكومة

بمستوى واحد لا تتعداه، يحرص عليه المؤلف دون أن يعمد إلى أى تعدد لمستويات الخطاب أو انكسار عن الطابع العام للقول المكتوب. وهذه سمة عامة لكتابات هذه الكوكبة من المفكرين الذين كانوا يمارسون القص باعتباره إحدى وسائل أداء رسالتهم الثقافية والأدبية، لا باعتباره مهنة يحترفونها ويهبون حياتهم لتنميتها وتطويرها كما كان يفعل الروائيون الكبار وعلى رأسهم نجيب محفوظ. ومن اللافت للنظر أن رواية «قرية ظالمة» تبنت فى هذه الفترة المحتدمة الجياشة دعوة صريحة للسلم فى مطلع الخمسينيات، عندما كانت المشاعر لا تزال ملتهبة بطلب الثأر من العدو الصهيونى والانتقام للهزيمة العربية. ربما كانت تندرج فيما شاع إثر الحرب العالمية الثانية من نفور شديد من دمار الحروب ودعوة لتجنب ويلاتها الفاجعة، وقد عزز ذلك اعتمادها على دعوة السيد المسيح للحب والتسامح خاصة فى موعظة الجبل، لكنها تزيد على ذلك برواية قصة الجندى الرومانى الذى خان جيشه وحرمه من النصر دفاعا عن هذا السلام، فتقدم بطانة أيديولوجية متماسكة لدعوة السيد المسيح؛إذ كان هذا الجندى قد اتصل بالحواريين وتشرب منهم هذا الهوس الجميل بدعوة السلام مع الأعداء. وهو يقول فى دفاعه الطريف أمام قضاته: «سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم؛ ألا تعلنوا حربا لا يؤخذ فى أمرها رأى الجنود فهم الذين سيقتلون. وأن يقسم الجندى عند التحاقه بالجيش ألا يتعدى حدود بلاده لأى سبب كان، وأن تحرموا على القادة تحريما باتا أن يتعرضوا لحياة الجندى الذى لا يرى أن يحارب خارج بلاده. وإن شئتم المزيد فلنعمل ما يعمله

بعض أهل البلاد البعيدة الذين يضعون من بيدهم إعلان الحرب تحت قبة خاصة، يتشاورون، فإذا قرروا إعلان الحرب خدمة للأمة هدموا عليهم القبة وساروا إلى الحرب قائلين إنها خدمة للأمة يجب أن يشترك فيها أولوا الأمر والجنود سواء بسواء. ولم تعلن فى تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا القرار».

هذه هى الشروط التى يضعها صوت الرواية لمنع الحروب العدوانية والاقتصار بالتالى على الحروب الدفاعية. ونظن أن حركات السلام المعاصرة مازالت تدين بمثلها وتعمل بمقتضاها. وقوانين «الضمير» التى شاعت فى الغرب إثر الحروب العدوانية شاهد على ذلك، وإن كانت بعض هذه الشروط ترتبط بطبيعة الأبنية الديموقراطية فى المجتمعات المدنية فإن أوضاع السلم والحرب أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من أن تخضع لهذا النظام العقلى البسيط. ويظل هناك سؤال خطير عن مدى ملاءمة هذه المناقشات للأوضاع السياسية والعسكرية فى مطلع الخمسينيات، ومدى ما فى إثارتها اليوم من حيوية فكرية وقومية فى نهاية التسعينيات، الأمر الذى يشهد للأعمال الإبداعية الكبرى بقدرتها دائما على إثارة الجدل وتحقيق درجة عليا من المتعة الفكرية والجمالية.

يوم جمعة

كان اليوم يوم جمعة

لكنه لم يكن كغيره من الأيام

كان يوما ضل فيه الناس ضلالا بعيدا ، وأوغلوا فى الضلال حتى بلغوا غاية الاثم ، وطغى عليهم الشر حتى عموا عن الحق ، وهو أوضح من فلق الصبح . وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق ، وكانوا أحرص الناس على اتباع الهدى ، وأحبهم للخير ، وأعمقهم تفكيرا ، وأقدرهم على تعقب دقائق الأمور . وكانوا أكثر النـاس حبا لقومهم ، وحدبا على وطنهم ، واخلاصا لدينهم . وكانت بهم حمية وشجاعة واخلاص ، فلم ينجهم تفقههم فى الدين من الضلال، ولم يعصمهم عقلهم من الخطأ ، ولم يهدهم اخلاصهم الى الخير . وكانوا أهل شورى ، فأضلتهم الشورى . وكان حكامهم الرومان أهل نظام ، فخذلهم النظام . وتألبت على أهل أورشليم فى ذلك اليوم كل عوامل الغى ، وهم عنها غافلون ، فترددوا فيه ، وغابت عنهم كل عوامل الرشاد ، فتخبطوا تخبطا شديدا ، كأنهم لم يكن لهـم دين ولا عقل.

فى ذلك اليوم أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا الى الرومان صلب المسيح ، ليقضوا على دعوته . وما كانت دعوة المسيح الا أن يحتكم النـاس الى ضميرهم فى كل ما يعملون وما يفكرون ، فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم الا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير ، ولم يفطنوا الى أن الناس حين يفقدون الضمير لا يغنيهم عنه شىء ؛ فالضمير الانسانى قبس من نور الله ، لا يكون للناس هدى بغيره ، وكل فضيلة تنقلب نقصا ، وكل خير يصبح شرا ، وكل عقل يصير خبالا ، ما لم يكن للناس من ضميرهم هاد ؛ مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة ، اذا طلع عليها القمر كانت معالمها ومبانيها هداية لأهلها ، تريهم أى طريق يسلكون ، أما اذا أظلمت عليهم حقا فان هذه المعالم الجميلة ، والمبانى الرائعة ، تصبح كلها عقبات وعثرات يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم . كذلك الناس فى حياتهم ، ان يشرق عليهم الضمير تكن فضائلهم رشدا ، وان يظلم عليهم يكن كل ما فيهم من عقل وخير عليهم وبالا .

فى ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم . وفى هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الانسـانية الكبرى ، وفى أحداث ذلك اليوم تبيان لكل ما يدفع الناس الى الاثم ، فلم يحدث فى العالم شر الا كان أصله ما يريد الناس من

قتل ضميرهم ، واطفاء نوره ، والتماس الهـدى من غير سـبيله ، ولن يصيب الناس شر الا ومرجعه ما يعتريهم من رغبة فى تجاهل أوامر الضمير . وليست أحداث ذلك اليوم من أنباء القرون الأولى ؛ بل هى نكبات تتجدد كل يوم ، فى حياة كل فرد . فالناس أبدا معاصرون لذلك اليـوم المشهود ، وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشـليم حينذاك من اثم وضلال ، وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم أن لا يتخطوا حدود الضمير .

عِندَ بَني إسْرائيل

قمة الجبل

لم يكن أحد من أهل أورشليم يدرى حين أقبل هذا اليوم انه سيكون يوما يذكره الناس كافة على مر الدهور . كان يوما من أيام الربيع التى ألفها أهل فلسطين ، هادئا صافيا مشرقا . وما كادت شمسه تطلع حتى أخذ النـاس يعدون أنفسهم لما تعودوا عمـله كل يوم . بكر الرعاة يسوقون أغنامهم الى المراعى الخضر حول المدينة العتيقة . ولم يكن حولها الا كثبان سهلة المرتقى ، يبلغ السـائر أعلاها فى غير مشقة أو عنف ، وأودية مطمئنة ينحدر اليها الرعاة فى سهولة ويسر ... أرض لا تشعر بالعنف ، ولاتوحى بالقسوة . وكان الرعاة يسيرون فى هذه المراعى الشاسعة حتى يرهقهم حر الشمس ، فيقيلون تحت الأشجار القليلة التى حولهم . ذلك دأب الرعاة ، يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وقرنا بعد قرن . ومن الناس من يظن أن حياة الرعى حياة خافتة ، يذبل معها الفكر ، ويخمد الذكاء . على أن الواقع أن الذين أفاض الله عليهم من نوره يفيدون من هذه الحياة الصبر والأناة ، وحب التـأمل الطويل ، والتفكير العميق ، فيبلغون بذلك أرقى مراتب الحكمة .

وخرجت فتاة صغيرة ، رثة الثياب ، بادية الفقر ، تسوق

قطعة من الغنم ، فيها النمراء ، وغير النمراء ، وكان لهذا شأن عند الرعاة ؛ فقد جاء فى التوراة ان الله بارك ليعقوب فى النمر . تركت الفتاة جبل الزيتون وما حوله من المراعى الخصبة ، لمن هم أكثر أغناما وأقدر على الكفاح ، وما زالت تسير على غير هدى حتى بلغت جبلا يسمى كالفارى ، ويطلقون على قمته اسم الجولجوتا أى الجمجمة . بقعة موحشة ، كلها حجارة صلدة ، لا ينبت فيها شيء ، وفيها أخشاب متنثرة ، وعظام مبعثرة ، وشجرة واحدة . وكانت الأغنام أعلم بالرعى من هذه الراعية الصغيرة ؛ فشرد كثير منها الى حيث يطيب المرعى . وأجهد الفتاة أن تجرى وراء كل شاردة من أغنامها لتردها اليها ؛ فلما أعياها الجهد استظلت بهذه الشجرة ، يائسة متعبة ، وعادت أغنامها اليها عند الظهيرة تلتمس الظل ؛ ونامت بجوارها ، فلم يبق على هذه الراعية الصغيرة الا أن تنتظر مغرب الشمس ، على عادتها كل يوم ، ولم يكن لها أن تعلم شيئا عن ما سيحدث عصر ذلك النهار ، على بعد خطوات من حيث كانت تنام أهدأ نوم .

أما المدينة فلم يكن من شأن أهلها أن يبكروا الى عملهم كما يبكر الرعاة ، بل خرج أكثرهم يتثاقلون الى السوق والحوانيت . وكان من طبعهم الجدل والخصومة فى أكثر أمرهم ، صغيره وكبيره ، وكان جدلهم اليوم عنيفا ، لا يكاد

الرجل يلقى صاحبه حتى يحدثه عن ما تم فى دار ندوتهم بالأمس . وكان جلهم يرون أن ما قرره علماؤهم حق من غير شك .

أما أصحاب الرأى منهم فقد أرهقهم ما قضوا فيه ليلتهم ، من جدل ونقاش عاليين ، اذ دار بحثهم حول هذا الرجل الذى جاءهم ببدعة أقضت مضاجعهم . ذلك أنه أخذ يدعو الناس الى دين جديد ، وما زال يسفه أحلامهم ، ويضل رجالهم حتى خيف من دعوته على دينهم ونظامهم . وكانوا قد حكموا عليه بالصلب . وتواعدوا دار ندوتهم يوم الجمعة ، ليبلغوا حكامهم الرومان ماقر عليه رأيهم فى شأن هذا النبى الجديد .

رجل الاتهام

كان من بين أولى الأمر فى بنى اسرائيل شاب يتولى اتهام من يخرجون على القانون . وكانت أسرته من أعرق أسرهم ، وأعظمها شأنا ، وأكثرها علماء . وكان قد بلغ من النجاح مبلغا عظيما ، وهو بعد فى مقتبل العمر . وكان الناس يحبونه ويعجبون به ولا يحسدونه، لما لأهله عليهم من فضل، أبا عن جد. وكانوا يعلمون عنه انه أسعد الناس، فقد كان حديث عهد بالزواج ، وكانت امرأته أجمل فتاة فى أورشليم ، ومن أوسط أهلها حسبا ، وكان بها مغرما ، وكانت به حفية . وكانت نؤوم الضحى ، على عادة المترفات الفاتنات فى كل عصر . ولكنها رأت أن تبكر فى هذا اليوم ، على غير ما ألفت ، لتحدث زوجها أعذب الحديث ، وكانت تريد أن تطلب اليه أشياء ، ولم يكن يجهل ما تريد . وهم أن يسبقها الى ما ترغب ، ثم رأى أن يمهلها حتى تتقدم اليه فى دلالها العذب . ولم يخطىء ظنه ، فلم يلبث الا قليلا حتى أقبلت عليه تقول :

— اليوم عيد مولدى

— وهل تظنين أنى أنسى ذلك

— وأريد أن تجعله يوما لا أنساه أبدا

— لك ذلك

— وأريد أن تختصني به ، فلا يشغلك عني أمر آخر

— ما كان أسعدني بذلك لولا ما سيجري في أورشليم اليوم

— لا يعنيني من ذلك شيء . وأحب أن لا تلتمس الأعذار ، فانك تعلم أني لا أغفر مثقال ذرة اذا كان الأمر يتعلق بحبك اياي .

— وأنا لا أطيق أن يمر بخاطرك أني أقصر في ما ترغبين الى عمله ، ولكن لي في دار الندوة اليوم شأنا أي شأن !

— وماذا في دار الندوة اليوم ؟

— انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة النـاس عامة ، جمهورا وقساوسة وعلماء ، ولا بد أن نحسم أمره اليوم .

— ومالي ولذلك كله . أترى أن موت رجل من عامة الناس أدعى الى عنايتك من حبك اياي . انهم يصـلبون رجالا كثيرين كل يوم ، أما اليوم فهو يومي ، ولا يكون الا مرة كل عام .

— وقد لا يتكرر صلب رجل مثل هذا النبي ، أبد الآبدين .

— وماذا تنقمون منه ؟

— انى عــددت عليه بالأمس من الذنوب ما أحفظ عليه قوم اسرائيل كافة ، وجمعت عليه من التهم ما جعل جريمته واضحة لا تقبل فيها رأفة ولا رحمة ، فحكموا عليه بالصلب ، وأعجب الناس ببلاغتى ، وهنأونى على ما أبديت من حرص على الايمان ، وعناية بالوطن ، وعلم بالتوراة ، ولا بد أن أتبع نجاحى بالأمس نجاحا جديدا اليوم ، حتى لا تهن عزائمهم فينكصوا .

— ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر ، انه ليفترسكم ويقضى على فضائلكم كلها

— ان تعلقى بالنجاح يرجــع الى حبى لك ، انكن لا تعبأن بمن يخفقون

— انا لنزهد فى النجاح اذا صحبه نقص فى اخلاصكم لنا ، وأخشى أن تكون قد بلغت هذا الحد من النجاح . وما الذى دفعك الى هذا الاتهام العنيف ، أكان ذلك حبا فى النجاح أم كنت مخلصا ، وماذا علمت عنه حتى ألبت عليه قومك . أبك موجدة عليه ؟

— انه يريد أن يجعل الجهلاء أندادا لأمثالنا ، ويريد أن يجعل الفقراء وايانا سواء ، وفى ذلك قضاء على نظام بنى اسرائيل كله . أيروق لك أن يساوى بيننا وبين ذلك الحداد الذى يعمل أمام بيتك ؟

— انى لا أرى لك فضلا عليه الا أنى امرأتك وليست

له امرأة مثلى ، ولا أعتقد أن مساواته بك تكون جـريمة يصلب من أجلها الناس

— ثم انه كفر بالله ، وأنكر الصـفات التى له فى التوراة ، فهو لا يقول بجبروته وانتقامه ، وانما يقول ان الله هو الحب . ويريد أن لا يخاف الناس الله ، وانمـا يريد لهم أن يحبوه لأنه يحبهم ، وفى ذلك خروج عـلى تعاليم التوراة ، لا بد أن يؤدى الى الفوضى

— أتقتلون رجلا أن يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها مجرم . الله هو الحب !

— انك ممتعة حقا ، وجمالك ولطفك يضـفيان على خطئك عذوبة ، وعلى سوء فهمك للامور لذة ليست الا لك . أتظنين ان الحب الذى يدعو اليـه يمت الى حب المـرأة بصلة ، انه لا يعرف شيئا عن المرأة .

— ان المرأة تحب الرجل الذى يفهم الحب أكثر من حبها الرجل الذى يفهم النساء فأكثر هؤلاء منافقون . ان حب المرأة هو الخطوة الأولى الى حب الله

— انى لا أعرف رجلا خرج من حب المرأة الى حب الله.

— قد يصدق ذلك على الرجال أما النساء فيخرجن من الحب الى حب الله .

— ان المرأة لا تعرف الحب كما يعرفه الرجل ، فالرجل

يحب المرأة ، ولكن المرأة تحب أن ترى نفسها محبوبة عند رجل بعينه ، فهى تحب أن ترى نفسها فى مرآة ، هى ذلك الرجل الذى تحبه .

— ان رأيك فى المرأة لعجيب . وهل هذا رأيك فىّ . أترى أن حبى هو الذى قعد بك عن حب الله ؟

— انك لا تزالين على ضلالك القديم . تجعلين كل حديث بيننا ، مهما يكن عاما ، يرجع فى نفسك اليك والى . ان الحب يملأ قلوبكن ولكنه لا يملأ قلوب الرجال ، اذ ليس للمرأة فى الحياة شىء غير الحب . أما الرجل فله بعد ذلك عقله وعمله

— أترى أن العقل يصحبه البرود حتما

— قد يكون ذلك غير محتوم ، ولكنه أمر مألوف أن يسمو الحكماء فوق العواطف

— ان البرود العقـــلى ليس غاية الكمال . انى أراك تبدلت منذ الأمس ، كان قلبك يخفق لأشياء غير العقــل والحكمة ، أترى ذلك راجعا الى ما وفقت اليه من نجاح

— ان قمم الجبال العالية مغطاة دائما بالثلج

— انى على ذلك أفضل أسفل الوادى ، حيث يكون الدفء ، ولك أن ترقى وحدك الى حيث تكون الثلوج

ثم سكت كل منهما ، وكان رأسها الى صدره ، فرفعته ونظرت اليه ، فوجدت رجلا غير الذى تعرفه . خيل اليها

أن هذا الذى كانت تحبه قد تغير فى غمضة عين ، وهمت أن تتركه . وأحس هو بذلك فأزعجه أن يكون قد دب بينهما شقاق ، وهو على حبها حريص أشد الحرص . وخشى أن يكون تلاعبه بالألفاظ والمعانى قد حملها على الشك فيه ، وهو لم يقصد الى شيء من ذلك

وأدركت هى أنها أسرفت ، وأن ما حدث لا يتعلق بحبه اياها ، فثاب اليها اطمئنانها وقالت :

— انى أقدر واجبك حق قدره ، وأعلم ما يجب عليك عمله اليوم ، فأعفيك من التفكير فىّ ، وفى عيد مولدى

— الآن عرفت فيك العقل وحسن التقدير ، بعد أن كدت أنكر منك هذا الغضب . ان عهدى بك أنك غاضبة أجمل منك راضية ، ولكن غضبك اليوم جد لم أفهمه . وسنكون غدا أسعد الناس ، فما يوم واحد بمغير شيئا من حب أعتقد انه أخلص ما يكون الحب

— وان غدا لقريب . وستكون قد نصرت الدين والوطن والأخلاق

— الآن اطمأن قلبى ، وسأعود اليك عما قريب فأجدك على ما عهدتك محبة رقيقة

وأراد أن يقبلها فأشاحت بوجهها فى رفق . وقبل جبهتها فأحس عرقا باردا يتصبب منها ، وأصابه من ذلك قلق شديد .

خرج من بيته وهو أقل ما يكون ثقة بنفسه ، ولم يعد مطمئنا الى ما كان يراه بالأمس ، من أنه قام بواجبه خير قيام ، ولم يعد يؤمن أنه كان فى جانب الحق حين حملت بلاغته الناس على المطالبة بدم هذا الرجل الغريب .

أما هى فقد أنهكها هذا التغير العميق فى احساسها ، فقد كان طريقها الى السعادة الحب الذى دفعها الى اللذة ، وكان الحب يزيد فى سرورها بلذات الحياة ، وهذه تزيد فى الحب ، وبين هذه وذاك ، كانت أسعد الناس . ثم جاء عيد مولدها ، وكانت ترجو أن يكون أجمل الأيام ، فحال بينها وبين السعادة أن رجلا سيصلب فى هذا اليوم . ثم ملأ قلبها حديث هذا الرجل حتى نسيت نفسها ، وكان ذلك عليها جديدا .

« الله هو الحب ! » رأى لا يضع من قدر الله ، ولكنه يرفع من قدر الحب . ان اله اليهود جبار هائل ، وقد يكون مصدر خير أو شر . ولكن اله هذا الرجل لا يكون الا خيرا . سيصلبونه اليوم على أنه كفر بالله ، وما كفر الا برأيهم فى الله . سيقتلونه لأنه أجرم ، اذ يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها الا ملك كريم . ليتنى أذهب الى حيث يريدون قتله ، فأنظر الى وجه هذا الذى يقول ان الله هو الحب . ومن يدرى لعلى أعكف حينذاك على هذا الحب الجديد . انى أخادع نفسى اذا حاولت أن أتجاهل ما غمرنى من هذا

النور قد يفسد ذلك عليّ حبي الذى تمتعت به حتى الآن ، وقد لا أصلح بعد اليوم أن أكون امرأة جذابة محبة ، أو زوجا شغوفا . أيحسب زوجي أني سأظل كما كان يعهدني بالأمس حين كنت فى حال طبيعية أحبه حبا هادئا معقولا . انى اليوم محمومة ، والرجال لا يفهمون النساء حين تشتد بهن حمى الحب.عند ذلك يكن أحدّ طبعا وأرهف حسامن أن يخضعن لعقل أو لحكمة أو يبقين على عهد . ان حمى الحب تجعل المرأة أشد تقلبا ، وأقرب الى التحول ، وأسرع غضبا على من تحب ، وأسهل عدولا عن الشغف بمن شغفت به قبلا،وأقبل لحب جديد حتى اذا كان على غير ارادتها وهواها . فليحذر الرجال النساء حين تشتد بهن حمى الحب ، فليس فى طبعهم ما يدلهم على بطشه بهن ..

أما هو فأخذ طريقه الى دار الندوة مهموما ، يفكر فى أمر نفسه ، وساوره الشك فى صدق اتهامه العنيف لرجل لم يقترف اثما ولم يدع الى منكر . ثم ذكر ما قال بالأمس من أن الرجل سيكون سبب فتنة وشقاق بين بنى اسرائيل ، وأن دعوته تهدم نظام أمتهم ، وهم من تقوم حياتهم على احترام كتابهم ودينهم وعاداتهم . وكان قد ثبت عندهم أن ذلك الدين قد أصبح جنتهم دون خطر التفكك الذى تعرضوا له منذ احتل الرومان بلادهم ، وأن المحافظة على الدين أصبحت أملهم الوحيد فى الحياة . ذكر كل ذلك

ليقتنع نفسه أنه كان على حق فى موقفه من الدعوة الجديدة ، وخيل اليه أنه اطمأن ، وان يكن فى الواقع انما احاط نفسه بسياج من حججه القديمة ، حتى لاينفذ اليها وخز الضمير وألم الشك .

دكان حداد

خرج هذا المدره النابغة من داره ، وسلك طريقه الى دار الندوة . وكان أمام داره دكان صغير قذر لحداد فقير . وكان يرى من واجبه نحو نفسه ودينه وعلمه أن لا يلقى بالا الى هذا الجار الجاهل الفقير . ولم يكن ذلك منه غرورا ولا زهوا ؛ بل كان يعتقد مخلصا أن الدنيا لاتستقيم أمورها الا أن يكون الناس طبقات تحترم كل منها الطبقة التي هي أرقى وأعلم . فلم يكن ليعبأ بالوقوف عند هذا المصنع لولا حديثه مع امرأته عنه ، ولولا أنه رأى أمام الدكان رجلا من التجار استشاط غضبا فأمطر الحداد وابلا من الشتائم ، وقد علا صوته حتى كاد يختنق :

— أين الحديد الذي وعدتنيه بالأمس ، وأين المسامير الأربعة الكبار التي أوصيتك أن تصنعها ، وما لكورك خلوا من النار ، أتدرى ما سيجره عليّ اهمالك ، سأخلف موعدى مع أولى الأمر من الرومان ، ولم يحدث قط أن أخلفت وعدا وعدتهم اياه ، واذا حدث ذلك اليوم فسأفقد ثقتهم بى،وهى أكبر ما أعتز به . ان ثقة الناس ببنى اسرائيل سر نجاحهم . والناس يعرفون عنا الجد والصرامة والصدق ،

وهى فضائل ورثناها عن آبائنا الأولين ، وليس لمثلك أن يفرط فيها فيصرف الناس عنا ، وليس لرجـل فيه جهلك وغباؤك أن يسيء الى قومنا على هذا النحو . ثم ان كسلك سيكون سببا فى خرابك ، وسيذهب بقوت عيالك وستضطر الى الاستجداء . ان من السهل عليّ أن أتركك الى غـيرك ، فانى أعرف حدادا آخر سأغدق عليه من المال ما يجعله فى سعة حين تكون أنت فى هاوية الفقر . ولكنى مع ذلك أريد أن أرفق بك . سأضاعف لك الأجر ، على أن توقد نارك وتبدأ العمل لساعتك ، فان الوقت لم يضع بعد . خذ هذا المال ، وسأعطيك أكثر منه بعد أن تبدأ .

فأخذ الحداد المال ، وهم أن يلقيه فى أعماق الكور ، فهجم عليه الرجل ، واستنقذ ماله وقال له :

— ماذا تفعل ، أبك جنة ؟ انك مريض ، انك تؤذى نفسك وأهلك وقومك وصناعتك ، ألا تستطيع أن تذكر سببا لذلك ؟

ولم يرد عليه الحداد بشيء . فلما ضاق به ذرعا أراد أن يستعين عليه برجل ذى لحية طويلة كان قـد جلس بباب الدكان منذ مدة ، مطرقا حزينا ، لا يلتفت الى كثير مما يجرى حوله ، وكان يحمل مفتاحا كبيرا لا يفارقه .

ولما وقع نظر التاجر عليه ذكر أنه من أكبر أتباع النبى الجديد ، وأدرك أن هذا الرجل هو الذى منع الحداد أن

يصنع ما طلبه منه لأنه كان يعلم أن الحديد الذى يريده انما كان لاعداد الصليب الذى يموت عليه نبيه وزعيمه ، وأن المسامير الكبيرة أعدت لتدق فى يديه ورجليه .

— الآن وضح السر الذىلم أتبينهمن قبل أليس هذا الأحمق هوالذىطلب اليك أنلا تعملماأمرتك به ، أليس هو الذى أنبأك أن ذلك كله سيصنع منه الصليب الذى يموت عليه زعيمه ، انه أغبى منك وأحقر . انى لا يغيظنى شىء أكثر من هذا الحمق الذى يدفعك ويدفعه الى الظن بأن بنى اسرائيل ، وفيهم ما فيهم من ذكاء وجد وعلم يتبعون مثلك ومثله . على انى سألقى عليك قولا لا أظنك تفهم كثيرا منه . استمع الىّ :

— ان كان هذا الرجل كاذبا فموته حلال لا غبار عليه ، بل نثاب عليه جميعا ، وان كان صادقا ، وكان قتله ظلما ، وكنتم تخافون عذاب الله ، فاعلموا أنى حسـبت لذلك حسابا طويلا . هب قتله جريمة كبرى يعاقب عليها الله فنحن فى منجاة من هذا العقاب . انى أعلم ما سيعمل بالحديد ، ولكنى لا أصنعه ، بل أبيعه وأشتريه ، والله لا يعاقب على البيع والشراء ، فليس ذلك فى التوراة . وأنت تصنع الحديد ولا شأن لك بما سيعمل به ما دمت لا تعلم عنه شيئا . ثم انى لن أمسه بيدى ، بل انى مرسله الى الرومان مع طفل لا يدرى شيئا ولا يعاقب على ما يعمل . أفهمت ؟ ان أكبر

الجرائم اذا وزعت على عدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحدا من مرتكبيها ، فنحن نحاجه بالتوراة ، وهو لا يجوز عليه أن يخالف ما جاء فى كتابه . واذا كان الذى يعلم الجريمة لا يصنع أداتها ، والذى يصنع أداتها لا يعلم عنها شيئا فانها تتم فى سهولة . ان هذا التوزيع يجعل الناس فى حيرة ، أين يقع عذاب الله . هكذا ترتكب أكبر الجرائم دون عقاب . ألا ترى أن الله والناس لا يعاقبون أحدا على ما يرتكب فى الحروب من فظائع يرتعد من هولها كل من يسمع بحديثها . بعد أن تذهب عن الناس الحمى التى تعتريهم عند نشوبها . وان الله والناس لا يعاقبون على هذه الجرائم ، لأنها ترتكب باسم الجماعة . ولأن الذنب فيها موزع توزيعا يجعل العقاب الرادع ظلما اذا عوقب به فرد بعينه ، ولا يجوز على الله أن يظلم أحدا ، أما العقاب العادل على الذنب الفردى فان التوزيع يجعله أقل من أن يحفل به أحد . أتراك تفهم شيئا من هذا ؟

عند ذلك هم الحداد أن يقذف عليه بمطرقة ، لو أصابته لقتلته لساعته . ولكن الشيخ الذى كان بباب الدكان منعه من ذلك ، ونظر كلاهما الى هذا الشيطان وشيعاه ، وهو يبتعد عنهما ، بنظرات كلها بغض واحتقار .

ولما سمع رجل الاتهام هذا الحديث سرت الرعدة فى ظهره ، وامتقع لونه ، أيكون هو أيضا ممن يشاركون فى

الخطيئة الكبرى مجزأة حتى لا يدرى أحد — ولو كان اله بنى اسرائيل نفسه — على من يكون العقاب ، وفكر طويلا فى قول هذا الشيطان ، وأخذ يحدث نفسه :

— ان ضمير الفرد لا يمنع أن ترتكب الجماعة أعظم الذنوب ، ما دامت ترتكب باسم الجماعة . والضمير وحده هو الذى يصرف الناس عن الشر ، والجماعات لا ضمير لها ، ولا يزعج ضمير أحد من أفرادها ما ترتكبه جماعته ، مهما يكن الاثم عظيما . انظر الى مايحدث فى الحروب ، ان الذين يتقصون أخبارها بعد أن ينتهى أمرها ، يذهلهم ما يحدث فيها من ما لا يطيقه ضمير انسان ، مهما تكن فيه من غلظة وقسوة ، ولعل الفئتين المتقاتلتين لا يكون فيهما رجل واحد يرضى عن الحرب التى يقاتل فيها لو احتكم الى ضميره وحده . ولكن الجماعة تقدم عليها راضية مستريحة ، بل قد تقدم عليها مبتهجة فرحة . تلك أمور لا يقبلها العقل ، ولم أهتد الى فهمها من قبل ، ولكنى سمعت الآن ما يفسر هذا التناقض : ان الجريمة مهما تكن مبينة يسهل وقوعها اذا وزعت توزيعا يجعل نصيب الفرد من ذنبها أصغر من أن يضطرب له ضميره .

ألم نسمع حديث قائد جيش هزم عدوه،وأراد أن ينتقم من الأسرى ، ففتق له ذهنه أن يفقأ أعينهم جميعا : على أن

يترك على رأس كل مائة واحدا أعور يقودهم ، ولو أنه تولى هذا التعذيب بنفسه لهاله ما أقدم عليه . ولو أن القاضي حين يحكم بالاعدام يتولى هو تنفيذه لكان له رأى آخر فى قيمة الأدلة . والقائد الذى يأمر جيشه أن يسرف فى القتل انما يأمر ، وعلى غيره أن يقتل . وقديما قتل الأنبياء ، وكان قتلهم يتم على هذا النحو ، موزعا على الناس توزيعا يجعل الجماعة وحدها هى القاتلة .

ثم هدأت نفسه قليلا حين أخذ يفكر فى طريق الخلاص من هذا كله .

— ان ضمير الفرد الانسانى أقوى ما يهدينا الى الخير ، بل هو وحده سبيل الهدى الى الحق ، ولكنه يخطىء ويضطرب ويحار ، حين تعرض له أمور الحياة ، ويكون عليه أن يختار بين أمرين لكل منهما وجه من الحق .

ثم عاوده الاضطراب واليأس ، وأخذ يحدث نفسه :

— ان الخير والشر واضحان وضوحا لا ريب فيه حين تتحدث عنهما التوراة . وكنت أحسبهما لا يختلطان ، ولكنى لم أعد أتبينهما على ما كنت أعهد من وضوح . انى كنت أسمع جدى ، وهو شيخ كبير ، يقول انه لم يعد يعرف الفرق بين الخير والشر ، وانهما اختلطا عليه ، حتى لا يدرى على التحديد أين يقع الحد الفاصل بينهما . وكنت أعد ذلك منه تفاخرا ، كأنه يقول انه سما فوق الناس ، خيرهم

وشرهم ، وكنت أعد هذا التسامي نقصا ، بل كنت أعده دليلا على أن الانسان تضعف انسانيته حين يكمل عقله . وكنت أرى أن قوله هذا يدل على ما أصابه من ضعف حين أسن وكبر . أيمكن ان أكون قد بلغت هذا الحد من الضعف النفسي ، وأنا بعد فى عنفوان الشباب ، أيكون شأننا فى التفريق بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل ، انما يتعلق بقربنا منهما أو بعدنا عنهما ، كما تكون الحال عند التفريق بين الجمال والقبح . ألا ترى أن أجمل النساء يستوين وأقلهن جمالا اذا نظرت اليهن من قمة جبل ، كما يستوين اذا نظرت اليهن عن قرب يجعلك لا ترى منهن ما يزيد على قدر الأنملة . ولعل قربنا من حادث الأمس يمنعنا أن نرى أحق هو أم باطل . ألم يعبد آباؤنا العجل ، ونحن نرى ذلك أكبر الخطأ ، ولم يكونوا يرونه كذلك لقربهم منه زمانا . ثم ان قيصر لا يعرف الفرق بين الثلاثة الذين سيصلبون اليوم لبعده عنهم مكانا ، ونحن لا نفرق بينهم لقربنا منهم . أيكون خير اليوم شرا بعد عشر سنين ، ثم يعود خيرا بعد عشرين ، أيكون ما تراه هنا خيرا يراه الناس فى روما شرا . أين الخير ، وأين الشر ، انهما يتشابهان ما لم نكن منهما على بعد خاص فى الزمان والمكان . وما هذا البعد ، وماذا بقى بعد ذلك من قدسية الخير .

وأصابه من هذا التفكير دوار ، فعرج على دار صديق له ، وأخذ يحدثه عن ما رأى وسمع ، وعن ما جال بفكره منذ الصباح ، وكان بادي الاضطراب . قال له :

— ما كنت أحسب أن فى قومنا مثل هذا التاجر . ان الشيطان نفسه لا يزين للناس أعمال السوء بأكثر من هذا الذى قاله ذلك الرجل . انه يؤكد لهم أنهم بمنجـاة من الخطيئة والعقاب ، ما دام الجرم موزعا بينهم .

— لا تسرف فى الطعن على قومك . ان أمة اسرائيل هى الانسانية كلها ، ولكنها مشوهة كما يشوه الناس أمام المرآة المقعرة المحدودبة يمر الناس أمام هذه المرآة فترى جزءا من جسمهم يعظم جدا ، وآخر يصغر جدا ، ثم ينتقلون فاذا الجزء الضخم يصبح دقيقا ، والدقيق يصبح ضخما . هكذا اسرائيل ، فيها كل الصفات الانسانية خيرها وشرها ، الا أنها تتضخم فضائلها وتصغر عيوبها حينا ، ثم تصغر هذه الفضائل وتعظم العيوب حينا آخر . اننا لم نأت بجديد وانما نمثل الناس جميعا على هذا الوجه .

— انى انما أريد أن أعلم شيئا واحدا : أنحن عـلى صواب فى اتهام هذا الرجل وصلبه ، أم على خطأ .

— احتكم الى ضميرك وحده فهو الذى يهديك .

— ليس الأمر للضمير وحده . انما يتعلق أكثره بالعقل وعقلى هـو الذى يوحى الى أن فى دعوته خطرا على بنى اسرائيل ، ولذلك طالبت بدمه . وانى أريد أن أتبين هل هو حقا خطر علينا ؛ أريد أن أعلم الى أى طريق يسير بنا العقل : ألى الحق أم الى الضلال .

— ليس الى ذلك سبيل ان كان العقل وحده دليلك .
أتستطيع النملة أن تعلم أسائرة هى صوب قمة الجبل أم الى أسفل الوادى ؟ ان قصر نظرها ، وصغر خطواتها يمنعانها أن تدرك الغاية البعيدة ، وهى مع ذلك أكثر ما خلق الله صوابا فى عملها ، انها تقدر الخطأ والصواب القريبين ، ولا شأن لها بالغايات البعيدة .

— ولكن الانسان ليس نملة ، انه يرى الغيب بعقله .

— وهذا مصدر أخطائه الكبرى . انه يظن فى نفسه القدرة على أن يرى المستقبل بعقله ، ويخيل اليه أنه يستطيع أن يهيىء الأسباب التى تؤدى به الى غايات بعينها ؛ وهو تقدير كل عناصره خطأ . ولو أنه دبر أمره على ما يوحيه اليه ضميره حاضرا ، ولم يسرف فى الثقة بما يصوره له عقله من نتائج بعيدة لقل خطؤه .

ان أعظم الناس ذكاء لا يدرى ما سيكون لما يعمله من أثر بعد عام أو عشرة . والذين يحسبون مثل هذا الحساب يظلون يتخبطون فى ظلمات الضلال . ألم يأتك نبأ ذلك البناء الذى عرفه المصريون واليونانيون ، ذلك البناء الذى جعلوا له طرقا ملتوية ، من دخلها صعب عليه أن يجد له منها مخرجا ، ما لم يرشده دليل . ان السائر فيه لا يستطيع أن يقدر ، عند كل مفترق ، أمخطىء هو أم مصيب . كذلك الحياة ، لا يدرى أحد عندما يختار طريقا بعينها ، أسائر

هو الى النجاح أم الي الاخفاق ، وهل ما يعمله صواب أو خطأ .

— انى أريد أن أهتدى الى الصواب فى هذا الأمر البسيط ، أصلب هذا الرجل اليوم حق أم باطل .

— حاسب ضميرك وحده . ثم أخلص لهذا الضمير ، وليس عليك أن تعلم هل سيرى الناس عملك حقا بعد مئات السنين ، فليس للانسان سبيل الى علم ذلك .

— ان ضميرى وحده لا يرى عليه مأخذا .

— وهل ستقول ذلك اليوم .

— وددت لو استطعت انقاذه .

ثم سكت وسكت صاحبه برهة ، ثم استأنفا الحديث :

— ألا تريد أن تقوم مقامى اليوم فتدعو الناس أن يعدلوا عن قرارهم بالأمس ، ان ذلك عليك أسهل .

— لعلى أشد حرصا على هداية نفسى منى على هداية غيرى . ثم انى لا أرى أن الذين يقومون على أمور الناس يحق لهم أن يتولوا ذلك ، الا أن تكون قد كملت شخصيتهم ، واستقرت طباعهم ، وهدأت نفوسهم ، وبرئت من أدرانها ، حتى لا يصيبوا الناس بأدوائهم . ولم يتهيأ لى شيء من ذلك بعد . والذين يعملون فى الحياة العامة يجب أن يكونوا قد خلصوا من صعاب حياتهم الخاصة ، ولما أبلغ هذه الغاية ، فليس لى فضل من جهد أبذله فى الحياة العامة .

— ألا يستهويك أن يكون لك على الناس سلطان ، وأن تشعر بسبقك غيرك ، وأن يكون بيدك البطش والعفو ، كأنك تخلف الله فى خلقه . الا يغريك النجاح . أو لا تدفعك نفسك أبدا الى الشهوات ، فتخرج بك عن حد العقل . انى لأغبطك على هذه السكينة التى تملأ قلبك ، وهذا البعد عن ما تأمر به النفس ارضاء لجشعها . انى أشعر وأنا أغالب الناس فأغلبهم ، وأتولى الحكم فيهم ، أن الأنانية هى الدافع الأول لى ، ويزيد من ألمى لهذا الذى أشعر به أن أتحدث الى امثالك ، ممن لم تفتك بهم الأثرة .

— لنفرض ان الأنانية وحدها هى التى تدعوك الى خدمة الناس ، فأى أثرة فى ذلك . ان الترهب أكبر مظاهر الأنانية . مهما يكن فيه من ارهاق وحرمان . انه لا يراد به الا أن ينفع الراهب نفسه فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولا ينفع تبتله أحدا غيره . ثم انك ان تكن تغبطنى على السكينة فانى أغبطك على هذا الشعور الحاد بالحياة ، وحبك التمتع بها كاملة . ولو أنك أخلدت الى السكينة ، وهى ليست من طبعك ، لشقيت بها . ولو اندفع مثلى الى الكفاح ، وليس من طبعه ، لكان شقيا .

— ولكنى قد أضر أو أنفع ، وقد أخطىء أو أصيب ، وقد اوذى الأبرياء ، أو أرفع المجرمين ، وقد أفعل كل ذلك فى سبيل ارضاء نفسى وبلوغها أمانيها ، وفى سبيل التمتع بهذا الشعور العميق بالحياة .

ان خدمتك للناس فضل منك ، مخطئا كنت أم مصيبا .
انما يرهق أمثالك أنهم يرون الحيـاة سباقا ، ومن رآها كذلك فلن يقنع بشيء ، ولن يرضى عن نفسه ، ولو أوتى ملك القياصرة . ولو أنهم راضوا أنفسهم على أن الحيـاة ليست سباقا ، وانما هي تحقيق ما ركب فيهم من قـوة وقدرة ، ولو أنهم علموا أن كل واجبهم أن لا تقصر همتهم عن تحقيق ما خلقوا له ، وماركب فى طباعهم من قـوة أو ضعف ، لاتفق لهم بذلك كل مابه يسعدون .

— ان قولك هذا يخفف عنى كثيرا من ألمى واضطراب نفسى ولكنى مع ذلك أريد أن لا أذهب الى دار النـدوة اليوم حتى لا أحمل الوزر كله .

ثم خرج صاحبنا ولم يكن فى الواقع أقل قلقا وحيرة ، ولم يكن لهذا الحديث أن يهدىء من ثورته ، أو يهـديه طريق الصواب . وأخذ يقول لنفسه : ان أكبر الجـرائم ترتكب فى سهولة ويسر ، اذا وزعت توزيعا يجعل نصيب كل فرد أصغر من أن يضطرب له ضميره ! لم يجد الشيطان اغراء للناس يسوقهم الى جهنم أقوى أثرا من هذا القول . أترانى أسير أنا أيضا وراءه الى جهنم ، غير عالم بشيء مما يدفعنى اليه عقلى وعلمى ؟.

المفتي

كان في أورشليم عالم فقيه تقي ، وكان قومه يحبونه ويجلونه ، وكان يتولى افتاء بني اسرائيل في أمور دينهم . وهم قوم في حاجة دائما الى الفتيا ، ذلك أنهم لا يفتأون يلتمسون تأويلا لنصوص التوراة حين تعترض سبيل حياتهم ، وما أكثر ما يحدث هذا الاعتراض . ومما يؤثر عن المتدينين منهم أنهم يرون أن الرجل يجب أن يمهر عرسه قطعة من ذهب . فان كان من الفقر بحيث لا يملك ما يقدمه لها فانهم يبيعونه خاتما من ذهب بثمن بخس ، درهم أو اثنين ، يقدمه اليها، ثم يشترونه منها بعد ذلك بدقائق، ويرون ذلك خيرا من اعفاء الفقير من هدية الذهب ، لأن الاعفاء لم يرد به نص في كتبهم . ولمثل هذا كان لرجل الافتاء عند اليهود شأن ، وكان لهذا المفتي شأن أكبر ، اذ كان حريصا أشد الحرص على أن تكون فتواه خالصة لوجه الله .

وكان له ابن من أذكى الناس ، يصحبه دائما الى الندوات ، يستمع ويتعلم ، وكان يعد نفسه لأن يلي الافتاء من بعد أبيه . وكان في صباح ذلك اليوم ممتلئا نشاطا

وسرورا ، حين جاء الى أبيه مبكرا فسلم عليه وقبل يده ، وجلس اليه ، على عادته كل يوم .

— يا أبت انى سمعت بالأمس حديث رجل الاتهام عن صاحب الدعوة الجديدة ، وما كان أسعدنى بهذا الحديث العجيب الذى جمع الى العلم الغزير حدة الذكاء ، وسحر البلاغة المتدفقة . ولا أشك أنك أعجبت به كما أعجب الناس، فقد كانوا يستمعون اليه فى دهشة ، وهم منصتون الى كل كلمة يقولها ، كأنما بهرهم جميعا حسن بيانه ، وصدق اخلاصه ، وعظيم حبه لوطنه . وما كنت أحسب قبل اليوم أن أحدا يستطيع أن يبهر علماء بنى اسرائيل ، فيملك عليهم قلوبهم وعقولهم كما فعل هذا العالم الخطيب . وما أعجبت بشىء اعجابى بقوة حجته ، فقد أخذ يسرد وقائعه منظمة على أدق وجه وأحكمه ؛ كان يبدأ بأصغرها ، ثم يتبعها ما هو أكبر منها ، ويأتى بعد ذلك بما هو أشد خطرا ، وتراه يقوى أسلوبه ويعلو صوته تبعا لذلك . وهكذا أخذت حججه يتلو بعضها بعضا ، على نظام منطقى بديع ، حتى لم يعد أحد يشك فى شر هذه الدعوة . ولم يكفه ذلك ، فعطف على مستقبل بنى اسرائيل ، وصوره لنا صورة رائعة ، ووصف ما سيحيق بأمتنا لو أن رجال عصرنا خارت قوتهم ، فتركوا الفوضى تدب فى حياتنا وعقائدنا واخذ يشرح لنا أن مستقبل اليهود بعد ألف عام أو أكثر سيقوم على ما نفعله اليوم ؛ فان أخذتنا الشفقة ، وأحجمنا

عن القيام بواجبنا قضى على أمة اسرائيل كلها ، فاذا قاومنا البدع فسيحمدلنا قومناشجاعتنا هذهبعد ألفىعام.وكان كل ذلك واضحا كأنه يراه رأى العين ، وهو بعد لا يزال من أنباء الغيب البعيـد . أليس الذكاء نورا الهيـا نرى به ما سيقع بعد أن نوارى التراب نحن وأبناؤنا وأحفادنا ، أيمكن أن يكون هذا الذى تنبأ به خطأ مع هذا الوضوح كله.

وما أنس لا أنس قوله : « ان حيـاة بنى اسرائيل ، شعبا وديانة ونظاما ، أمانة فى عنقنا ، فليس لنا أن ندع أمتنا يعصف بها كل من يأتيها ببدعة جديدة . ان البدع لا تؤثر فينا ، وان كثرت ؛ فنحن أقوى ايمانا من أن نضطرب لشىء مما سمعتم ، ولكن البدعة كضربة المعول فى الجدار ، قد لا تؤثر فيه أول مرة أثرا ظاهرا ، ولكنها تفعل به فعلا خفيا يجعله أسهل سقوطا عند الضربات التالية . فاقطعوا دابر الفتنة فانها فتنة حقا . وقد رأيتم من فتوى المفتى ، وهو على ما تعلمون علماوفضلا ، أن معجزات صاحبالدعوة الجديدة ان صحت لا تدل على صدقه ، ورأيتم ما قاله شيخ علمائنا من أن المبادىء الخلقية التى يدعو اليهـا — بالغة ما بلغت من السمو — تنقض ما أمرنا به الله . أليس الله أعلم بما يصلح للناس ، أيجوز لمثل هذا الرجل أن يرتفع فوق ما أمرنا به سبحانه وتعالى . انه يأمر رجاله أن يحبوا أعداءهم ، ونحن وان كنا أسلم عقلا من أن نستمع

الى هذا الكلام الخلاب ، لانستطيع أن نسكت عنه ؛ فان فيه القضاء التام على بني اسرائيل . ولو آمنوا به لانحلت وحدتنا وضاعت شخصيتنا وتلاشت أمتنا في من حولنا من أعدائنا وهم أقوياء . ان ذلك لن يكون أبدا . ان كل مانعلمه عنه يرجح كذبه وشدة مكره ، ويحتم علينا أن نقضى عليه . على أنى أذهب الى أبعد من ذلك ؛ هبوه صادقا ؛ وهبوه ذا قوة وسلطان ؛ يأمر الجبال فتسير ، والموتى فيقومون ، هبوه يستطيع أن يرسل الصواعق فتقضي علينا نحن الذين نحاكمه،هبوا ذلك كله واقعا علينا لا محالة ، فاني أدعوكم ، رغم هذا كله ؛ أن تتمسكوا بالقضاء عليه . من منا لا يقبل أن يموت فى سبيل حياة بنى اسرائيل ؛ وأية تضحية لا تهون فى سبيل شعب كشعبنا ؛ ودين كديننا ، اذكروا قوم اسرائيل بعد ألفى عام ، واحكموا على هذا الداعى الى البدعة بما يكون فخرا لكم ولهم فى ذلك المستقبل السحيق »

أليس ذلك أجمل ما سمع الناس وما قرءوا

فقال له والده :

— وهل فى هذا الجمال ما يدل على صواب رأيه ، وصدق حكمه .

— انه انما استرشد بفتواك ، ورأى كبير العلماء .

— كلانا يعلم أنه أخذ من قولنا ما يعجبه ، وترك ما لا يوافق هواه . ألم أحذرك نصف الحق فهو شر من الباطل .

— ولم لم تذكر ذلك بالأمس ؟

— سأذكره اليوم .

— لن يكون لذلك أثر ، فقد ثبت لدى الناس أن صلبه واجب .

— أهذا ذنبى

— أتراه ذنب القائم بالاتهام ؟

— قد لا يكون ، وقد لا يكون ذنب الناس ، فهم انما اقتنعوا بما قال كبراؤهم .

— اذا كان ما حدث بالأمس خطأ فمن المخطىء ؟

— علم ذلك عند الله وحده .

— ألا يمكن أن يكون ما قرر العلماء بالأمس صوابا

— وقد يكون خطأ . قد يصير هذا اليوم سبة لبنى اسرائيل الى الأبد ، وقد يكون سبب نكباتهم ، شعبا ودينا ونظاما ، مدى عشرات القرون . وانا لنعلم أن الصواعق لن تنزل علينا اليوم ، مهما يكن عملنا ضلالا . فدعوى التضحية بأنفسنا فى سبيل حياة قومنا ، وطهارة ديننا ، دعوى رخيصة ، اننا نريد انقاذ اليهود بهذا القرار ، وقد يكون عملنا سببا فى سبيل قتل آلاف اليهود ، وقد يعذب من قومنا مئات الآلاف وهم أبرياء لا ذنب لهم الا هذا القرار الذى دفعنا اليه خطاب أعجبك زخرفه

— ان الشك عندما يحين وقت العمل لا يغنى شيئا ،

أليست هناك وسيلة نعرف بها وجه الصواب فى مثل هذا الأمر .

— لا أدرى . ولكنى أعلم علم اليقين أن هناك طريقين تؤديان الى الخطأ : أن نرجع الى التاريخ نلتمس فيه الموعظة والأمثلة ، وأن نسترشد بالمستقبل كما يهيئه لنا تفكيرنا ، فنقدر حاضرنا على أساس ما نتصوره من نبوءات ، ولعل التاريخ ، على ما به من ضعف ، أهدى الى الحق من دعوى التنبؤ بالغيب ، فان هذا التنبؤ لا يمكن أن يقوم على صحته برهان ، وانما يعجبنا بريق الذكاء الذى يصحبه غالبا . ألم تر كيف أعجب فرعون بالنبوءات التى ذكرها يوسف ، قبل أن يقوم عليها برهان ، ولم يكن تصديقه له ، واعجابه به الا لما فى قوله من دليل على الذكاء . واذا كان يوسف قد أصاب فى قوله ، فان ذلك لم يكن من عمل عقله ، ولكنه وحى أوحى اليه . أما غير الأنبياء من المتنبئين الذين يعتمدون على ذكائهم ، فانهم كاذبون ، وخطؤهم أكثر من صوابهم .

— وما سبيل الناس الى الصواب .

— اتركوا الغيب لله ، فليس الى العلم به سبيل ، وهو أظلم علينا من أن يكون لنا فيه هداية . وليكن حكمنا قائما على مافينا من قدرة على تقدير الحاضر ، على أن لا تتعدى حدود الضمير . وليس فينا من يرضى ضميره

عن صلب هذا الرجل ، وانما يرضى عنه عقلنا وحـده . أما الضمائر التى خلصت من شوائب التفكير الخاطىء فلن ترضى عن عملنا هذا .

عند ذلك أطرق الشاب ووجم . ودخلت عليهما أمـه تحمل طعامهما فوجدتهما على غير ما تعهد ، وقد . الأب انه لا يريد أن يأكل شيئا ، وقال الابن ان الحديث قطع عليه كل رغبة فى الطعام ، وكان قبله أكثر ما يكون نشاطا . ولمـا علمت أمه بما دار بينهما قالت لابنها .

— ان أباك خلق وبه داءالشكوالتردد، ولم أعهده أفتى فتوى رائعة الا عاد الى نفسه يقول ليتنى لم أفعل .

— انى لن أفتى بعد اليوم ، انهم أساءوا فهم فتواى ، ويريدون أن يقتلوا بها رجلا أرى ضميرى لا يرضى عن قتله .

— لعلك تريد اليوم أن تعدل عن رأيك .

— وما الذى يمنعنى من ذلك . انى لا أريد أن تبقى فتواى على مر الزمن سببا فى صلب رجل لا أعـلم عنه شرا .

— ألا يمكن أن تكون الفتوى صوابا

— اثمها ان تكن خطأ أكبر من نفعها ان تكن صوابا

— ان الناس جميعا آمنوا أن صـلبه واجب ، ولن يعدلوا عن رأيهم ، بعد ما سـمعوا ما تداولتموه بينكم

بالأمس ، ولن يكون لرأيك الجديد من أثر فيهم . فان العامة لا يفهمون التشكك ، حتى حين يكون الشك هو الصواب ، بل هم يتبعون من يؤكد لهم أن رأيه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولو كان خطأ كله .

— انى أترك سياسة العامة لغيرى ، فليس أمرهم من شأنى ، انما يعنينى أن لا يبنى الخطأ على رأى ينسب الى . واذا كنتم تريدون الحق الثابت فابحثوا عنه فى غير هــذه الدنيا ، أو عند غير الانسان . وأنا لا أريد أن أكذب على العامة فأصبغ لهم رأيا بعينه صبغة الحق الثابت ، ولا أريد أن أموه عليهم ، ولو كان ذلك خيرا لهم . واذا كنتم ممن يرون أن الكذب تسوغه السياسة ، فاعلموا أن ذلك انما يرجع الى ما اختاره رجال السياسة لأنفسهم ، فهم يختارون أسهل السبل وأقربها الى بلوغ غاياتهم ، وأقلها مشــقة . وانك لتراهم يتهافتون على الكذب ويتسابقون اليه ، حين يكون أسهل السبل الى غاية يريدونها . ولو اتبعوا سبيل الصدق لبلغوا هذه الغايات على ما قد يكون فى طريقهم من مشقة وصعاب . واذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة ، فذلك أنهم يضعون السياسة فوق الدين ، أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ، وهــذا هو الضلال المبين .

لازار

كان فى أورشليم رجل اسمه لازار ، بعث بعد موت ، وكان بعثه معجزة تحدث بها الناس ، فآمن بها قليلون وأنكرها كثيرون . وكثر الحديث عنها فى دار الندوة حين بحثوا فى أمر النبى الجديد الذى يدعى له أنصاره القدرة على احياء الموتى . ولم يكن هناك شك أن لازار مات أياما ثم لجأت أخته الى المسيح طالبة أن يبعثه من أجلها ، اذ لم يكن لها فى الحياة غيره . وكانت مؤمنة بالمسيح ، فاستجاب لايمانها ، وعادت الحياة الى أخيها . الا أن الذين عرفوه من قبل شابا جميلا مرحا ذكيا ، أنكروه بعد أن بعث ؛ فقد أصبح بعد البعث شاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، شارد الفكر . وكان الناظر اليه لا يرى فى وجهه أثرا للعواطف الانسانية الطبيعية ، فهو لا يفرح ولا يحزن ولا يضحك ولا يبكى ، وانما كان يغضب غضبا عنيفا اذا غاظه أمر من الأمور ، ويهيج فى غير اعتدال لأتفه الأسباب . وكان شديد الفزع ، دائم الخوف ، ترى ذلك فى نظرته الحائرة التى هى أشبه الأشياء بنظرة السبع حين يحاط به فلا يجد سبيلا للنجاة .

ولم يكن يألف أحدا من الناس ، حتى أخته التى من

أجلها بعث ، ولم يعد يتحدث الى أحد ممن عرفهم من قبل ، وصار لا يجلس الى أحد ، ولا يسير الا فى الدروب الضيقة وكانت أخته وحدها من بين أهل أورشليم تجلس تحت قدميه وتقبله وتعطف عليه . وكانت هى وحدها التى ترى أن عودته اليها نعمة وبركة . ولم يكن يعنيها على أية صورة عاد ، فان فقدها اياه كان خليقا أن يحرمها كل أمل فى الحياة . وكان تعلقها به تعلق الذى بعثت له أمنية عزيزة ، كان يظنها ضاعت الى غير رجعة . أما أهل أورشليم فكانوا يتشاءمون منه . وكانوا يبادلونه البغض والضيق والضجر ، وكلهم برم به ، لا يريد أحد أن يعرفه ولم يسأله أحد عن صفة الموت وهو وحده الذى عاد بعد أن ذاق طعم الموت وخبر أمره . ولم يقبل عليه أتباع النبى الجديد ولم يعدوه واحدا منهم . انما كانوا يتخذونه آية من آيات الله ، وبينة على صدق رجلهم الذين آمنوا به . واتفق الناس جميعا على أن بعثه لم يكن نعمة عليه ولا على أحد ممن حوله . وكانوا يعدونه أتعس أهل أورشليم ، وكأنه حين بعث انما عادت اليه الحياة ولم تعد اليه الروح أو النفس . وتساءل الناس : هل البعث الى هذه الحياة الدنيا — وهو حلم الانسانية كلها — لا يتم الا على هذه الصورة ، وأجمعوا على أنه اذا كان هذا شأن البعث فلا حاجة بالناس اليه .

وبينا لازار يسير مبكرا فى ذلك اليوم اذ رآه بعض الأطفال فتجمعوا حوله ، وأخذوا يرشقونه بالحجارة

ويسخرون منه ويؤذونه ، واتبعوه فى الطرق الضيقة التى كان يألفها ، يبتعدون عنه حين يهجم عليهم ، ويجرون وراءه حين يريد الافلات منهم . وكان فى الطريق الضيق الذى سلكه دكان حداد فقير لا يكاد يكسب قوت يومـــه لقلة ما يطلب اليه عمله ، ولكنه كان سعيدا فى ذلك اليوم أن قدم عليه تاجر معروف يطلب اليه أن يوقد النار من فوره ، وأن يعمل له أشياء لا بد من صنعها اليوم ، ويخبره أن ذلك لأمر جلل لم يشأ أن يذكر عنه شيئا .

وأجزل التاجر العطاء لهذا الحداد ، ووقف غير بعيـــد ينظر الى الكور بعد أن أوقدت فيه النار ، والى الحـــديد يطرق والشرر يتطاير منه ، واطمأنت نفسه أن ما وعد به الحاكم الرومانى سيتم عما قريب .

وأقبل لازار والأطفال من حوله ، وقد بلغ منه الذعر ، ورأى أن يلجأ الى دكان الحداد فدخل فيه . ولكن الحداد حين وقع نظره عليه صاح صيحة انخلع لها قلب لازار ، أن اخرج من هذا المكان فلن أدعك تدخله وأنت أشأم الناس، وكفانى بؤسا ما لقيته فى حياتى ، فلا تجلب علىّ الشؤم فى هذا اليوم الذى لاحت لى فيه بارقة أمل . ولوح الحداد بمطرقته وهو يتميز من الغيظ ، واضطربت يده ، فأفلتت المطرقة ووقعت فى الكور فتطايرت قطع من النار ، أصابت احداها التاجر فى عينه فزأر من شدة الألم ، وهول الفاجعة .

وجن جنون الحداد فاندفع صوب التاجر ليرى ما حدث له نزلت قدمه ووقع على الأرض فتلقاها بيده ، وكان فى الأرض مسامير كثيرة ، دخل أحدها فى يده اليمنى فخرج من ظهرها . وعلا الصياح واشتد الهرج ، وأقبل الناس من كل فج ، وشغلوا بانقاذ المصابين ، وكان فى الوقت متسع للازار ، فهرب واختفى عن أعين المطاردين حتى بلغ مـأمنه . فلما رأته أختاه على هذه الحال من الرعب ، حزنتا حزنا شديدا ، وطفقتا تصليان ، وتدعوان الله أن يتم نعمته عليه ، وأن يرد اليه صحته وعقله وجماله ، فاستجاب لدعائهما . ولكن لازار لم يعد يطيق الحياة فى بلده هذا فعزم على أن يبرحه وأن يهاجر الى بلاد نائية يبشر فيها بالدين الجديد .

وأراد التـاجر أن يطمئن الى أنه لا يزال يرى بعينه الأخرى فنظر الى الحداد فوجده يلوح فى الهواء بيد فيها مسمار اخترقها . عند ذلك هدأ صياحه ونزلت عليه السكينة — على ما كان فيه من ألم لا يطاق — وطلب الى الناس أن يعينوه على الذهاب الى بيته ، وأن يحملوا الحـداد الى طبيب وقال لأصدقائه انه يريد أن يحتمل ألمه دون شكوى ؛ فانه يعلم ما لا يعلمون ولا يريد أن يبوح بما يعلم ، وان فى آلمه شفاء لنفسه من داء لا يعلمه الا هو .

تجمع فى مكان الحادث خـلق كثير ، وعلا ضجيجهم ، واشتدهرجهم ، وأخـذوا يطالبون بالانتقام من أولئـك

السحرة الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، ويؤذون الأبرياء . فلما سمع التاجر ذلك طلب اليهم أن ينصرفوا ، فهو لا يريد انتقاما ، ولا يعتقد أن الحادث من أعمال أتباع النبى الجديد ولكن الذين تجمعوا فى ذلك المكان أحسوا بقوتهم ، وصمموا على الانتقام،وقالوا ان كان هؤلاء يشفون المرضى فهم قادرون على احداث المرض فى الأصحاء ، وان كانوا يحيون الموتى فهم قادرون على قتل الأبرياء . وتنادوا بينهم أن هلموا الى دار الندوة نطلب دمهم جميعا ، هو وأتباعه . ورأوا بينهم رجلا منعه ضعفه أن يشاركهم فى حماستهم ، فحسبوا ذلك منه استنكارا لما يعملون ، فضربوه حتى أغمى عليه . وقال رجل منهم هذا ظلم ، انكم تقتلون بريئا لا ذنب له ، فنظروا اليه نظرة ملؤها البغض والغضب وحب الاجرام ، وقالوا هذا أيضا من رجاله ، اقتلوه . وهموا به فامتقع لونه ، وعلم أن الانسان يقف أمام الجموع الهائجة كما يقف أمام الحيوان المفترس ، ونظر الى من هم أقرب اليه ، فأجفلوا عنه واحدا واحدا ، ولكن الجمع لم يجفل ، وكادوا يبطشون به فى غير ذنب جناه ، لولا أن قيض الله له رجالا يعرفونه حق المعرفة ، أنقذوه منهم . ومنذ ذلك اليوم كره الجموع الحاشدة ، اذ أيقن انها لا تفهم الحق ولا العقل ولا العدل ، وأنها لا تفهم الا القوة ، ولا تخضع الا لها .

وأقبل على بيت التاجر رجل من علماء بنى اسرائيل كان من أشد الناس غضبا على صاحب الدعوة الجديدة

وأتباعه . فلما سمع بما حدث تاقت نفسه أن يتثبت فيكون ذلك دليلا جديدا على فساد هذه الطغمة التى لا يمكن أن يكون فيها خير . واختلى بالتاجر ، وسأله عن حقيقة هذا الحادث العجيب .

— انى لا أرى فيه ما يدعو الى العجب . كنت أقف بجانب النار ، وكان يجب أن أقف بعيدا عنها ، ولو فعلت ما أصابنى شىء ، ثم سقطت مطرقة من الحديد فى النـار ، فتطاير الشرر فأصاب عينى ، فأية غرابة فى هذا ، ثم وقع رجل على الأرض فدخل فى يده مسمار ، أليس ذلك طبيعيا جدا ، فمالكم تؤولون ما حدث كل هذا التأويل .

— ألم يحدث فى تلك اللحظة أن مر بكم هذا الذى بعث بعد موت ، وانك لتعلم أن هذا الرجل هو أصـل البلاء فى هذه الأيام ومصدر الشقاق بين بنى اسرائيل . ان الناس يكرهون أن ينظروا اليه ، رعبا وفرقا ، وان هيئته وحدها لتدل على أن بعثه من عمل الشيطان. والروح الذى نفخ فيه ليس هو روحا الهيا ، بل هو روح الشر . انه حى لم يفقد بعد صفات الموت ، كأنما بعثت فيه الحياة وحدها فبلغ مرتبة الدواب ، ولم يبلغ درجة الانسان .

— أليس فى الناس من يتبرك به ويود أن يلمسه تيمنا به ، أو ليس الله قد اختصه بما لم يختص به غـيره من العالمين .

— لا أظن أحدا يراه مباركا الا أخته ، فهي تكاد تعبده. أما الحواريون أنفسهم فلا يألفونه ولا يجلسون اليه ، الا حين يريدون أن يقيموا الدليل على صدق نبيهم وقدرته .

— اني لا أفهم سببا يدعو الناس الى كل هذا التشاؤم . ألا يمكن أن يكون لبعثه معنى خاص .

— لقد سمعت شيخ علمائنا يذكره يوما فيقول : انه رمز للضمير الانساني بعد ارتكاب الخطيئة والتوبة . ان الله يتوب على الناس بعد المعصية فيرد اليهم ضميرهم بعد موته — فان ارتكاب المعصية قتل للضمير — ولكن الضمير يبعث على هيئة هذا الرجل ، شيئا بين الحي والميت، ولايمكن أن يكون ضمير الرجل بعد التوبة طاهرا نقيا ، كضمير البريء الذي لم يرتكب اثما .

— هذا رأي جميل لا يستطيعه الا من أوتي حظا عظيما من الحكمة والعلم ، أما جمهرة الناس فلا تفهم الرمز على اني لا أزال أؤكد أن وجود هذا الرجل لم يكن سببا في ما حدث اليوم .

— ان الناس يتحدثون بشؤمهم ، ويقولون ان ما حدث لك نذير بما سيحيق بكثير منا ان لم تأخذ حذرنا منهم . وآخرون يقولون ان مثل هذا الحادث العجيب يكون عادة عقابا الهيا يقع على من اقترف ذنبا أو خطيئة ، ونحن لا نعرف عنك ولا عن الحداد المسكين ذنبا يتفق وهذا

العقاب . ولما كان الناس جميعا يرون أنكما بريئان فلا شك أن ما حدث لكما من عمل الشيطان، وهذا ما أعتقده . وسأذهب الى دار الندوة اليوم أقص عليهم هذا النبأ ، وأسوقه دليلا على أن بين هؤلاء وبين الشيطان نسبا . وأنه تخذهم أداة يؤذى بها الأبرياء أمثالك ، وانه لا بد أن نقضى عليهم جميعا .

— وهل تصر على رأيك هذا اذا قلت لك ان ما حدث لنا اليوم معجزة تدل على صدقهم . ألا فاعلم أن ما يدعوك الى تكفيرهم يدعونى الى الايمان بهم . ان هذا الرجل لذو قوة خارقة ، وسأسر اليك ما أود أن لا تذيعه عنى . ذلك أنى كنت فى ذلك الدكان لأعد الحديد الذى لا بد منه للصليب الذى سيصلب عليه نبيهم اليوم . ولأعد المسامير التى ستدق فى يديه ورجليه . وكان الحاكم الرومانى قد طلب الى ذلك ووعدته به ، ولم أرد أن أخلف وعدى . فلما فتحت عينى ونظرت الى الحداد ووجدته يلوح فى الهواء بيد قد نفذ فيها المسمار — بدا لى أن ذلك رمز للجرم الأكبر الذى سيرتكب اليوم ، كأنه عقاب الهى لهذا الذى يصنع أداة الاثم ، فخفق قلبى بالايمان ، وعلمت أن يد الله فوق أيدينا ، وأن رجله هذا مظلوم .

عند ذلك دهش هذا الصديق العالم وقال

— أحق ما تقول ، انك تكاد تقلب آرائى رأسا :

عقب ، أيمكن أن يكون هؤلاء من المخلصين لله ، لا من أتباع الشيطان ؟

— هذا ما لا أشك فيه منذ اليوم

عند ذلك وجم هذا الصديق ، وخارت قـوة حجته ، وشك فى نفسه مدة من الزمن ، ثم غلب عليه الغرور وحب الظفر ، وخشى قول الناس فيه وغضب الجمهور عليـه ، فقال لصديقه :

— هذا كله من نسج خيالك . أترى شعب اسرائيل كله مخطئا لأنك رأيت فى يد ذلك الحداد مسمارا فخيل اليك انه عقاب له على صنعه مسامير يصلب بها صاحب البـدعة الجديدة . أيسمح لى عقلى وعلمى أن أتبع خيالك فأغلبه على الرأى الراجح والحكمة الناضجة ، وهل تظن ان الله فى حاجة الى مثل هذا الرمز ليقنع الناس أن رجله مظلوم ؛ أليس الله بقادر على أن يرسل علينا صاعقة من السماء تذهب بنا جميعا قبل أن نقتل نبيه ، وهل يبلغ الله عندك من الضعف أن لا يمنع صلب رسوله الا بهذا الرمز البعيد . ألا ان خيالك لمريض ، ولن يكون لرأيك هذا وزن عندي .

— انك لم تفقد عينك ، ولم يدق المسمار فى يدك ، ولو أصابك ما أصابنى لآمنت .

— وهل تظن أن سبيل الله الى ايمان عباده به أن يفقأ أعين الناس ويدخل الحديد فى أيديهم .

— هذه سبيله فى الذين لا يؤمنون ، والذين فى طبعهم الكفر .

— ترى ما الذى سيصيبنى وأنا أصعب منك تصديقا وايمانا .

— ان الله يهدى من يشاء من غير بينة ولا آية ، ويهدى غيرهم بالبينات والآيات ، أما من أراد له الضلال فلا هادى له .

— ان رأيك فى الله بسيط جدا كرأى الجهلاء والأغبياء يظنون أنه ينظر اليهم أفرادا ، ويحصى عليهم أعمالهم واحدا واحدا وعملا عملا ، وان الذين أوتوا قليلا من العلم والذكاء ليضحكون من رأيكم فى الله . ان ايمان أمثالك أكبر سبب فى الحاد الملحدين الذين انما ينكرون ما تواضعتم عليه أنتم من أنه صفات الله .

— فلتظل على علمك وذكائك . أما أنا فقد سمعت من أتباعه من يقول ان الغباوة والجهل والفقر طريق الهداية ، واذا كان يعنيك أن تعلم شيئا عنى فاعلم أنى تركت قومك الى قومهم وأنى بعد اليوم غبى جاهل فقير .

وسكت كل منهما ، وخرج هذا العالم محنقا مغيظا ، وسار الى دار الندوة وقد أخذته العزة ، وصمم على أن يكون عند رأيه بالأمس ، وان كان قد شعر فى قرارة نفسه أن الحق لم يعد بينا كما كان يظن منذ ساعة .

قيافا

حين ألقيت مقاليد بنى اسرائيل الى قيافا فرح أكثر الناس أن سيحكمهم رجل عالم عادل طيب . ولم يكن ذلك جديدا على بنى اسرائيل ، فقد ولى أمرهم من قبل أنبياء وقضاة وملوك ، وكان من بين الملوك رسل وأولياء . وكان اليهود قد سمعوا عن فلسفة اليونان ، وعلموا أن لهم حكمة وان لم ينزل عليهم كتاب ، ولم يهذب ضمائرهم دين . ونمى اليهم أن أحد كبار المفكرين اليونانيين كان يرى أن توكل أمور الحكم الى الفلاسفة ، وكان قيافا فيلسوفهم وعالمهم فاطمأنوا الى حكمه ، وحسبوا أن عهدا جديدا فى تاريخ قومهم قد بدأ وأنه سيكون عهدا سعيدا .

وكان بنو اسرائيل فى تلك الحقبة من حياتهم فى محنة لا تعدلها محنة ، منذ فتح الرومان بلادهم وأعملوا فيهم القوة . وكان أشد ما يزعجهم أن يتحكم فيهم وثنيون لا يفهمون من أمور الدين شيئا وهو أعز شىء عليهم . وكان على من يتزعمهم أن يقيهم شر الظلم وشر الوثنية ، وأن يبقى دينهم قويا ، وحياتهم طاهرة ، على الرغم من الرومان وجبروتهم — كان عليه أن يبقى النار والماء متجاورين

لا يطغى أحدهما على الآخر . وكانوا يرون أن قيافا وحده قادر على تحقيق ما يريدون ان كان الى ذلك سبيل .

وحسده فريق منهم فطعنوا عليه وقالوا انه لن يستطيع حكم بنى اسرائيل ، فهم شعب صعب القياد شديد المراس . ذلك أن قيافا كان لا يؤمن بالقـوة ، ولا يرى أن يكره الناس ، حتى على الخير . وكان يقول ان القوة اذا انتصرت للحق فالنصر للقوة لا للحق ، وان القوة من طبعها الشطط فلا تلبث أن تنتصر للباطل . وكان يرى أنه اذا اصطدم الحق والباطل وانهزم الحق فان ضمير الناس وسير التاريخ كفيلان باصلاح الخطأ ، أما اذا استعان الحق بالقوة فالغلبة لها ، وما دام الحق فى المحل الثانى فسيان أن يكون خاضعا للقوة أو للباطل . ولمثل هذه المبادىء التى عرفت عن قيافا ظن بعض قومه أنه لن ينجح فى حكم بنى اسرائيل لشدة مراسهم ، ولن ينجح فى اقناع الرومان ، فهم لا يؤمنون بغير القوة ولن يفهموا شيئا مما سيحاجهم به . أما أنصاره فكانوا يرون أن مقاومة بنى اسرائيل للرومان بالقوة مقضى عليها بالاخفاق حتما ، وأنه لا بد من مقاومة الطغاة بشىء غير القوة ، وأنه ليس فى بنى اسرائيل من هو أقدر على ذلك من رئيس كهنتهم هذا .

وعاب عليه قوم أنه كان يقول بالزهد فى السلطان ، وكان يزعجه أن يكون له من الأمر ما يغير به حياة الناس

ومستقبلهم لكلمة يقولها قد تكون عن غير اعمال روية أو كثير تفكير . وكانوا يقولون ماله قد قبل أن يتولى من السلطان ما يزعجه ويقلق ضميره ؛ وما كان ينبغى له الا أن يظل عالما فيلسوفا ويدع أمور الحكم لمن لا يرى فيها ازعاجا للضمير . والواقع أن الذين يتولون الصدارة صنفان ، منهم من يسعى اليها جاهدا مجاهدا يتخذ اليها كل سبيل حسن أو قبح ، ومنهم من يضعهم قومهم فى الطليعة لثقتهم فيهم . وكان قيافا من هؤلاء ، فلم يكن له أن يحجم عن الزعامة وان كان لها كارها ، لأنه كان يعلم أن الطامعين كثير ، وأنه أقلهم ضررا وأبعدهم عن القسوة والظلم والأثرة .

أما رجال السياسة فكانوا أشد الناس قلقا حين رأوا قيافا يتولى أمرهم ، فقد كان له فى السياسة وفى رجالها رأى معروف — كأن يرى أنهم لا يستطيعون أن يرتفعوا فوق الواقع ، وأنهم لذلك لا يرجى منهم اصلاح ، بل الاصلاح عليهم مستحيل ؛ ذلك أن السياسة عند أهلها غايتها تحقيق الممكن ؛ أما الاصلاح فهو تحقيق ما يبدو أنه غير ممكن ، فكيف يتفقان . وكان يقول ان السياسيين أجهل الناس بما يتولون من أمر ، وان عظماءهم قوم يسايرون الحوادث ويحسبون انهم يسيرونها ، ويخضعون للعامة ويحسبون انهم الأعلون ، ما دام لهم من العظمة مظهرها . ومن مأثور قوله

أن بين أمر الله وأمر السياسة ما بين الأخلاق والحياة — تنافرا وتباعدا واختلافا ، ليس أصلها التناقض وانما مرجعها الى صعوبة ترجمة أوامر الله الى أعمال السياسة كما تصعب ترجمة مبادىء الأخلاق الى أعمال الحياة .

وقضى قيافا مدة تتولى حكم بنى اسرائيل ، ووفق فى كثير مما عمل ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفا وسطا بين الشدة واللين ، ووقف من قومه موقف العادل المخلص لهم فآمنوا أنه لا يبغى الا الحق . وحملهم هذا الايمان على أن يحتملوا منه ما لم يكونوا ليقبلوه من غيره . ذلك أن حسن ظن الناس بالحاكم أكبر أسباب نجاحه ، الا أنه أمر شاق ، لا يناله الا قليل ، وسر التوفيق فيه الاخلاص المطلق، فى غير تدبير أو حساب أو تمويه أو ادعاء . وكان قيافا من هؤلاء الحكام الموفقين الذين يؤمن الناس بعدلهم ، وصدق حكمهم ، وشدة اخلاصهم .

لم تكن حياة قيافا سهلة لينة ، ولكنه كان يرى الحق بينا ، والباطل بينا ، فلم يخنه صواب الرأى ، ولم يضطرب حكمه الا نادرا ، وكانت له قواعد خلقية بسيطة واضحة تهديه الى الخير ، وقواعد عقلية ثابتة عنده تهديه الى الصواب ، فكان صادق الحكم على الأشياء وعلى الناس . وأعانه على ذلك أن الحاكم الرومانى — على ما كان فى الرومان من صلف — كان ممن يقدرون المبادىء السامية

ويفهمون مشكلات الحق والضمير الى الحد الذى يستطيعه من نشأ بين القواد الرومان .

ظل قيافا موفقا للخير ، راضيا عن نفسه ، حتى قامت الدعوة الجديدة بين بنى اسرائيل ، فملكته الحيرة فى ما يجب أن يفعل بها وبصاحبها . وكان فى قرارة نفسه معجبا بكثير مما جاءت به ، الا أنه حرص على أن لا يعرف ذلك عنه . ومما أعجبه من النبى الجديد أنه وافقه على سياسته ازاء الرومان ، فان قيافا رأى أن يتركه الرومان يدبر أمر قومه فى الدين والحياة الخاصة على أن يترك لهم أن يحصلوا على مايريدون من جزية . ولكنه كان يغبط صاحب الدعوة أشد الغبطة على تعبيره عن هذه السياسة بما لم يرتفع اليه علم قيافا ولا ذكاؤه ، وذلك حيث يقول : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

وبلغ اعجابه بالنبى الجديد غايته حين سمع بمملكة السماء ، ذلك أن قيافا ظل طول حياته يبحث عن حل حاسم لمشكلة خلقية لم يعثر لها على حل فى ما بين يديه من آراء الأنبياء والفلاسفة . ولم تكن هذه المشكلة التى أهمته الا البحث عن جزاء للفضائل السلبية ، والفضائل المستترة ، والسلبية المستترة . فالناس جميعا يعلمون جزاء الفضائل الايجابية كالشجاعة والكرم وعمل الخير ، جزاؤها واضح ، هو تقدير الناس واحترامهم وحبهم ، وحسن الأحدوثة ورضى

النفس . أما الفضائل المستترة كالصبر والامتناع عن عمل الشر والعطف على الضعيف ، والبر بالفقير ، والأمانة ، فليس لها جزاء واضح الا اذا علم أمرها وذاع خبرها ، وذلك يذهب بفضلها ، وقد ينزل بها الى أن تصبح منا ورياء . والفضائل السلبية كالتواضع واحتمال الأذى ونبذ الشر حين تدعو الى الشر دواعى المنفعة أو التقية أو الأثرة ، أو الرغبة فى تجنب الأذى أو نشوة النصر ، وكثيرا ماتكون هذه الفضائل السلبية أقسى على النفس ، وأصعب احتمالا من الفضائل الايجابية البراقة الرنانة . وكثيرا ما فكر قيافا فى ما عند الفقراء والجهلاء وبسطاء النفوس ، من هذه الفضائل ، وكان يدرس حياة هؤلاء فيجد فيها من البطولة السلبية المستترة ما يملأ قلبه اعجابا . بل كان يبحث فى حياة العاهرات ورجال الخمارات فيجد فيها مثلا غليا لشجاعة الاحتمال ، وبطولة التضحية ، وفضل الصبر . وكان يود لو يستطيع أن يجد لهم جزاء فانه من الظلم أن يكون تقدير الفضائل مقصورا على بعض الناس دون البعض ، وعلى طبقة دون طبقة . ولم يكن يكفيه ما يقال من أن جزاء هذه الفضائل رضى النفس ، فذلك وحده لا يفى لهم بما يستحقون من جزاء ، واذا كان ذلك كل الجزاء فان أكثر الناس سيجدون من الصعب عليهم أن يتمسكوا بهذه الفضائل طول حياتهم ، دون أن يعتريهم يأس أو ملل .

واهتدى أخيرا الى حل فرح به ، هو أن طبيعة الانسان كل لا يتجزأ ، فهي وحدة متماسكة ، وكل فضيلة — مهما يكن أمرها خفيا — تعد حجرا فى بناء الشخصية ، ولا يضيع أثرها ، وان خفى على الناس فضلها . والذين يظنون أن تضحياتهم تذهب هباء ، وأن صبرهم على المكروه لا يعرفه أحد ، وأن تعففهم عن السوء يحرمهم خيرا كثيرا ، ثم لا يعرف أحد عن هذا التعفف شيئا ، كأنهم والذين لم يتعرضوا للاغراء سواء ، كل هؤلاء يجب عليهم أن يذكروا أن ما يعملون يكون لهم شخصية طيبة لا يخطئها أحد وان خفيت على الناس أعمالهم تفصيلا ، وأن يعلموا أن فضائلهم وتضحياتهم لا تذهب سدى ، وعليهم أن يظلوا عاملين على شاكلتهم فان هذه الشخصية الطيبة التى تعرف عنهم جزاء أوفى .

ولكنه وجد أن النبى الجديد جاء لهذه المشكلة بحل أروع وأجمل ، ذلك أنه خلق لهم مملكة السماء جزاء على هذه الفضائل المستترة والسلبية ، وجعل دخولها حقا للفقراء والبسطاء والخاطئين والجهلاء. فرد لهم بذلك اعتبارهم وأعاد اليهم انسانيتهم ، وجزاهم خيرا على ما يكون فيهم من فضائل . وكان ذلك عند قيافا حلا رائعا يحقق نوعا من العدل حرمه هؤلاء من قبل .

ولم يعجبه كثيرا ما تهجم به صاحب الدعوة الجديدة

على الفريسيين ، ولم يكن قيافا يحبهم أو يأبه لهم ، ولكنه كان يقول ان اعلان العبادة والتقوى ينشر لواءها بين الناس، فان كان المتعبد التقى منافقا فسيحرمه الله ثواب عبادته وتقواه،ولكن هذا التظاهر يبقى على التدين حتى لا ينساه الناس ، وقد يدعو ذلك كثيرا منهم الى التعبد الحق .

وأنكر قيافا انكارا تاما ما حكم به صاحب الدعوة الجديدة فى أمر المرأة التى أراد النـاس أن يرجموها ، فكان يقول ان هذا الذى حكم به السيد المسيح — مهما يكن سموه ونبله — تهجم شديد على أمر صريح من أوامر الله لا سبيل الى تأويله ، وان هذه بداية اذا اندفع فيها من فى قلبه زيغ فلن يعلم أحد مدى ما يبلغه النـاس من تنكر للدين وتأويل لأوامره . وكان قيافا لا يعبأ كثيرا بمعجزات النبى الجديد ، انما كان اعجابه به أنه أتى بمعجزات من المبادىء السامية ، والحلول الرائعة ، لمشكلات فى الأخلاق لم يوفق أحد قبله الى حلها على هذا النحو البديع .

وكان قيافا يعتقد أن أحدا لا يفهم الدعوة الجديدة ، مداها ومغزاها ، الا هو وصاحبها . وكان يغبطه على توفيقه فيها من الناحية الخلقية ، ولكنه كان يؤكد أنها لن تنجح فى تغيير طبائع الناس وحياتهم . وكان يقول لنفسه ان النبى الجديد — بالغا ما بلغ من السمو فى المبادىء ، والعمق فى التفكير — لن يوفق الى نجاح يذكر فى اصلاح حال

الناس ، وانه ان يكن قد بين حدود الضمير الانسانى عند الفرد فانه عجز عجزا تاما عن أن يخلق للجماعات ضميرا ، كأنه يظن أن الجماعات تكون طيبة اذا كان أفرادها طيبين ، وهو خطأ مشهور . انما يجب أن نخلق للجماعات ضميرا يمنعها أن ترتكب الشر ، على أن يكون ذلك بوازع من الضمير وحده ، دون أن تحمل عليه قهرا ، وان لم تفعل فسيظل الشر بيننا قائما وان أنكره كل فرد منا . وكان يقول عن النبى الجديد ، انه يريد أن يضع الضمير فوق التدين ، ولكن أهل التدين سيقضون عليه قبل أن ينقذه أهل الضمير . ويريد أن يرفع صغار الناس الى أن يساوى بينهم وبين من هم أعلى منهم ؛ ولكن هؤلاء سيقضون عليه قبل أن ينقذه من يريد أن يرفعهم . ويريد أن يرفع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، ولكن الوطنية ستقضى عليه قبل أن تنقذه الانسانية . انه لم يؤذ أى فرد من بنى اسرائيل ، ولن يؤذيه أى فرد منهم ؛ ولكنه يؤذى اسرائيل مجتمعة ، وجماعتهم هى التى ستنتقم منه ، وان كره كل واحد منهم أن ينتقم منه بنفسه . ثم يقول مع ذلك انه نبى ، ويقول أتباعه انه اله . أليس اخفاقه عجزا ، ومتى كان العجز من صفات الربوبية ، الا عنده هو وأتباعه . سيتبين له بعد قليل أن مجرد انسان مثلى أقدر منه على الاصلاح ، وان أمدته روح القدس . ألا فليعلم أن الاصلاح أقرب ما يكون الى

النجاح حين يكون قريبا من الواقع ، وأن الاصلاح الجارف الذى يسمو عن ما يكون عليه الناس سموا كبيرا لا أمل له فى النجاح ، وأن المصلح الحق هو الذى يرتفع بالناس عن ما هم فيه ارتفاعا قليلا . عليه أن يعلم أن الزمن عامل من أكبر عوامل الاصلاح ، ولا يستطيع الأنبياء ولا الآلهة أن يغفلوه . والدعوة التى قد تصلح للنـاس بعد آلاف السنين تكون عليهم وبالا اذا عملوا بها قبل أن تتهيأ لهـا نفوسهم . انه ان يكن خيرا منى ضميرا ، وأطهر منى نفسا ، وأسمى خلقا ، فانى خير منه عملا ، وأجزل فائدة للناس .

كذلك كان يفكر قيافا حين يخلو الى نفسه ، يبحث فى أمر الدعوة الجديدة وصاحبها بحثـا هادئا ، ولم يكن فى حاجة الى غير البحث الهادىء فى هذه الأمور . ثم تألبت اسرائيل كلها على النبى الجديد تطلب دمه وأجمعوا على أن يحكموا عليه بالصلب . عند ذلك رأى قيافا أن الأمر أصبح جدا لا يحتمل البحث الفلسفى المجرد ، بل أصبح واجبا عليه أن يقبل ما رأوه بالأمس ان كان حقا ، أو أن يعارضهم ان كان ما قرروه باطلا .

لم يعرف قيافا فى حياته أمرا حار فيه كما حار فى هذا الحكم الذى أصدره قومه بعد بحث دقيق وجدل طويل . وكان من قبل يذهب الى أن الحق أمر طبيعى واضح ، وأنه ليس أسهل على المخلصين من أن يتبينوا سبيله فيتبعوه .

أما اليوم فقد ظهر له أن اخلاصه وعقله وحكمته لم تسعفه . وغم عليه الأمر فلم يعد يدرى أين يكون الحق . وآلمه أن يكون الحاكم الرومانى الوثنى — على ما فى طبعه من جفاء — أحد ذهنا وأرق طبعا . ألم يقل لبنى اسرائيل حين طلبوا اليه أن ينقذهم من صاحب البدعة الجديدة باسم الحق « الحق ! وما هو الحق » . وندم قيافا على أنه لم يكن قائل هذه الكلمة ، وود لو أنه قالها لقومه قبل أن يستفحل الأمر لعلهم كانوا يهتدون .

قضى قيافا ليلته هذه مؤرقا يقلب الرأى على كل وجه . وكانت أفكاره مضطربة تعلو وتهبط فترتفع به الى أسمى العواطف تارة ، وتنحدر به الى ما دون ذلك تارة أخرى ، على غير نظام منطقى معقول . وحاول أن يجد لنفسه قاعدة ، بها يمكن أن يجمع بين واجبات ضميره وواجبات السياسة ، فلم يوفق . وحاول أن يغلب أحد الوجهين على الآخر فلم يوفق . وألمت بخاطره أشياء من أعماق تاريخ حياته قديما ، وحوادث من عهد شبابه لم يكن يظن أنها لا تزال تؤثر فيه بعد أن تقدم به العمر . وكانت ليلة ليلاء ، استعرض فيها — على غير ارادته — حياته كلها ، العقلية والنفسية ، مما لا علاقة له بالأمر الذى أهمه ، وكان ذلك على نحو لم يعهد له مثيلا من قبل .

وأخذ يقول لنفسه ، وهو يفكر هذا التفكير المضطرب

— ما لهذا الرجل اختص بدعوته بنى اسرائيل ، ونحن أهل دين وخلق ، ونحن أكثر أهل الأرض تمسكا بأوامر الله . وماله يريد أن يطهر ضميرنا ، ونحن أطهر أهل الأرض ضميرا . ألم يكن أجدر به أن يذهب الى روما ، يقوم بدعوته فيها ، فأهلها وثنيون ظالمون جهلاء . ولم لا يحاول هداية هؤلاء الظالمين من أهلها ، وهم أحوج ما يكونون الى حكمته . ولو وفق الى ذلك لخدم الانسانية خدمة كبرى . ان روما سيدة العالم وبيدها البطش والسلطان ، على حين ان دعوته اذا نجحت بين شعب اسرائيل لم تفد من ذلك أمة من سائر أمم الأرض . انى لأعجب بدعوته الاعجاب كله ، ولكنى لا أريد أن يقوم دينه بيننا ، فنحن فى محنتنا هذه فى أشد الحاجة الى التساند والتوافق والهدوء . والذى يعنينى أن لا تكون دعوته سببا فى الشقاق والفرقة بين صفوفنا ، ويستوى عندى بعد ذلك أن يرتفع الى السماء ، أو أن ينفى الى أقصى الأرض ، أو أن يصلب اذا أراد الله له أن يقتل مظلوما . واذا تم له ذلك فانه يكون قضاء الله ولا راد لقضائه ، وهو أعلم بالغيب منا .

لعل هذا أول النور الذى اهتدى به الى الصواب فلابدأ من حيث أريد أن أنتهى . انى لا أريد أن يظل بيننا على اية حال ، فان لم يكن الا الصلب سبيلا الى ابعاده عنا فليصلب ، ويكون صلبه صوابا ، ويكون واجبا على

أن أقر ما حكمنا به عليه بالأمس فى دار الندوة . ولكن كيف يستقيم لى هذا الرأى . يجب على أن أقر ما اتهموه به ، وهو ما لا أراه ، فقد اتهموه بالباطل ، وهو برىء من كل ما ادعوه . وكيف أبرئه من الذنوب ثم أوافق على الحكم عليه بالموت . واذا أعلنت براءته فيجب أن يظل بيننا ، وهذا فى رأيى يكون خطأ . فأنا منه بين أمرين ؛ اما التخلص منه ، وذلك لا يكون الا باتهامه ظلما وكذبا فى سبيل غاية أراها حقا ، واما أن أعلن براءته فيبقى يبث دعوته فينا ، وهو شر لا أرضاه . على أنى اذا اتهمته بالباطل أكون قد ارتكبت ما كنت أعيبه على أسوأ الناس انغماسا فى حمأة السياسة الجهلاء . وهل يليق بى أن أتبع الوسائل السيئة لبلوغ الغاية الحسنة ، ألم أقض عمرا أقول للناس ان من أكبر الخطأ أن يظنوا أن الغاية الحسنة تبرر الوسيلة السيئة ، لأن الوسيلة السيئة لا تؤدى الى الغاية الحسنة أبدا ؛ فالشر لا يؤدى الى الخير مطلقا الا وهما والى حين ، ثم يطغى الشر . ثم ان شعورى بالعدل ، وهو أعز شىء على نفسى ، يأبى على أن أترك هذا الاتهام يلصق به ظلما . انهم أخذوا عليه أرقى ما فى دعوته من مبادىء . اتهموه انه يدعو الى التوكل والبر وحب الأعداء ، وقالوا ان ذلك يقضى على فضائل شعب اسرائيل ونظام حياتهم . واتهموه بالسحر وما هو بساحر ، واتهموه بالدعوة الى مخالفة كتاب الله ،

وقالوا ان ذلك كفر به ، وهو انما ذهب بالايمان خطوة أبعد مما ذهب اليه موسى فى شريعته ، وما أرى فى ذلك كفرا ، بل هى سنة الله فى الرقى . انما ذلك كله من عمل القـائم بالاتهام . انه يريد أن يصعد سريعا الى الزعامة ، ولو كان سبيله الى ذلك الظلم والعدوان . ان الظلم فيه موروث . أليس هو من تلك الأسرة التى أبت على فى شبابى أن أتزوج فتاة منهم احتقارا لشأنى ، ثم أليس غرضهم الأول أن يضعوه مكانى .

وعندما ألم به هذا الخاطر احمر وجهه خجلا واضطرب ، كأنه فاجأ نفسه وهو يفكر على نحو لا يليق به أبدا . ثم استمر يحدث نفسه .

كل هذا بالطبع لا شأن له فى انكارى موقفه بالأمس انه ارتكب خطأ فى التفكير لا أحب أن أقع فيه ، ذلك أنه كون رأيه أولا وهو أن الرجل مجرم ، ثم أخذ بعد ذلك يبحث عن ما يسوغ به رأيه ، وأكثر الناس يقعون فى هذا الخطأ ، وقليل جدا من يجمعون الأسباب أولا قبل أن يتكون لهم رأى فى أمر من الأمـور . فأكثرهم يكون الرأى ثم يلتمس الأسباب ، وهو خطأ كنت أظن أنى تحررت منه من قديم . ولكنى أرانى أعمل اليوم ما أعتقده خطأ ، ألم أقرر أولا انه لا بد أن يزول من بيننا ، وها أنذا ألتمس الأسباب بعد أن قررت ما قررت ، وهل أستطيع أن أنقذه الآن بعد

أن اقتنع الناس كافة بخطره عليهم . انى أخشى أن يكون انقاذه اليوم مستحيلا ، وكان علىّ أن أمنعهم من الاستمرار فى الاتهام ، وما منعنى من ذلك الا أن يظن بى الناس الظنون، وأن يتهمونى بالخوف منه ، أو بالكفر ، كما اتهموه . انى ان قاومتهم خلعونى ولا يكون انقاذه ، وان خضعت لاجماعهم نفذ أمرهم فيه ؛ ففى كلتا الحالتين لن أستطيع أن أنقذه . ثم انى اذا استطعت ذلك فانه يبقى بينناويستفحل أمره ، وهو ما لا أراه . ان الحيرة فى أمره ترجع الى أن وجوده خطر ، وهو برىء ، فكيف التخلص منه دون أن نظلمه أليس هو صاحب المعجزات ، فليحدث له ما يحدث ، فان كان الله أراد له أن يقتل فما أنا بمنقذه ، وان كان أراد له النجاة فليس علىّ أن أجد سبيلها . هذا أضعف الايمان ، وما كنت أظن أنى أبلغ هذا القدر من ضعف الرأى ، ولكنى أستهدى عقلى فلا أجد عنده هدى .

وأقبل الصباح ، وقيافا متعب محزون . خرج الى دار الندوة وهو لا يدرى ما يجب عليه عمله ، وكان آخر رأيه أن يترك الأمور تسير على هواها ، وأحس انه ليس له سلطان يوجه به الأحداث الوجهة التى يريدها ، فعزم أن يلزم جانب الحيدة ، وأن يقر ما يتفق عليه أهل العلم وقادة الفكر من قومه ، وحسابه وحسابهم على الله .

فقد ثقته بنفسه ، وفقد ثقته بالشورى ، وكان من

المؤمنين بها ، يراها وسيلة الى خلق الضمير عند الجماعة ، فان الجماعة وهى لا ضمير لها تختار أفرادا يتشاورون ، ولهؤلاء الأفراد ضمير يرجى منه أن يؤثر فى ما يعملون باسم الجماعة . وفقد ثقته بالحق وبالعدل وبالدين وتعاليمه ، فهى لم تهده الى الصواب فى هذا الأمر الذى غم عليه ، وأصبح يعتقد أن هداية الدين انما تكون هداية عامة لا تنصب على موقف بعينه ، وأحس أنه أفلس افلاسا تاما ، وأنه اليوم أضعف الناس ، وأنه عند الشدائد يستوى وأجهل بنى اسرائيل وأقلهم قدرا .

ولو قدر له أن يرى هذا الذى حكم عليه بالصلب لرأى رجلا آمنا مطمئنا هادئا ، لا يرتقى اليه الشك أو القلق ، ولعلم أن الفرق بينهما أن النبى الجديد يتكلم عن يقين ، ولا يعبأ بما ستحدثه دعوته من أثر فى حياة الناس لأنه لا يعنيه منها الا أنها الحق . ان دعوته تتعلق بالضمير وحده ، وهو قد أهمل سياسة الناس اهمالا تاما ، ولم يتمسك الا بالروح والضمير . أما ضعف الطبيعة الانسانية الذى يقلب الخير شرا ، ويخلط بين الحق والباطل فلم يكن يجوز عليه ، لأنه لم يكن يستمع الا الى الضمير خالصا ، ومن اهتدى بهدى ضميره وحده فلن يضل أبدا .

دار الندوة

اجتمع خلق كثير أمام دار الندوة يصيحون بأعلى صوتهم : اقتلوه ، اصلبوه ، حرقوه ، انه ساحر خطير ، اقتلوا أتباعه الخونة المارقين . ودخل قيافا مكان الاجتماع مكتئبا حزينا متعبا ، وحيا الحاضرين تحية فاترة بعيدة ، وجال بعينه فيهم فرأى رجل الاتهام ، ولما وقع بصره عليه علا الدم الى وجهه ، وقال يحدث نفسه ان قام اليوم يقول مثل قوله بالأمس تصديت له وحملت عليه ، وفندت قوله وسفهت رأيه ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وكان يظن هو وغيره أن هذا الشاب سيكون أول من يتكلم ، وأنه سيتابع اتهامه بمثل ما تجلى فى قوله من قبل من قوة واقتناع ، وأنه سيحمل الحاضرين على التمسك برأيهم ، ولكنه ظل فى مكانه ساكتا ، ونظر اليه الناس فاذا هو شارد الفكر لا يريد أن يهم بالكلام .

كان أول المتكلمين شيخ حطمته السنون ، أخذ يقول :

— انى سألقى الله بعد قليل ولا أحب أن ألقاه كاذبا أو مكذوبا على . وقد سمعتم بالأمس عنى قولا كثيرا . قيل لكم انى أرى أن أحدا لا يجوز له أن يدعو الى قانون خلقى أسمى من القانون الذى نزل على موسى ، لأن ذلك يكون استدراكا على الله ، وهو كفر صريح ، أو يكون دليلا على أن الله بعد أن وضع ناموسه بدا له أن يغير فيه ، كأن علمه كان ناقصا ، وكلا الأمرين كفر لا يقبله أحد ممن يدينون بدين بنى اسرائيل .

وما قلت فى الواقع شيئا من ذلك . انى لا أنكر المثل العليا التى يدعو اليها هذا الرجل ، ولكننى آخذ عليه أنه جعلها جزءا لا يتجزأ من الدين ، وأنه يريد أن يحمل الناس جميعا عليها بقوة التنزيل ، والرأى عنـدى أنها يجب أن تظل نبراسا يهتدى به ، فمن استطاع أن يتبعها مختارا فهو خير له ، ومن لم يستطع فلا ضير عليه ولا يعد مخالفا للدين . واذا ظلت كذلك فليس فيها ما يمس العقيدة من قريب أو بعيد .

وما حملنى على أن أرى هذا الرأى الا خوف عـلى الدين . فان علينا أن نحافظ على حرمته وقدسية أوامره ونواهيه . ومن الخطر على الدين أن يتهامس الناس بينهم أن أوامره عسيرة لا يقدر عليها الا القليل . وأن نواهيه تمنع خيرا كثيرا ولا ترد الأذى الا نادرا . وقـد دلتنى خبرتى بطبائع الناس على أن من يخالف أوامر الدين فى ما هـو عسير يسهل عليه بعد ذلك أن يخالفه فى ما هو يسير . واذا أصبحت أوامر الدين من السمو بحيث لا يستطيعها الا قليل من الناس بعدت الشقة بينه وبين الحياة ، وذلك يضعف من أثره فى اصلاح حال الناس ، اذ أن قدرة الدين عـلى الاصلاح مرجعها الى هيبته . ومما يذهب بهيبته أن يتجرأ الناس عليه وأن يفشو فيهم القصور عن اتباع تعاليمه .

ورجال الدين والعلم فى هذا الأمر فريقان ، فريق يرى

أن الدين انما ينفع الناس اذا كان قوة مرغمة . وهـؤلاء يقولون ان الناس كالقافلة يجب أن تسير على قدر مايستطيعه أبطأ فرد فيها ، ما دام ذلك لا يعطل سيرها ولا يعرضـها لأذى ولا يفوت عليها نفعا . أما حملها على السير بأسرع ما يستطيعه أقواها فهو ارهاق يؤدى الى تفككها فلا تقطع أرضا ولا تبقى ظهرا . وهؤلاء يقولون ان الله أعلم بما يصلح للناس ، وأن ما يأمرنا به يجب أن يتبع كما أنزله الله لا نزيد فيه ولا ننقص . وبنو اسرائيل من هذا الفريق ، وهـذا ما أعتقده وما أدعوكم اليه .

وهناك فريق آخر من كبار الأتقياء يرى أن الدين يجب أن يكون جماع المثل العليا التى يعرفها الناس ، وسواء على الدين أن يستطيع الناس أن يوفقوا بين حياتهم وتعاليمه كلها . انما عليه أن يظل حقيقة ثابتة دائمة سامية . وانه اذا قيس بما يصلح لقوم بعينهم فى عصر من العصور فان ذلك يجعله عرضة للأخطار التى تأتيه من الرقى الطبيعى ، ومر الزمن ، وتقدم الناس ، واتساع العقل والعلم . وقـد تتغير النظم الاجتماعية وقد يسمو شعور الناس بالعدل الاجتماعى الى ما هو أرقى مما يصلح لنا فى عصرنا هذا . عند ذلك تكون أوامر الدين أقل شأنا مما تأمر به القوانين الوضعية ، وفى ذلك الخطر كل الخطر على الدين كله .

هذا رأى أعتقد أن النبى الجديد أخذ به فجعل دينه

من السمو بحيث لا يعلو على قانونه الخلقى شيء ، ولم يعبأ بأثر الدين فى حياة قومنا . ولست أرى هذا الرأى ولكنى لا أدعى العصمة ولا أقول ان دعوته كفر . وقد يكون رأيى خاطئا ، وقد تكون طبيعة دين بنى اسرائيل هذه سببا فى منع انتشاره بين الناس . وقد يكون بعد الدين الجديد عن الحياة التى نعرفها سببا فى عظمته وانتشاره . كل هذا من علم الغيب لا أعلمه ، ولكنى على قدر عقلى أرى أن من الخطر على الدين أن تصبح المثل العليا جزءا منه ، وأن تصبح أوامره ونواهيه من السمو بحيث لا يستطيعها الا الخاصة وهم قليلون ، فان ذلك يدعو الناس الى اغفال الدين ما سهل منه وما صعب .

استمع الناس الى هذا الشيخ الفانى وهو يتهمهم أنهم شوهوا آراءه ، وعجزوا عن فهم قوله . ولما كان نقده منصبا على ما جاء فى خطبة الاتهام ، ظن الحاضرون أن خطيب الأمس لن يسكت على ما قال هذا العالم الكبير ، فاشرأبت اليه أعناقهم يتوقعون منه ردا ، ولكنهم وجدوه مطرقا لا يريد أن ينطق بكلمة ، وكان هذا منه عجبا .

ثم وقف المفتى يقول : ان خطأ وقع فى تفسير قوله فى المعجزات ، فهو لم يقل بكذبها ، ولم يطعن فى من تمت على يديه . وأخذ يشرح نظريته المعقدة فى المعجزات ، وفهم الناس اجمالا ، وان لم يفقهوا كثيرا مما قال ، أنه لا يرى بأسا بصاحبها .

— ان الناس أسرفوا فى الحديث عن هذه المعجزات . ونحن بنى اسرائيل من عادتنا الاسراف فى القول ، وبلاغة لغتنا تدعو الى التعميم ، فاذا قلنا ان الطوفان عم الأرض فاننا لا نريد أن نقول شيئا أكثر من أن الطوفان عم القرى التى نحن فيها ، واذا قلنا أظلمت الدنيا فانما نريد أن نقول ان الظلام أحاط بنا ، وكثير مما يقول الناس عن المعجزات فيه هذا الاسراف ، ولو جردنا ما يقال عن المعجزات من هذا الاسراف لوجدنا ما بقى حقا لا شائبة فيه .

وتابع حديثه فقال :

من العبث أن ننكر وقوع الحوادث التى سميت معجزات، فهى قد وقعت من غير شك ، ومن العبث أن نلتمس لوقوعها تأويلا يجعلها تمويها أو خداعا وما هى بتمويه ولا خداع . ولكنها عندى أمور لا تخرج عن سنن الكون الا من حيث وقت وقوعها ، وكيفيته، والنتائج التى تترتب عليها. ولأضرب لذلك مثلا رجلا هم بقتل رجل آخر ظلما وعدوانا فأصابت الأول صاعقة قضت عليه لساعته فى يوم عاصف مطير — حادث مألوف يقع كثيرا للأبرياء ، وقد يقع للرجل وهو يصلى لله مخلصا . لكن وقوعه فى هذا الوقت بالذات ، وقضاءه على الظالم يعد معجزة عند من يعلمون أنه ظالم ، أما الذين لا يعلمون فلا يعدون موت رجل بصاعقة من المعجزات .

انظروا الى المعجزات التى قام بها صاحب الدعوة الجديدة ، فمن معجزاته أنه أطعم النـاس ، وهم آلاف ، ببضعة أرغفة ، وأنه أحال الماء نبيذا ، وأنه أحيا ميتا ، وأبرأ مرضى كثيرين . ان أحدا لم يقل انه أطعم ببضعة الأرغفة آلافا من الخيل الجامحة ، أو الأسود الضارية ، ولم يقل أحد انه دعا لهم فشعروا بالشبع ، كل ما حدث أنه أطعم قوما مؤمنين طعاما قليلا فقنعوا به وأشبعهم ايمانهم بهـذا القليل . وكذلك قصة النبيذ ، فانه سقى الناس ماء فأحسوا منه طعم النبيذ وأثره . فالمعجزة فى هذا الحادث قوة تأثيره فيهم،وشدة ايمانهم به.ثم انه أحيا ميتا وليس فى ذلك خرق لسنة الكون ؛ فلم يدع احياء لازار الى الأبد ، ولم يحى الموتى جميعا . أما ابراؤه المرضى فبركة ونعمة ، ولا يمكن أن نطعن عليه من أجله . ان المعجزة لا تكون كذبا الا اذا نقضت قانونا طبيعيا أوليا فلو أننا رأيناه يأمر حجرا أن يرتفع فى الهواء فارتفع لعددته ساحرا يموه علينـا ، أما اذا كانت المعجزة تتعلق بأمور نفسية يؤثر فيها الايمان والعقيدة فلا محل للطعن فيها .

وأدرك أن الناس فى شغل عن تتبع هذا البحث العويص فاختتم حديثه بقوله :

— سواء أكان حقا ما أرى فى المعجزات أم باطلا ، فمما لا مرية فيه أن معجزات هذا الرجل كلها لخير النـاس ،

ولم نعلم عنه أنه آذى بها أحدا من قومنا ، أو أنه انتقم بها من عدوه ، أما ما سمعتموه عن حادث اليوم من أنه أصاب بالأذى تاجرا وحدادا بريئين لا ذنب لهما فقول سخيف لا يليق بكم ، وان صدقته العامة . ولو كان به حب الانتقام من أحد من قومه لانتقم منا نحن الذين حكمنا عليه بالموت .

لم يصغ اليه كثير من الحاضرين ، ولكنهم علموا أنه يدافع عن صاحب المعجزات ، وأنه يرى أن ما عمله لا يعد كفرا يعاقب عليه بالموت بل كانت معجزاته كلها خيرا وبركة.

دهش قيافا حين رأى قومه لا يأبون أن يستمعوا الى من يدافعون عن هذا الرجل ، كأنهم ندموا ، كما ندم هو ، على ما فعلوه بالأمس ، وبلغت دهشته أقصاها حين وقف آخر يقول :

— اتهمناهم بالأمس أنهم يخونون وطنهم ، وهى تهمة بشعة شنعاء ، فان حب الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرها ، ولكنها ليست غاية الفضائل فى هذا الباب . ان حب الوطن طور من أطوار الرقى الاجتماعى ، فالرجل يبدأ محبا لنفسه وحدها حين يكون حبها أنفع له ، وأمنع للأذى عنه ، ثم يتبين ان فى حبه لأسرته وحمايته لها ما يجلب له من النفع ويمنع عنه من الاذى ما لا يستطيعه وحده فتنشأ فيه عاطفة التضحية بنفسه فى سبيل أسرته ، ثم يتبين ان حبه لقبيلته أو لمدينته يجلب له من النفع ويمنع عنه

من الأذى ما لا يستطيعه لو كان دفاعه مقصورا على أسرته ويتبين له أن الضرر الذى يقع على قبيلته أو مدينته يعود عليه بضرر لا يستطيع دفعه وحده ، عند ذلك يصبح من الطبيعى أن يضحى بنفسه وأسرته فى سبيل قبيلته أو مدينته ، ثم يتبين له أن حب الوطن والدفاع عنه يجلب من النفع ويدفع من الأذى مالا تستطيعه القبيلة أو المدينة ، ويتبين له أن الشر الذى يصيب الوطن يقع عليه فيؤذيه وقد يحرمه أعز شىء عليه ، ولو لم يكن له دخل فى جلب هذا الشر على وطنه ، عند ذلك يرضى عن طيب خاطر أن يضحى بحياته فى سبيل حماية هذا الوطن ، ونراه يضع الوطن فوق نفسه وأسرته وقبيلته .
الا أن هذا ليس آخر المطاف ، بل سيأتى يوم يكون فيه النظام الاجتماعى كافيا لاقناع الناس ان حب الانسانية كلها، والدفاع عنها ، أجدى على الوطن من حب الوطن وحده . سيكون العالم كله وحدة تجعل حب الانسانية يجلب لكل وطن فوائد لا تتحقق بخدمة الوطن وحده ، ويمنع عنه من الأذى ما لا يمنعه الدفاع عن الوطن وحده ، عند ذلك يبدأ الناس فى التفكير الانسانى ، وعند ذلك نراهم يفضلون خدمة الانسانية على خدمة الوطن ، ولا يكون فى ذلك خيانة له ، بل يكون أجمل دفاع عنه وأكثره نجاحا . قد يكون هذا الرجل أول من بلغ هذه الدرجة من الرقى الخلقى ، على أنى لا أكتمكم أنى لا أستريح الى أخذ

بنى اسرائيل بهذا المذهب الذى يضع المبادىء الانسانية فوق الوطنية ، ما دمنا فى محنتنا هذه ، التى جعلتنا ضعافا أذلة فى بلادنا ، وقد يكون هذا ضعفا فى ، فانى أفهم هذه المبادىء التى تضع الانسانية فوق الوطن عقلا ولكنى لا أرانى أومن بها ايمانا تاما ولعل ذلك لضعف فى عقيدتى ولعلى كنت أرى أن لا حرج فى تطبيقها علينا فى عصرنا هذا لو آمنت بهذه المبادىء ايمانه بها .

وضرب لهم مثلا يبين رأيه فى هذا الموضوع

— ان حب الوطن حلية خلقية ، كما يكون الخلخال حلية للمرأة . وقد تكون المرأة عطلا من الخلخال لفقرها . كما يكون الرجل خلوا من حب الوطن لفقره الخلقى ، ولكن المرأة الراقية قد تكون بلا خلخال ، لأنها تراه حلية دون مقامها . وكذلك الرجل ، قد يكون عطلا من حب الوطن لأنه يرى نفسه أرقى من أن يتحلى بهذه الفضيلة الضيقة ، ولأنه يرى نفسه أكبر من أن يدين بهذه الولاءات الصغيرة ، على أن ذلك لا يصدق الا على من تملك حليا أكثر من الخلخال وأجمل ، وعلى من يملك فضائل أكبر من حب الوطن وأرقى اذ لا يجوز للرجل أن يترك نفسه عطلا من كلتا الفضيلتين . وليس شىء يمكن أن يكون أكبر من حب الوطن وأجمل الا حب الانسانية كلها ، فهو طور من الرقى الخلقى أروع من حب الوطن ، ولا يصح أن نعده

عيبا أو نقصا فى هذا الرجل الذى حكمنا عليه بالخيانة ، فهو أرقى من أن يرى نفسه أمينا على الوطن ، ما دام أمينا على الانسانية كلها .

وقع قوله هذا وقع الصاعقة على من كانوا قد آمنوا بخيانة صاحب الدعوة الجديدة ، ومع ذلك لم يحرك أحد منهم ساكنا . وظن قيافا أن الاتهام قد انهار ، وانهم سينقضون حكمهم الذى أبرموه بالأمس . وزاد عجبه وحيرته وشكه فى كل شيء ، وعزم أن يترك الأمور تسير وحدها دون توجيه منه ، فانها تسير سيرا مرضيا له ، وفرح لذلك فرحا شديدا .

وعلت الأصوات خارج الدار تنادي بقتل الرجل وأتباعه ، وحجتهم فى ذلك أن علماءهم قرروا ذلك وهم أدرى وأعلم ، ولا يمكن أن يجمعوا على خطأ . أما هؤلاء العلماء أنفسهم فكانوا يعلمون أنهم أخطئوا ، وكانوا يخشون أن يخرجوا الى الناس معترفين بخطئهم ، معلنين التوبة ، فان مثل هذه الشجاعة قد يستطيعها بعض الناس أفرادا ، ولكنها على الجماعة ضرب من المحال ، لأن الجماعة أقدر على الاندفاع منها على التعقل وأقدر على التمادى فى الباطل منها على الرجوع الى الحق .

وبينا هم كذلك اذ دخل عليهم رجال المال والتجارة والصناعة وذوو النفوذ الدنيوى . جاءوا يهنئونهم على

حكمهم الصائب ، فلما وجدوا عندهم التردد والشك غضبوا وقالوا لهم ما خطبكم ، أتظنون أنكم تستطيعون أن تعدلوا عن رأى رأيتموه بعد أن ذاع خبره ، واقتنع به الناس . أتظنونهم يقبلون أن يستهزأ بهم وبعقولهم الى هذا الحد . ان حكمكم أطلق سيلا من الغضب لن يستطيع أحد أن يقف أمامه . وماذا يقول الرومان لو ذهبتم اليهم اليوم تنقضون ما قررتم من قبل ، أتحسبون انهم يظنون بكم الجد ، أو يقرون لكم بعد اليوم رأيا ، ان الشعب هائج ولن تهدأ ثائرته حتى يصلب هذا الرجل اليوم .

اقتحم الناس الدار وهم يصيحون : اقتلوهم ، حرقوهم جميعا . لا بد من قتله وقتلهم معه . وساد الهرج ، وغلب ذوو الرأى على أمرهم فانفضوا ولم يغيروا من قرارهم شيئا وسارت الجماهير الى دار الحاكم الرومانى تطالب بدم هذا الرجل وأتباعه ، ولم يكن فيهم من يعلم عنه شرا ، ولم يكن فيهم من يريد قتله عن عقيدة واقتناع شخصى . هكذا تمت أكبر جرائم التاريخ ، جريمة الحكم على المسيح بالصلب ، لكفره بالله ، دون أن يعلم أحد من أهل أورشليم من الذى يريد قتله ، ولا على من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء .

الواقع أن أحدا من بنى اسرائيل لم يعلم علم اليقين عن أهل هذه الدعوة شرا ، ولكنهم اندفعوا وراء من قال بشرهم . ولعل من قال ذلك أولا انما كان يرى رأيا لم يتبين

مداه ، ولم يقصد غايته . مثلهم فى ذلك مثل القطيع من الأغنام يدخل أولها بابا أو يتبع طريقا ، فتسير الأغنام كلها وراءه فى حماسة تمنعها أن تغير وجهتها ، ولو أراد أولها عدولا ما استطاع لها ردا .

وهكذا حكم على المسيح بالصلب من أجل كفره بالله ! فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة فى حكمة الانسان ؟!

ان الجريمة تمت فى ما يتعلق بالانسان حين حكم على المسيح بالموت . ولا ينقص من اثمها شيئا أن رفعه الله اليه .

ولم تتم هذه الجريمة الا لأنها وزعت على عدد كبير من الناس ، حتى لم يعد أحد يرى نفسه مسئولا عنها .

هذه سبيل الضلال التى أوغل فيها الناس حتى بلغوا هذا الحد من الغى ، وهى سبيل لاتزال مفتوحة أمام بنى آدم ، ولا يزالون يمعنون فى السير فيها ، وسيظلون كذلك حتى يهديهم الايمان بالضمير سبيل الرشد ، ولا عاصم لهم من الزلل الا هذا الايمان .

عِنْدَ الحَوَارِيِّين

المجدلية

كان فى قرية المجدل ، من أعمال فلسطين ، أسرة تولت أمرها منذ كان للقرية أمر ، وخضع الناس لهؤلاء السادة راضين حينا ، وكارهين أحيانا ، فقد كان منهم الطيبون والطغاة ، وفيهم المصلحون والمفسدون . وكان من أثر هذه السيادة الطويلة الأمد أن تخلق رجال هذه الأسرة بخلق النبلاء ، ما حسن منه وما قبح . وكذلك تتكون أخلاق النبلاء ، يكون ذلك فى صغار القرى ، كما يكون فى أمهات المدن ، وان اختلفت المظاهر .

كان رب الأسرة فى ذلك العهد رجلا طيبا عادلا ، كل همه أن يسود السلام مملكته الصغيرة ، وأن تسعد رعيته بحياة هادئة . وكان يمدهم بماله ويحميهم بجاهه ، فسارت أمور الحياة العامة سيرا حسنا ، وفرغ هو الى حياة خاصة هنيئة ، وكان بذلك سعيدا . وكانت له ابنة هى أعز شىء عليه وعلى امرأته ، فكانا يتباريان فى تدليلها ، لا يدخران فى ذلك وسعا . وكبرت هذه الفتاة معززة مكرمة لا ترد لها رغبة . فلما بلغت أشدها اكتملت أنوثتها ، وكان جمالها رائعا عنيفا ، يقهر الرجال ويغلبهم أكثر مما يجذبهم اليها

أو يغريهم بها . وما لبثت أن أصبحت قبلة شباب القرية ، كلهم يريدها له زوجا . وكان أهلها يودون أن تختار لنفسها رجلا كفئا ، ولكنها كانت ذات كبرياء بلغ حد الصلف الذى لا يطاق . وكان من عادتها أن تنظر الى الناس نظرة ملؤها الاحتقار . وكانت طويلة أملودا ، فأعانها ذلك على الزهو والتعالى حتى لم تر لنفسها ندا بين شباب القرية فأعرضت عنهم جميعا .

وخطر لأحدهم أن يؤلب عليها أقرانه وأن يسخر من كبريائها ، وحمله ذلك على ما لا يليق من القول والفعل . وغضب لها أخوها ، ورأى واجبا عليه أن يحميها وأهله من عبث العابثين . وانقسم رجال القرية فريقين ، فريق مع الأخ وفريق مع عدوه، ووقعت بين الفريقين معركة استعملت فيها العصى ، ثم احتدم النزاع فاستعملت المدى والخناجر وزادها اشتعالا ما كان عليه الشبان من حنق وثورة على السيادة الأبديةالتى لهذه الأسرة عليهم،فقتل فى المعركة خلق ولقى الأخ حتفه ، وعم الحزن أهل القرية الآمنة المطمئنة ، وعاد أهلها الى ديارهم محزونين منكوبين ، منهم الثكلى ، والأيم ، ومن تندب أخا أو عزيزا . وزاد فى حزنهم السبب التافه والمفاجأة المؤلمة .

حزنت الفتاة كما حزن الناس . ولكن عبء الحزن كان عليها ثقيلا مرهقا ، أن كانت هى سبب ما حدث ، وأن كان

ذلك كله من أثر كبريائها وغرورها . ولم يزل الحزن والندم يعصفان بها ، وتحاشاها الناس ، وتشاءموا بها ، ولم يكونوا غضابا كارهين ، ولكنهم انصرفوا عنها انصرافا آلمها حتى ضاق صدرها بهذه الحياة ، ولم تجد لها صديقا ولا مواسيا ولا من يلتمس لها عذرا يخفف عنها ألم الندم على ما جرته على قومها . ثم بلغ بها اليأس غايته حين رأت أن والدتها جعلت هي أيضا تعرض عنها ، فلم يبق لها من يعطف عليها الا أبوها . عطف عليها عطفا مشوبا بكثير من الحذر والتكلف . أما أمها فكانت تعرض عنها مدة ثم تذكر أن واجبها يحتم عليها مواساة ابنتها ، فكانت تقوم بهذا الواجب فى غير ايمان ، وكان ذلك منها أقسى على الفتاة المرهفة الحس من البغض الصريح ، والعداء السافر .

ورأت ذات يوم أنها صائرة حتما الى حال من الاضطراب قد تدفعها الى الجنون اذا هى بقيت فى تلك القرية . واعتزمت الرحيل الى أورشليم حيث يجهل الناس كل شيء عن جيرانهم ، على عادة أهل المدن الصاخبة . وادعت أنها تريد أن تحج الى الهيكل ، تلتمس المغفرة ، ولم تقف أمها فى سبيل هذا العزم حين علمت به ، وخرجت المسكينة من القرية ، لم يودعها أحد ، ولم يندم لفراقها أحد . وخيل اليها حين خلفت القرية وراءها أن أهلها سيتنفسون الصعداء حين يعلمون بخروجها ، وكادت تسمعهم يفعلون .

دخلت أورشليم على حال من اليأس والحزن أفقدتها العزم والتفكير ، وكان معها من المال ما يكفيها أمدا طويلا، فلم تكن قلقة ، ولكنها لم تكن تدرى ما تفعل فى هـذه المدينة الكبيرة . وكانت تريد أن تكفر عن خطيئتها التى أصلها الكبرياء ، ولا يكون التكفير عن الكبرياء الا بأن تذل نفسها الى أقصى حد الذل . وكانت تريد أن تعيش مع أذل الناس فان من الطبقات الدنيا من هن أقل منها ذنبا وأهون خطيئة .

ورآها بعض أهل المدينةوحيدة حائرة ، فأقبل عليها أحد الذين لا يتركون سيدة وحيدة دون أن يحوطوها بوسائل الاغراء — وهم كثيرون فى المدن الكبيرة — وأخذ فى التحدث معها ، والتودد اليها ، واستطرد فى حديثه .. فذكر لها حياة اللذة والسرور ، التى تستطيع أن تحياها فى منازل يعرفها هو ولا يؤمها الا النخبة القليلة من علية القـوم . وكان نصيب هذا الذي بلغت به الجرأة أن يحدثها هـذا الحديثويعرض عليها هذه الحياة ، أن أوسعته ضربا وركلا. ولكن الاقتراح راق لها من ناحيتين : انه يبلغ بها الدرك الأسفل من الذل والانحطاط فيكفر عنها سيئاتها ، وأنه يدع للرجال ما تقـاتلوا عليه من جسـدها ، فلهم منـه ما يشاءون ، وفى ذلك تكفير آخر يلائم نوع الجرم الذى ارتكبته حين حرمتهم اياه فقتلوا دونه .

وهكذا دخلت بيتا فى أورشليم وليست من أهله فى شىء . وأدرك رصفاؤها أنها ليست من جنسهن ، فليس لها طباعهن ولا ابتذالهن ، ولم تأخذهن من ذلك الغيرة ولا الحسد ولا البغض ، فقد أيقن أنه لا بد أن يكون فى الأمر سر، وقبلنها عالمات أنها سترفع من شأن منزلهن لجمالها وروعة بهائها .

وما لبثت أن أخذت فى اتعاب زميلاتها وزائريها بما أخذتهم به من أوامر عجيبة شاذة لا تتفق وتقاليد حياتها الجديدة ، فكانت لا تجالس الرجال طويلا ولا تتحدث اليهم كثيرا ، وكانت لا تلقى رجلا لا يقبل يدها فى خشوع واحترام ، حتى اذا قضى معها بعض الوقت شيعته بضحك الاستهزاء ، مودعة اياه بركلة مؤلمة تصيبه فى أسفل ظهره ، فتدفعه الى خارج الباب . وحسب أهل الدار أنها قاضية بسلوكها هذا على تجارتهن ، ولكن لم تجرؤ احداهن على نقدها ، لما كان لها من هيبة وعظمة ، وكن لذلهن يعجبن بهذا الكبرياء ، وهذا التعالى .

لم يزد ذلك الرجال الا اقبالا عليها ، ولم يزدها خضوعهم الا امعانا فى احتقارهم . ثم تبين لها ان هذه الحياة الرخيصة لم تنقص من كبريائها ، فكأنها لم تكفر عن خطيئتها وان ذلت . واشتد بها الغرور فأصبحت لا تطاق . جاءها قائد رومانى من كبار القواد ، وقبل أن يقبل يدها

لشدة رغبته فيها — ولم يكن ذلك احتراما لهـا ، ولا اعجابا بجمالها فغاظها ذلك أكبر الغيظ ، وودعتـه بركلة شديدة لم تكن تظن أنها تقدر على مثلها ، فرجع اليهـا ويده على سيفه ، يريد أن يغسل الاهانة بقتلها ، فلم تتراجع ولم تخف ، وأقبلت عليه تعـد له ركلة أخرى . وهاله هذا الاقدام فراجع نفسه وخـرج . ولمـا علمت أخواتها بما حـدث أقبلن عليها مسرعات يحسبنها ترتعـد فرائصها من هول ما أقدمت عليه ، ولكنهن وجدنها ثابتة غير هيابة ولا وجلة . وكانت تحسب أن سيقتلها جزاء على ما فعلت ، وعند ذلك يكون التكفير الحق عن كبريائها ، وهو التكفير الذى سعت اليه فأخفقت . وبرح بها اليأس حتى أصبحت ترجو الموت تكفيرا عن خطاياها . وكانت على أشد ما تكون من الغيظ أن فاتها هذا الذى كانت تتمناه .

مرت الأيام ، وهى لا تفتأ تنكر من نفسها أنها لا تزال على كبريائها القديم . وظل الرجال على شغفهم بها ، مع ما كانت تكيله لهم من اهانة واحتقـار . ولو علمت أن الرجال قد يقبلون صلفها وغرورها لاختارت لها زوجا من أهل قريتها ، فلم يصرفها عنهم الا أنها لم تكن ترى فيهم من يستحق احترامها ، ولم تكن تحسبهم يقبلون احتقارها اياهم ، ولم تكن تعلم عن الرجال ان فيهم من الهـوان

ما يجعلهم يقبلون الاهانات المخجلة المرهقة فى سبيل ارتوائهم من جسد جميل .

ثم جاء الى الدار ذات يوم جندى رومانى فى مقتبل العمر ، فيه هدوء ووداعة ، وله نظرة حالمة رقيقة ، فما أن رأته حتى أحست نحوه شعورا لم تعهده فى نفسها من قبل ، شعورا يشبه العطف أو الحب ، ورغبت أن تجلس على مقربة منه وأن تتحدث اليه ، ولكنها أحجمت وتركته لصديقاتها فتهافتن عليه وأخذن يداعبنه ، وهن لا يصدقن أنه جندى يقاتل ويحارب ، فهو لا يزال فى ميعة الصبا . وأغضبه ذلك منهن فأخذ يقص عليهن أحاديث عن فتوته وشجاعته ، وكيف كان يقهر الأعداء ويلقى الرعب فى قلوبهم ، فتضاحكن ، ولم يكن حديثه عليهن غريبا ، لما ألفنه من تفاخر الجند وادعائهم البطولة .

وأخذت المجدلية تنصت الى حديثه خلسة ، وخيل اليها أنه يختلف عن أحاديث غيره من الجند ، وسمعته يقول انه ضرب رجلا على رأسه ضربة قوية فسقط كأنه كتلة من جماد . عند ذلك نظرت اليه ، وخيل اليها أن نظرته تنم عن الحزن والألم لما ارتكب فى هذا الحادث . ولعله كان أول رجل قتله ، ولذلك علقت صورته بمخيلته ، وكان واضحا أن الذكرى لم تكن تجلب الى نفسه السرور .

وأقبلت عليه تسائله

— وهل صرخ من تلقى ضربتك

— كلا ، انه لم يصرخ ولم يئن بل خر جثة هامدة

— أأنت على يقين مما تقول

— لا شك فى ذلك ، ان من يصاب فى رأسه لا يصرخ ولا يئن اذا كانت الضربة محكمة ، لا خاسا ولا معجلة .

— هذا هو التفاخر الأجوف الذى ألفناه منكم ، أليس فيكم رجل يستطيع الصدق ، ألا تستطيع أن تصدقنى مرة واحدة فى هذا الأمر الذى يعنينى .

— انى أؤكد لك أن الرجل الذى قتلته لم يصرخ ولم يئن .

— ليتنى أثق بقولك

ثم تركتهم فجأة ، وكأنها مغضبة ضجرة ، ولم يفهم أحد ما وراء تساؤلها من سر فانها كانت تسأل فى حدة واضحة وتلهف ظاهر .

وحقيقة الأمر أنه كان يلم بها منذ قتل أخوها هاجس تسمعه فى سكون الليل وهدأة النوم ، كأن صارخا يصرخ بها فيزعجها ازعاجا عنيفا ، وكانت تعتقد أنها صرخة أخيها حين خر صريعا ، وكانت لا تشك أنه لعنها حين سقط اذ كان كبرياؤها سبب قتله . فلما سمعت حديث هذا الجندى ودت لو أنه كان صادقا ، ثم راق لها أن تطمئن الى قوله ،

وأيقنت أن أخاها لم يصرخ حين قتل ، وأن الهاتف الذى تسمعه فى الليل ليس الا أثرا من آثار الاضطراب النفسى الذى لازمها من ذلك اليوم . ونامت ليلتها هادئة لم تسمع ذلك الهاجس الذى كان يؤرقها ، ولم تسمع صرخة أخيها يناديها غير مشفق عليها ولا غافر لها ذنبها الذى قتل من جرائه . وكان هذا الاطمئنان جديدا عليها لم تعرفه منذ وقعت الواقعة ، ففرحت بذلك فرحا شديدا .

وعاد الفتى من غده ، وكان يخشى أن تكون قد غضبت عليه ، فلما رآها تتلقاه باشة جذلة سرى عنه ، وأقبل عليها متلهفا ، فقالت له فى شىء من السخرية .

— هذا هو البطل المغوار الذى بهرنا ببطولته وحديثه عنها ! على أنى أريد أن أسألك ألم يخالط فخرك ببطولتك وفرحك بشجاعتك ، شىء من وخز الضمير حين تذكر أنك قتلت نفسا لا تعلم عنها شيئا ولم تؤذك فى شىء .

— وما على من ذلك ، ان لى صديقا يقول ، ما ضر الناس قتل رجل واحد ولا قتل كثيرين ما دام النساء يلدن كل يوم .

فتبسمت لهذا الرأى الذى حسبته لا يكون الافكاهة، ولم يخطر ببالها أن من الناس من يرى هذا الرأى ، ويذهب الى العمل به .

— أأنت تشاطر صديقك هـذا الرأى ، لقـد كنت أظنك من الذين يرون أن قتل رجـل برىء لا تعـرفه ولا يعرفك — سواء أكان القتل فى الحرب أم فى غيرها — أمر لا يمكن أن يبرره ضمير انسانى .

— انك من قوم يتكلمون ليل نهار عن الضـمير والدين وعن الايمان والكفر،وعن الخطيئةوالتكفير والتوبة . ونحن لا نتحدث عن ذلك الا فى القليل النادر. انما يكون حديثنا أكثره أو كله عن النظام والشجاعة والاقدام والقوة ومغالبة الصعاب ، وقتال الأعداء ، وحب المجد ، بذلك سـدنا العالم وأنتم لم تسودوا حتى أنفسكم .

ورأى أنه احتد فى أمر لا يعنيه كثيرا ، وكان لا يريد الا أن يحدثها حديث الحب الذى جعله لا يفكر الا فيها منذ لقيها بالأمس . وخطر لها أن تشكر له انقـاذها من الهاجس الذى كان يقض مضجعها ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، ورأت أن لا تدع له فرصة الحديث عن حبه لها ، واستمرت فى حديثها الذى بدأته

— وهل أحسست وأنت البطل الشجاع الذى عرض حياته لخطر محقق أنك سدت أحدا من قومك ممن لم تكن تسودهم وأنت فى روما ، ألا ترى أنك لا تزال فى طبقتك التى كنت فيها قبل أن تتعرض للقتل فى الحرب ، وهـل تشعر وأنت الفاتح المنتصر أنك تسود أحدا ممن هم فوق

طبقتك حتى من أهل هذا البلد المهزوم ، أتراك سدت أحدا من أغنياء هذا البلد أو عظمائه ، انما يسودهم من هم أندادهم من الرومان ، أترى أنك أفدت من هذه السيادة ما يبرر الخطر الذى تعرضت له ، والخطيئة التى تحملها بقتلك الأبرياء . ان الجندى الفاتح لا يتمتع بالسيادة الا ساعة الفتح حين تعم الفوضى ، ثم يعود الى حاله الأولى فلا يسود أحدا ممن لم يكن يسودهم من قبل .

— ان الذين ماتوا فى الحرب بنوا مجد روما

— انما تعنى مجد عشرة أو عشرين من أهل روما. وما هذا المجد ، أهو ذلك الموكب المضحك الذى يسير فيه القيصر وحوله الأسرى يجرون وراء مركبته ، انكم ترون المجد كل المجد فى أن يكون بين هؤلاء العبيد ملوك وأمراء ، انهم كانوا ملوكا فى بلادهم ، أما فى الأسر فشأنهم شأن العبيد ، أهذا هو المجد الذى تفخرون به .

— لقد أجهدتنى فى التفكير ، ان الجندى عندنا يجب أن لا يفكر ، ولا معبود له سوى النظام ، ذلك النظام الذى يريح الضمير والفكر ويجعل من الانسان آلة طيعة فيكون له العذر عند نفسه اذا أصبح لا ضمير له .

ورأت الفتاة أن هذا الشاب ليس على جانب كبير من الذكاء ، وأن حديثها أرهقه ، وأعجبها ذلك منه اذ زاده رقة جعلته أجدر ما يكون بالعطف عليه . وهمت أن تقبله ،

وأحست أنها تود لو استأثرت به لنفسها . ثم هالها هـذا الشعور واحمر وجهها خجلا أن تساورها الرغبة فى رجل أو الشوق اليه . وكأنما كانت تعد ما هى فيه من لقاء الرجال يوما بعد يوم عملا لا يمس الا جسدها ، حيوان يلقى حيوانا . فلما أحست أن نفسها الناطقة تريد رجلا بعينه ليس بينها وبينه علاقة رأت فى ذلك العهر كل العهر . وخجلت من هذا التردى فى الرذيلة ، وهو ما لم تشعر به حين كان الأمر بينها وبين الرجال أمرا بين حيوانين .

ولما مرت بخاطرها تلك الأفكار هبت قائمة وتركته ، ولكنها ألقت اليه نظرة عابرة فهمها هو على أنها لا تأبى أن تراه يعود اليها حين يشاء .

وعاد اليها من غده ، وكانت ترقب مجيئه دون أن تعترف لنفسها بهذه الرغبة ، كأنما كانت تسترق الشوق اليه . فلما جاء لزمت حجرتها وتركته مع صويحباتها ، فأقبلن يتهافتن عليه فى مرح غير كريم ، ولعب غير برىء ، وحديث لا ينقصه الابتذال . وأخذ يقص عليهن حديث المعسكر الرومانى وكيف احتفى الجند ببطل منهم عظيم ، قتل وحده خمسة من أهل بلد بعيد . تألبوا عليه فقتلهم جميعا ، وبذلك أصبح اسم روما يلقى الرعب فى قلوب أهل تلك البلاد ، فلن يجرؤ أحد بعد اليوم أن يقف أمام رومانى مهما يكن مبلغه من الضعف والهوان ، وحياه القائد على

أنه المثل الأعلى للجندى الرومانى ، وأوصانا أن يكون قصاصنا ممن يقاوموننا بالغا حدا من العنف والقسوة يملؤهم رعبا اذا ذكرت أمامهم روما ، وان هذه هى الوسيلة الوحيدة للابقاء على الرومان أينما حلوا .

وأطال الحديث معهن وهو يرجو أن تجىء صديقته ، ولكنها لم تفعل . فلما ضجر من انتظاره اياها سأل عنها ، وقام مع صويحباتها حتى أتوها . وكان لهم ضجيج عال ، فلما دخلوا عليها سكت وسكتن . وأقبل عليها يقبل يدها . وأقبلن عليها يذكرن لها تحرقه للقائها وضيقه بحديثهن . وأردن أن يخرجن فمنعتهن . وبقين جميعا فى أدب واضح واحتشام لم يكن من طبعهن . وسر هو لرضائها وسررن جميعا حين رأينها تقبل عليهن وتعرض عن شذوذها القديم وعزلتها التامة .

وأخذت تداعبه فتقول ان يديه مخضبتان بالدم ، وانها لا تحب أن تجلس مع المجرمين السفاحين . ولم تكن تعنى شيئا مما تقول ، فان نظرات هذا الشاب الوديع كانت تدل على بعده التام عن أن يكون سفاكا للدماء قاتلا للأبرياء . وتظاهرت بالرغبة فى الخروج ، فأمسك بتلابيبها يلتمس المغفرة وهو يقول انه لن يقتل أحدا بعد اليوم ، ولن يغفل ضميره بعد الآن . وبكى بين يديها حتى آمنت بتوبته فخرج راضيا مرضيا عنه .

ولم يكن لها بد من أن تؤمن ، فهى فى حاجة شديدة الى هذا الحب الجديد الذى أتاح لها لأول مرة أن تبرأ من الندم وأن تشعر بهدوء البال ، وأن تحس أن صلفها ان لم يكن قد زال فهو صائر من غير شك الى الزوال بعد أن خفت حدته كثيرا ، وكان فرحهـا بذلك عظيما . ذلك أنه سبق لها أن أرادت أن تذل فاحترفت البغاء، ومع ذلك لم تذل نفسها حين دنست جسدها . أما اليوم فهى تشعر لأول مرة بالحب البرىء الطاهر ، وذلت نفسها الذل الكريم الذى كانت تحلم به فلا تبلغه . وتبين لهـا أن الكبرياء — خطيئتها الكبرى — لا يكفر عنه التكفير الحق الا عن طريق الحب الطاهر ، فهو الذى أذلها وطهرها ، أما غيره فدنسها ولم يكفر عن كبريائها . وأيقنت أنها لو أحبت فى أول أمرها ما وقعت فى خطيئتها الأولى ، وما تردت فى خطيئتها الثـانية التى حسبتها تكفيرا عن الأولى .

لم يطل عهدها بهذا الحب ولم تتمتع به كثيرا ، فـلم تلبث أن خرجت من هذا الحب البسيط الجميل وهذا الحلم اللذيذ والسعادة الهادئة الى حب آخر أعمق وأعنف وأغلب للنفس وأشمل للفضائل ، حب علمت حين أحست به أن الحب الأول لم يكن الا قطرة من هذا البحر فنسيته تماما . ولما لقيت هذا الشاب بعد ذلك جهلته وان لم تنـكره ، وكأنها لم تذكر أن قلبها خفق يوما لرؤيته وأن فؤادها تعلم

الشوق ونفسها تعلمت الطهر على يديه . نسيت ذلك كله كما يفعل الظمئ الصدى حين يأتى العين الصغيرة فيفرح بها وينعم ، ثم يجد النهر الخضم فينسى تلك العين وفضلها عليه .

ذلك أنها جلست يوما الى نافذتها ترقب مجيء ذلك الشاب وهي تغالب شوقها اليه فتغلبه تارة ويغلبهـا تارة أخرى ، وكانت تتوق اليه ساعة ثم تجهد نفسها ســاعات لتنساه . وبينا هى على هذه الحال اذ أقبل رجل من علية القوم ضاحكا ساخرا يضرب كفا على كف وهو يقول :

— انى رأيت اليوم عجبا لم يسمع أحـد بمثله من قبل ، وما أظن الا أن الساعة قريب اذا كانت أمورنا ستسير على هذه الوتيرة ، ألم تعلموا ما حدث فى أورشليم اليوم ، قدمها رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ولا جاه ، ولم يؤت من العلم ولا من المال شيئا ، قدم على حمار هزيل يتعثر فتكاد تدق عنقه ويكاد يهوى براكبه ، دخلها ومعه قوم من أقل بنى اسرائيل قدرا وعلما ، ومنهم من لا تزال تعلق بثيابه رائحة السمك ، فان أكثرهم من صياديه فى طبرية ، قوم بهم من الجهل والفقر وضعف التفكير ما لا نجـد له مثيلا بين أهل أورشليم . على هذه الهيئة المخزية دخــل هذا الرجل بلدنا وبيده غصن من شجرة زيتونة يدعــو به الى السلام ، ويدعو الى المحبة بين الناس ، وبين الله والناس

ويقول أتباعه انه نبي وان له معجزات ، وانه يبرىء المرضى، بل قيل انه يحيي المـوتى ، الى غير ذلك من خـرافات المؤمنين به . وهو يدعو الى ايمان جديد ودين له خاص يضع الفقراء فوق الأغنياء،والجهال فوق العلماء،والضعفاء فوق الأقوياء . وكنت أحسب أن سخف هذه الدعوة وضآلة قدر أصحابها كفيلان أن يجعلاها موضع السخرية والهزء ، وما هالني الا ما رأيته من اقبال الناس عليه والتفافهم حوله وايمانهم به ، وما أحسب أن أحدا يؤمن به الا أن يكون قد فقد كل أمل له فى النجاح فى الحياة .

وهبت الفتاة تسأل عن صاحب هـذه الدعوة ما هو وما خطبه وما أتباعه . وعلمت من أمر هذا القـادم على أورشليم أنه يدعو الى المحبة بين الناس جميعا وبينهم وبين الله ، وأنه يدعو الى التواضع ويعده أصل الفضائل وطريق النجاة وسبيل النعيم المقيم ، وأنه يغفر الذنوب ويكفر عن الخطايا . ووقع فى قلبها أن نجاتها ستكون على يد هـذا الرجل الذى لا يحفل بالأغنياء ولا بالعلماء ، والذى يشفى الناس من الكبرياء . وأشرق وجهها لهذا الذي وقع فى نفسها ، وقامت الى مخدعها لينصرف الناس . فلما خرجوا تسللت من الدار خفية وهربت لا تلوى على شيء ، عارية الرأس مهلهلة الثياب لا تريد أن تبطىء أو تتريث لتصلح من حالها خشية أن يفوتها ما عزمت عليه . وكانت على هيئة لا تقبل

سيدة أن تكون عليها حين تسير فى الطرقات ، ولكنها عميت عن كل ما حولها ، ولم تحسب لما قد يقال عنها حسابا، وتركت وراءها مالها كله وهرعت الى حيث تلقى هذا الرجل وقد قدرت أنه سيكون قائدها الى النجاة .

ولم يكن عسيرا عليها أن تلقاه ، فقد تجمع حوله خلق كثير ، منهم الطلعة الذى ليس به الا حب المعرفة ، ومنهم من يبغى الشفاء من مرضه ، ومنهم من تبعه ايمانا به . وأقبلت هى تشق طريقها اليه وسط الزحام ، وعلم الناس من هيئتها وزيها أنها ليست من فضليات النساء ، واشمأزوا منها ، وأوسعوا لها الطريق تجنبا لها ، وغمروها بنظرات الاشمئزاز والاحتقار . ولكنها لم تلق اليهم بالا . وتقدمت نحوه ، ولم تستطع أن ترى وجهه اذ لم يلتفت الى الجهة التى كانت فيها . ثم حدث أن لمسته احدى السيدات فعلم ان مؤمنة لمسته ، وكان الناس كلهم يلمسونه فلم يشعر بهم الا حين لمسته هذه المؤمنة فان لمس المؤمن شىء لا يعرفه الا هو . عند ذلك التفت وراءه يسأل عن هذه التى لمسته ، وما ان أشرق وجهه على هذه الفتاة الهاربة حتى بهرتها رؤيته وعلمت أن أملها فى النجاة لن يخيب هذه المرة ، وصاحت به تناديه أنها مؤمنة به ترى النجاة على يديه ، فأومأ اليها أن تتبعه ، وغضب كثيرون أن رأوه يقبل على مثلها وهو النبى الذى علق الناس آمالهم به ، فلما علم

بغضبهم ألقى عليهم كلمته الرائعة : ان الراعى الحكيم يعنى بالتى تضل من غنمه ، ويفرح بها حين تعود اليه ، ويترك غير الضالة منها . ولكن كثيرين ممن حوله لم يجدوا هذا القول كافيا فى تبرير عطفه على هذه الفتاة وقبوله اياها وهى آثمة واضحة الاثم .

وانفض الناس وبقيت هى ألزم له من ظله ، وتبعته حتى بلغ دارا نزل بها فلما جلس أقبلت على قدميه فغسلتهما بدموعها وجففتهما بشعرها المرجل وقبلتهما وطيبتهما بأحسن الطيب ، وأحست ساعتئذ أنها شفيت من أدوائها جميعا ، وغمرها نور النبى الجديد وشملتها رحمة الله وبرئت من الكبرياء وزال عنها الندم والحسرة والحزن ، وطهرت مما علق بها من ادران ، وسعدت بذلك غاية السعادة ولم تكن تظن ذلك ممكنا ، ودمعت عينها فرحا بهذا الشفاء ، ونسيت كل شىء الا هذا الايمان الجديد ، وأقبلت عليه بكل ما فيها من قوة وأمل واخلاص .

لم تطهر نفس قبلها مثل هذا الطهر ، ولم تغمر رحمة الله أحدا قبلها بمثل ما غمرت به هذه الفتاة الخاطئة ، فأصبحت بنعمة الله قديسة تضرب بطهرها الأمثال .

الجندى الروماني

ذهب الفتى الرومانى الى دارها وهو أشد ما يكون شوقا الى لقائها بعد أن غاب عنها أياما ، وأقبلت عليه صاحباتها على عادتهن معه ، فلما سألهن عنها أخبرنه أنها خرجت ذات يوم ولم تخبر أحدا بما اعتزمت ، وأن أحدا لا يعلم سبب خروجها ولا أين ذهبت ، وقلن له ان ذلك لم يكن منها عجيبا فقد علمن منذ قدمت عليهن أنها ليست على شاكلتهن وأن فى الأمر سرا ، وانهن لم يخالجهن الشك فى أنها ستخرج يوما من هذا الجحيم الى غير رجعة .

بهت الجندى وشعر أنه فقد أعز شىء يحرص عليه ، فهو لم يعد يطيق عنها صبرا . وزاد فى قلقه ما قيل له من أن أحدا لا يعلم عنها شيئا ، وأزعجه ظنه أنها قد تكون فارقت أورشليم مهاجرة على أن لا تعود ، وظل يبحث عنها فى المدينة فلم يعثر لها على أثر .

وبينا هو يسير فى دروب أورشليم على غير هدى اذ رأى جمعا كبيرا يحيط بالنبى الجديد ، يسيرون وراءه ، فانضم اليهم يستطلع الأخبار بعد أن سمع كثيرا عن هـذا النبى ومعجزاته ، وما زالوا يسيرون حتى بلغوا الدار التى يقيم فيها أتباعه فخرج أهلها يستقبلونه . وكانت المجدلية من بينهم فعرفها وفرح لذلك فرحا شديدا ، وعزم أن يلقاها

وأن يخبرها أنه عاد اليها وأنه باق على عهده معها من الحب الرائع الكريم .

وسأل عن هذا المنزل وأهله ، وعن هذا الرجل الذى التف الناس حوله ، فسمع قولا كثيرا لا عهد له به ، ولم يفهم منه كثيرا ولكنه علم أن فتاته أصبحت من أشد أتباع النبى اخلاصا له وتعلقا به ، وأن حياتها أصبحت متصلة بهذا الدين الجديد اتصالا وثيقا ، وأدرك أنها قد قطعت علاقتها بحياتها القديمة وبكل ما يذكرها بها . ولكن جال بخاطره أنه ليس عليه من ذلك بأس فان حبها له وحبه لها من أرفع الحب وأطهره ، وأنه ليس هناك ما يدعو الى تنكرها له . ولبث مدة ينتظر خروجها ليتحدث اليها وليبثها شوقه كما كان يفعل من قبل . ورأى أن يتقدم اليها فان أنكرته تركها وشأنها حتى لا يعترض حياتها الجديدة ، وان أقبلت عليه فان ذلك يكون دليلا على رضاها عن عودته ويكون له أن يسير معها سيرته الأولى .

فلما علمت بأمره وسعيه اليها ورغبته فى لقائها لم تنكره بل دعته اليها وسلمت عليه وظن أنها ما زالت مشوقة اليه ، ولكنه وجدها لاتختصه بعطف خاص ، ولا تقبل عليه اقبال من تسعده عودة حبيب قديم ، ولا تعرض عنه أعراض من تخشى عودة حب لم تعد تشعر به ، فأقلقه هذا اللقاء الذى لم يكن انكارا ولا حبا ، وحار فى أمره لا يدرى كيف يفهم

موقفها منه . ولم يكن له أن يفهم أنها ما زالت تحبه ولكن حبها له لم يعد حب امرأة لرجل أو حب انسان لانسان وانما أصبح جزءا من حبها للناس جميعا ، ذلك الحب القدسي الذى يرتفع عن أن يكون له موضوع . واستمرت تتحدث اليه وهو شارد الفكر لا يدرى ما يفعل . وهم أن يرتمي تحت قدميها راجيا أن تعود اليه أو يعود اليها ، ولكنها حالت دون ذلك وقطعت عليه تفكيره حين قدمته الى أحد الحواريين على أنه ممن يرجى منهم الخير فأن فى طبيعته ما يشعر باستعداده للايمان .

جعل يتردد على الحواريين كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولم يطمئنوا اليه أول الأمر خوفا أن يكون عينا للحكام عليهم ، ولم يقبل هو عليهم الا بقدر ، ولم يستمع الى كثير من حديثهم ولم يشاركهم أكثر جدلهم ، ولعله لم يكن يريد منهم الا أن يظل قريبا ممن يحب .

وأمله منهم كثرة خوضهم فى الحديث عن الايمان والعقيدة والخشية من الخطيئة والكفر ، واشتاق الى حديث كحديث قومه عن الشجاعة والبطولة واللذة ، وأدهشه منهم أنهم لا يؤمنون بالقوة ولا يعجبون بالشجاعة ولا يفهمون المجد ، وأنهم يهزءون بكل ما يفخر به الرومان . وجعل يسائل نفسه أيمكن لهذه الدعوة أن تعيش وهى على ما هى عليه من تحبيذ التسامح ، وهل يمكن لأهلها أن

يقاوموا القوى المنيفة التى تتضافر على القضاء عليهم وهم لا يدفعون الأذى ولا يردون العدوان الا بدعاء الله أن يهدى المعتدى وأن يغفر له زلاته — دين عجيب يكفى أن يهم أولو الأمر بأهله فينتهى أمرهم ويصبح نسيا منسيا .

وما زال معهم على تلك الحال حتى لقى السيد يوما ومعه حواريوه بعد أن قضى يوما مرهقا . وما كاد يقع نظر السيد عليه حتى أحس كأن نورا أضاء قلبه فاستجاب ضميره لهذا الدين الذى جاء به النبى الجديد ، وبدأ منذ ذلك اليوم يفهم الدعوة فهما حقا ، ودخل منذ تلك اللحظة فى زمرة المؤمنين .

وأخذوا فى الحديث عن أحداث يومهم ذاك فقالوا ان علماء بنى اسرائيل غضبوا اليوم غضبة كبرى اذ حكموا على امرأة بالرجم ، فلما هم الناس برجمها قال لهم السيد المسيح من يكن منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها ، فانصرف الناس مشفقين من هذا القول ، وأغاظ ذلك العلماء فانه فى رأيهم فتنة تحرض الناس على الشك فى أوامر الكتاب فضلا عن ما فيه من قضاء على أساس من أكبر الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى .

ووقعت هذه الكلمة من فؤاد الجندى الرومانى موقعا حسنا فانه رأى فيها تغليبا للضمير على النظام ولم يكن يظن أن هناك شيئا يعلو على النظام فقد كان من عبدته ،

عليه نشأ وبه قامت حياة قومه ، وجعل يفكر فى هذا الذى سمع . وأخذ يحدث نفسه :

ان كانت الخطيئة خروجا عن حدود الله فلله وحده أن يعاقب عليها ، وليس لخاطىء أن يقتل خاطئامثله وان اختلفت درجات الخطيئة ، انما يكون ذلك للمعصومين من الخطيئة ولهم وحدهم أن يحكموا على الناس . ومن منـــا يدعى لنفسه العصمة . ومن يفعل ذلك فانه يعد معتديا على حق الله اذ يبيح لنفسه أن يعاقب على ذنوب علمها عنـــد الله وحده ، وهو مرتكب لكثير منها . انما يجب على الانسان أن يترك عباد الله له سبحانه وتعالى يعاقبهم على الذنوب بقدرته وعلمه الواسع ، فهو على ذلك قادر دون حاجة الى أى فرد منا لتنفيذ ارادته . والناس يخلطون بين ما هـــو مخالف للدين وماهو مخالف للنظام . أما ما يخالف الدين فأمر الجزاء فيه الى الله ، أما ما يخالف النظام فأمر العقاب فيه الىالناس ، على أن يكون العقاب باسم النظام لا باسم الدين . والذين يدعمون النظام بالدين يخطئون فى حق الدين فان النظام من عمل الانسان وهو ناقص ومؤقت وخاضع للتطور ، ولا يجوز ذلك عـــلى الدين . ثم ان النواهى الاجتماعية يجب أن تظل عملا انسانيا خالصا يحميه الانسان وليس من العدل أن نستتر وراء الدين لحماية النظام كما يفعل أكثر الذين يقسون فى عقاب الخاطئين وما بهـــم من

غضب للدين ولكنه حماية لنظام كله من عمل الانسان ، وقد يكون خطأ أو صوابا .

وحدثهم محدث عن قدماء المصريين فذهب الى أنهم خير الوثنيين خلقا وأسلمهم تفكيرا ، ولكنهم كانوا يجهلون الله وأنه مصدر الخير الذى فيهم ، لذلك كان يدفعهم الى الخير حرصهم على أن لا تبيد أسماؤهم ولا أعمالهم فنقشوها على آثار لا تبليها الأيام . وضحك الحاضرون من هذا التفكير الساذج الذى لا ترتفع الوثنية الى ما فوقه . ثم حدثهم هذا الجندى الرومانى عن عظماء الرومان وأن ما يدفعهم الى العمل الرائع انما هو حسن الأحدوثة ودوامها وما يقـول التاريخ فيهم ، وحسب أن ذلك من الرومان جميل ، فضحك الحواريون لأن هذا التفكير لا يسمو عن تفكير غيرهم من الوثنيين فى قليل أو كثير ، فالانسان بدون الله هزأة لا معنى لعمله ولا قيمة للدوافع التى تصدر عنها أعماله ، فان ما يميز الانسان عن الحيوان هو الضمير ، والضمير من الله وبدون الله لا يكون ابن آدم الا حيوانا عاقلا ذكيا ، أما أن يكون بدون الله انسانا فذلك محال .

وأخذ هذا النوع من التفكير يروق الجندى فآمن به مخلصا حتى حقر فى عينه النظام وعظم عنده شأن الضمير ، وجعل يفهم حدود الله وأوامره ونواهيه ، ويفرق بين ماالله سبحانه وتعالى وما للناس ، وما هو أمر الله وحده فأباحه

الناس لأنفسهم ظلما . وأخذ يؤمن بالتواضع والخير المطلق والتسامح ، وأدرك لأول مرة عبث ما تواضع الرومان على تقديسه والسعي اليه والموت من أجله ، فاحتقر المجد والعظمة وحسن الأحدوثة وكل ما لم يكن مصدره الضمير .

أخذ يبشر بهذه المبادىء الجديدة ويدعو اليها زملاءه من الجنود ، وحاول اقناع خاصته بها وهو أشد ما يكون حذرا . ولكن سرعان ما علم قائدهم أن آراء تنتشر بين رجاله تدعو الى الرحمة والمحبة والتسامح ، وتنهى عن القتل وتهزأ بالنظام وتسخر بمجد روما وعظمتها ، فعزم أن يأخذ الأمور بالحزم ، وأن لا يدع أحدا ينال من عظمة جيشه وهو فخر روما وموضع اعجاب الناس كافة .

وحدث بعد قليل أن سير هذا القائد جيشا الى مدينة قريبة وكان هذا الجندى الذى آمن بالمسيح من بين من دفعوا الى القتال ، فذهب وهو لا يعلم ما سيحدث له ، فقد اطمأنت نفسه الى أنه لن يقتل أحدا ليس بينه وبينه عداوة ، وانه لن يدع النظام يطغى على ضميره ، ولكنه لم يكن يدرى على أية صورة سيكون هذا الصراع بين النظام والضمير .

مريضة

يحتوى الليل الألم فيزيده شدة
ويحتوى الألم الليل فيزيده طولا
ولم يكن ذلك الألم — علم الله — فى حاجة الى ما يزيده شدة .

ولم يكن ذلك الليل فى حاجة الى ما يزيده طولا
ذلك أنه كان فى أطراف أورشليم بيت صغير شغل أهله بالحدب على مريضة منهم ، حجبهم أمرها عن العالم فلم يسمع بخطبهم أحد وحجب العالم عنهم فلم يعلموا شيئا مما كان يجرى حولهم . وكان البيت يدل على فقر واضح وان لم يبلغ حد الحاجة . ولم يكن فيه أثاث يذكر ، ولكنه لم يكن خاليا مما يحتاج اليه أهله من وسائل العيش السهل البسيط . ولم يكن فقرهم هذا بالغا حد العدم الذى يدعو الى الحنق على غيرهم أو بغضهم أو الحقد عليهم بل كانوا بريئين من كل ذلك . وكانت المريضة فى احدى القاعات العليا وكان قد اشتد بها الألم منذ بضعة أيام حتى بلغ مبلغا لم يكن لأحد من أهلها بمثله عهد .

وكانت المريضة سيدة فى أوج شبابها ، بيضاء ناصعة البياض ، زاد شحوب المرض جلدها شفيفا . وكانت بضة لم ينل المرض — على شدته — من اهابها الغض ، ولم يذهب

المرض المضنى بشىء من صفاء وجهها . وكانت حين يهدأ عنها الألم يعود اليها اطمئنان نفسها التى لم يكن يعرض لها الاضطراب ولا الضجر ، كأن السقم لم يغير من خلقها شيئا وان أقعدها عن الحركة .

وما زال الألم يشتد يوما بعد يوم ، وكان يأتيها الفينة بعد الفينة عنيفا مزعجا ، وكان أهلها يرقبون هذه الشدة وهم أشد ما يكونون جزعا ، ثم لا يزالون كذلك حتى تنكشف عنها الغمة بعد أن ينهكها الألم والصراخ . وكانوا يعجبون اذ ينظرون اليها حين يخف الألم فاذا هى قد عاد اليها هدوؤها ونضرتها وصفاء ذهنها .

ولما استفحل الشر وعنف الألم لم يعد أحد ممن حولها يطيق أن يراها فريسة لهذا العذاب . وطلبت احداهن الى أحد الحواريين — وكان أحد لا يرد لها أمرا ولا رجاء فهى السيدة مريم نفسها — طلبت اليه أن يذهب الى السيد المسيح يلتمس للمريضة عنده الشفاء ، وقالت له ذكره بها فهى ابنة جارتى وصديقتى ، وهى أطيب الناس قلبا وأطهرهم نفسا ، والله لا يمكن أن يريد لمثلها عذابا ، وقل له أنها تألم ألما لم نسمع أن أحداعانى مثله من قبل،والله الذى وهبه القدرة على شفاء المرضى انما وهبه اياها لمثل هذه المريضة المسكينة الطاهرة .

وسمع بمرضها رجل من أصدقاء أسرتها ، فدلهم على

رجل جاب أقطار الهند وحمل منها أعشابا تسمى الأفيون تنقع وتشرب فيكون لنقيعها فى شفاء الألم عمل السحر ، وجاءهم به فجربوه وكان فعله أعجب العجب فلم تمر دقائق حتى ذهب عنها الألم كله كأنها لم تمرض يوما .

وكان أشد الناس ارتياحا الى هذا الدواء وفرحا به أمها، وهى سيدة هادئة جدا ، رقيقة الجسم دقيقة التكوين ، ذات صوت هادىء لا يرتفع فى أشد سورة الغضب الى أكثر من صوت الحديث عند الناس . وكانت هى وابنتها المريضة ممن وهبهم الله تلك الصفة الرائعة — انهم يشعون الهدوء حولهم ويسبغون منه على كل من يحيط بهم لا يشذعن ذلك أحد . وكان فى البيت طفل صغير ممتلىء نشاطا ، وكان أميل الى الصخب والصياح ، لا يهدأ ولا يخضع لأمر يؤمر به ، ولكنه كان اذا نظرت اليه هذه المريضة هدأت ثائرته وأقبل عليها وصعد الى سريرها وجلس بجانبها أهدأ ما يكون ، وكان شديد الحدب عليها . رأى بعضهم يريد أن يغلق بابها دونه فغضب وهدد من يحاول ذلك مرة أخرى ، كأنه يخشى أن يؤذيها الناس اذا لم يكن عليهم رقيبا ، وكان كل من فى البيت يشعر أن بين روح هذا الطفل وروح هذه المريضة تواؤما واتفاقا عجيبين ، كأن الأرواح لا عمر لها ، وكأنها حين تتفق لا يعنيها ما يكون بين أصحابها من اختلاف فى السن .

جنح الليل ، وكانت المريضة نائمة من أثر هذا الدواء .
والذين يتناولون الأفيون تفاديا من الألم المبرح ينامون نوما غريبا يظل فيه الوجه أقرب ما يكون الى حاله عند اليقظة ، كأن الجسم وحده هو الذى يعتريه النوم ، أما النفس فكأنها تظل على ما هى عليه من الانتباه ، وكأن النائم يسمع وان لم يجب أو هكذا يخيل الى من ينظر اليه .

وأخذ أهلها يحدون عدتهم لاستقبالها حين تستيقظ ، وكان عليهم أن يقدموا لها غذاءها فى الفترة بين نومين ، وهبت من نومها وليس بها أثر من الألم ، ولم تردد تردد النائم حين يستيقظ ، بل فتحت عينيها تامة اليقظة كأنما رفعت عنها أستار السنة . وتبسمت كأنها لم تعرف الألم قط . وأقبل عليها كل من حولها يعينونها على الحركة والغذاء القليل الذى تستطيعه ، وأجلسوها فرحين بعودتها اليهم وهم لا يكادون يصدقون . وهمت أن تشكر ذلك الصديق الذى جاءها بالدواء ، ولكنها تبسمت ثم قالت انها رديئة لا تنسى اساءة ولا تغفر لمن أساء اليها . ولم يفهم أحد من الذى تعنيه بهذا القول ، ولم يكن أحد ممن حولها يعلم أنه أساء اليها يوما فى قليل أو كثير ، ومع ذلك سرت فيهم رعدة من هذا القول يقوله انسان وهو أقرب ما يكون الى الموت ، ونظروا اليها فاذا هى تبتسم لهم فى اخلاص وبراءة يؤكدان أنها لم تقصد الا الى أن تسىء الظن بنفسها وأن تنفى عنها غرور من يظن بنفسه الكمال .

وطفقت تتحدث الى من حولها حديثا عذبا يكاد يكون مرحا ، ثم أخذ الألم يلم بها رويدا رويدا ، وأخذ صوتها يضعف وحديثها يسكن ، وعلم الحاضرون أن بينها وبين الألم المبرح دقائق معدودات . والألم المبرح يصيب الجسم أول الأمر وتبقى النفس هادئة ، ويظل الحال كذلك فترة تختلف قصرا وطولا ، ثم يشتد الألم حتى يشمل الجسم والنفس جميعا .

فى هذه الفترة يكون الجسد معذبا أشد العذاب وتكون النفس قوية لم يصعد اليها الألم بعد . وهى حال غريبة تحدث انفصالا بين الجسد والروح لا أعلم أن شيئا يحدثه مثل الألم المبرح ولعل تلك الحال التى يكون فيها انفصال النفس القوية عن الجسد المنهوك وتغلبها عليه وتعاليها عن آلامه أصل ما يعتقده الكثيرون الذين يحسبون الألم العنيف يصهر النفوس ويطهرها . والواقع أن ذلك لا يصدق الا على هذه الفترة القصيرة ثم يكون الألم عذابا صرفا .

ولما أخذ صياحها يشتد سألت أمها عن الدواء فقيل لها انه نفد ، فجن جنونها وقالت ان لم يجئها أحد بهذا الدواء فسأهشم رأسها بيدى ، فذلك عندى أهون من أن أراها تألم كما كانت تألم من قبل . ووقع قولها هذا على الحاضرين وقعا أليما ، وزاد فى أثره ما خيم على الدار من سكون مؤلم محزن . كان لصوتها الخافت المتهدج وسط ذلك السكون المطلق رنين رهيب مفجع .

أكدوا لها أن عندهم وعدا أكيدا أن الدواء سيكون عندهم بعد قليل . ثم اضطرب كل من فى المنزل حين سمعوا أولى صرخاتها العالية ، وساد الهرج بينهم من هول ما كانوا يترقبون .

فى تلك اللحظة دق الباب فكأنما نزل عليهم ملك من السماء . واختطفوا الدواء وجرعوها منه ما شاءوا . ولم تمض دقائق حتى هدأت نفسها وبدأت صيحاتها تقل ويتباعد ما بينها . ثم زال الألم وهدأت العاصفة هدوءا تاما ، ونامت المريضة ذلك النوم الخاص الذى يجلبه الأفيون ، وأطفئت الأنوار وخيم السكون على البيت وانصرف كل من فيه الى حيث يرجون بعض النوم الى أن تهب العاصفة من جديد .
وكانت ليلة ليلاء ، خيل اليهم أنه لن يكون لها فجر ، وحمل عبء هذا كله بضع نساء ضعيفات رقيقات الشعور ، وذاك الطفل الصغير .

ثم أقبل عليهم الحوارى الذى كان يحبه السيد المسيح ، وهو الذى أرسلته السيدة مريم اليه تلتمس شفاء هذه المريضة على يديه . أقبل الحوارى يحمل رد سيده على هذا الرجاء .

— يقول سيدى ان مريضتكم مبرأة من كل خطيئة ، طاهرة من كل ذنب ، وانه انما وكل بمرضى النفوس يهديهم ويكفر عن ذنوبهم ، وانه لم يؤمر بشفاء الأجسام واحياء

الموتى الا أن تكون فى ذلك آية من آيات الله يريد بها أن يحمل الناس على الايمان ، وانه ليس له أن يعترض سنة الله فى الأجسام اذا كان فيها خطأ يدعو الى السقم .

— أتظن أن الله يريد بهذه البريئة الطاهرة أن تعذب هذا العذاب الذى لم يشهد له أحد مثيلا من قبل على حين يكون غيرها من كبار الخاطئين يمرح ويلعب متمتعا بالصحة والسعادة ، أليس مما يحمل الناس على أن يطهروا نفوسهم أن يكون للطهارة أثر فى هناءتهم وصحتهم . ان الألم لا يبرره الا أن يكون عقابا للمخطىء على خطئه ، والمجرمون أولى به . واذا كان الألم ، كما تقولون ، مما يطهر النفس وينقيها من أدران النعمة وفتنة الصحة، وأنه طريق الجنة، فأولى به من هم فى حاجة الى التطهير ولا يجوز أن يختص به الأبرياء . أليس مما يحمل الناس على اجتناب الشر أن يقع بفاعله عقاب يؤذى صحته وسعادته ، أو ليس مما يدعو الى الخير أن يكون أهله بمنأى عن العذاب والألم فى هذه الحياة .

— ان الله لا يجزى طهارة النفس بسلامة الجسم ، ولا يعاقب على خطيئة الروح بسقم الأبدان . هذا بعض تفكير الذين يقيسون علمه بجهلهم . انما يكون الجزاء من جنس العمل ، والعقاب لا يكون عدلا الا اذا كان نتيجة طبيعية للذنب ، ولا يجوز على الله الظلم ، ولو أنه عذب الكافرين بآلام الجسم لكان هذا ظلما ، انما يعذبهم بقلق

الضمير . والألم ليس عذابا ولا تطهيرا ، انما هو نتيجة طبيعية لخطأ فى الجسم لا يتعلق بالنفس ، والألم الذى يصيب المؤمنين ليس امتحانا ولا تمهيدا لطريق الجنة ، وليس بين الايمان والصحة من سبب ، ولو كان الأمر على ما ترين فيكون عقاب كل عمل من أعمال الشر مرضا معجلا وثواب الخير صحة دائمة ، لأصبح الناس جميعا طيبين مؤمنين ، ولم يرد الله أن تكون سنته فى خلقه على هذا النحو .

— لله حكمة لا نستطيع أن ندرك كنهها ولا أن نتبين مراميها ، ولكنى أخشى أن يظن الناس بسيدك الظنون ، وأخشى أن يشكوا فى ألوهيته بل فى نبوته ، وقد يشكون قريبا فى انسانيته .

— انك يا سيدتى تشتدين فى الحديث عنه شدة حملته فى ساعة ضجر أن يقول لك كلمته التى سيحار الناس فى فهمها قرونا ، ذلك حين قال لك أيتها المرأة ماذا بينى وبينك .

هنا استيقظت المريضة النائمة وكأنما كانت تستمع الى كل ما يقال حولها وقالت .

— انى أعلم ما قال عنى السيد المسيح وأعلم أنى ناجية من غير شك ، وأنى بريئة طاهرة اذا كان هو قد وصفنى بالبراءة والطهر ، ولم أكن أطمع أن أسعد فى حياتى بشىء خير من هذا الذى قاله عنى ، ويستوى عندى بعد ذلك أن أموت أو أن أبرأ ، ويكفينى أنه قال عنى انى مؤمنة ولا

أريد على هذا الايمان جزاء ، ولا أريد أن يكون مرضى وسيلة لاختبار صدقه،فهو عندى الصادق الأمين على أية حال ، وليس لكم أن تقيسوا عمله بما يعمل غيره ، فان عمله خير كله وان كان ظاهره على غير ما تحبون .

وحاولت أن تجلس فلم تقدر ، وسقط رأسها على وسادتها فى عنف قليل ، وارتخت أعصابها ومال رأسها ، وأقبلوا عليها جميعا فاذا هى جثة هامدة .

وجاءت المجدلية فسجتها وقبلتها القبلة الأخيرة . وكانت أشد الناس حدبا عليها وسهرا من أجلها ، فلما لم يعد الحدب يجدى شيئا تركتها وأقبلت على الرسول تسأله فى لهفة شديدة ما فعل الناس بسيده ، وكأنما عادت الى سابق ما تعودته حين كانت لا تستطيع أن تفكر فى أحد غيره .

وأطرق هو ولم يجب ، وكان احجامه عن الحديث ينم عن ألمه ، وخيل الى محدثته أنه يخفى أمرا خطيرا ، فأخذت بفودى رأسه وهزته هزا عنيفا ، وسألته ما وراء هذا الصمت ، أتراه قد حدث له حادث ، أيمكن أن يكون قد ناله أعداؤه بشر .

وظل على صمته ولكنها كانت على حال من الغضب والعنف لا يقف أمامها شىء ، فاضطر أن يروى لها ما فعل بنو اسرائيل وما اعتزموا من حمل الرومان على صلبه اليوم متهمين اياه بالكفر .

— أيصلب المسيح لكفره بالله ، ويقال بعـد ذلك ان للانسان عقلا أو ضميرا ، ثم يراد منا بعد ذلك أن نثق بحكمة الانسان .

— وأعجب ما فى الأمر أن شيئا من ذلك لم يزعجه ، فهو ثابت كالطود لا يريد أن يحرك ساكنا ، ولا يريد أن يشير علينا بما نعمله لانقاذه وهو يعلم أننا رهن اشـارته ولو كان فى ذلك هلاكنا جميعا .

— أيعنى ذلك أنكم ستسكتون عن هـذا الظـلم لا تدفعونه عنه .

— انه يقول انها ارادة الله وانه ليس لنـا أن نعترض قضاءه وقدره .

— ان الله حين وهب لنا العقل أخذ على نفسه عهدا أن يفهمنا حكمته ، فان غمت علينا فقد نصل الى حد من الشك هو أقرب الى الكفر .

— أبق عليك ايمانك ، فان الايمان لا يعرف الا عند الشدائد ، ونحن فى شدة لا تعدلها شدة ، فلنتمسك بايماننا لعل الله يهدينا سبيل الرشاد فلا يجمع علينا الكفر والضلال .

ولم يدرك أكثر النساء الحاضرات أول الأمر هـول ما أخبرهن به هذا الحوارى ، بل أصابهن لدهشتهن ما يشبه الذهول . ثم تبين لهن عظم الخطب الذى سيلم بهن حين

يفقدن أعز عزيز عليهن . وكن ضعيفات أنهكهن السهر والحزن والألم ، فأجهشن بالبكاء وأخذن يولولن بصوت عال حتى أنبتهن سيدتهن ، وزجرتهن وردتهن الى ما يليق من الاحتشام . وحملت هى ألم هذا الخبر فى هدوء واطمئنان ، ولم ينم عن حزنها الا تقلص خفيف حول شفتيها . ولم يذهب كل ذلك بشىء من روعة عظمتها وسمو شعورها وصفاء نظراتها ، فقد أنزل الله عليها سكينة اختص بها تلك التى اصطفاها وفضلها على نساء العالمين .

ولم تستطع المجدلية أن تبلغ هذا المبلغ من الصبر ، ولم تستطع أن تتصور حياتها بعد أن يغيب عنها هذا الذى أنجاها من عذاب الضمير وخطيئة الكبرياء ؛ فهى لم تعد تعيش الا به وله . وعزمت أن تحول بين جنود الرومان وبينه ، ولو قتلوها ، فما للحياة بعده قيمة . واشتد بها الضيق حتى غشى عليها ، فحملنها الى سريرها وهن لا يصدقن الا أنها ستقضى نحبها من فورها .

وخرج هذا الحوارى وقد زاد حزنا على حزن وألما على ألم ، وذهب الى دار قريبة اجتمع فيها الحواريون يبحثون فى ما يجب عليهم عمله فى هذا اليوم العصيب .

اجتماع الحواريين

اجتمع الحواريون فى تلك الليلة ينظرون فى ما يجب عليهم عمله بعد أن أجمع بنو اسرائيل والرومان أن يصلبوا المسيح . ولم يكن على وجه الأرض أطهر منهم نفسا أو أعظم خلقا أو أنبل غرضا . وكانوا يبحثون كيف يحقون حقا لا مرية فيه ، وكيف يمنعون ظلما لا ريب فيه . ولم يكن بهم ضعف فى العقيدة ولا فى العزيمة ، ولا تهيب لخطر . ولم يستسلموا لشهوة جامحة أو أثرة تخرج بهم عن جادة الصواب . بل كان يحدوهم حب قوى خالص لوجه الله . ومع ذلك طال بهم الجدل واشتد النقاش ، وتبادلوا تهما يعلم الله أنهم منها أبرياء . ولم يعصمهم من أن تدب بينهم البغضاء الا صفاء نفوسهم وقوة ايمانهم . واختلفوا اختلافا شديدا ، على ما بهم من التقوى والورع وانكار الذات وشرف المقصد .

ولعل فى ذلك مصداق رأى من يرون أن اجتماع طائفة من الناس ينظرون فى أمر بعينه يخلق بينهم تدافعا وتجاذبا وانفعالات تؤدى الى مواقف متشابهة سواء أكان المجتمعون حواريين أم وثنيين ، علماء أم جهلاء ، مجرمين أم أتقياء ، فلا يلبثون أن يكون منهم المقدام والمتريث ، والمخاطر والمحاذر ، والذى يدعو الى المجاهرة ، والذى يدعو الى التقية ، والذى يؤثر العاجلة ، والذى تمنيه الغايات البعيدة ،

والقريب النظر والبعيده ، مهما يكن موضوع الحديث . ولا يتفق مثل هؤلاء القوم فى سهولة الا أن يكون فى اتفاقهم كثير من الرياء .

وكان المجتمعون من الحواريين عشرة اذ تخلف عنهم الذى خان ، وغاب الذى يحبه السيد ، فقد أرسلوه اليه يستطلع لهم أخباره ويتلقى أوامره . وكان معهم حكيم ماجى كانوا يعرفونه ويقدرون فضله ، وكان أحد الماجيين الثلاثة الذين قدموا على بيت لحم يوم ولد المسيح . ذلك أن علمهم هداهم الى نجم بدأ يتألق فى السماء فاتبعوه فدلهم على مكان مولده ، ثم رأوا هذا النجم يشتد نوره حتى بلغ أوجه يوم موعظة الجبل فحضرها منهم اثنان . ثم رأوا هذا النجم يضعف نوره فعلموا أن وجود المسيح على الأرض قد قارب نهايته ، فقدم أصغرهم يشهد نهاية هذا النور الذى اهتدوا به دهرا طويلا .

وقضى الحواريون وقتا ليس بالقليل يروحون ويجيئون وهم مضطربون أشد الاضطراب يحدث كل منهم نفسه أو غيره حديثا كله ألم وحزن وغضب دون أن يتبين لهم رأى أو يتعين لهم غرض .

ثم تكلم عميدهم صاحب المفتاح فقال

— اننا نتعرض اليوم لمحنة هى أقسى علينا من كل ما لقيناه من المحن ، محنة لا ينفع فيها ما يعتريكم من حسرة

وندم وقلق ، فلن يغنى عنا كل ذلك شيئا . وانى لأخشى عليكم هذا الندم وهذه الحسرة ان لم يعقبهما عزم وعمل . ان الانسان ليضطرب حتى يبلغ حد اللوثة حين يدعوه ضميره الى عمل خطير ثم تقعد به عزيمته أو يقصر عقله عن أن يهتدى الى نوع العمل الذى يجب عليه ، حتى اذا حزم أمره واعتزم خطة صريحة هدأت نفسه مهما يكن عزمه خطيرا أو مركبه صعبا . وانى أدعوكم الى أن تقلعوا عن ما أنتم فيه وأن تفكروا هادئين فى ما يجب علينا عمله غدا . وليس من شك أن التردد والحيرة أشد ضررا على الاتزان العقلى والنفسى من التعرض لأكبر الأخطار .

عند ذلك سكتوا برهة حتى ثاب اليهم هدوؤهم ثم قال قائل منهم :

— ان الخطيئة التى ستقع غدا أكبر ما ارتكب الانسان من خطايا فى تاريخه الحافل بالذنوب . وما بعد الناس عن الحق بعدهم عنه فى هذا الأمر فانهم خلطوا بين خير الناس وشرهم ، وساووا بين الأنبياء واللصوص . هذا اثم أكبر من أن يحمله قوم دون قوم ، أو جماعة بعينهم ، انما يحمل وزره الناس جميعا ، فنحن اذا أنقذنا السيد المسيح أنقذنا الانسانية كلها من عبء ستنوء به أبد الآبدين .

وقال آخر :

حسن أن ننقذه فننقذ الانسانية من جرم لا يعدله جرم ،

لكن علينا فوق ذلك أن ننقذه لحبنا اياه ، فمن لم يجد بحياته فى سبيل من يحب فلا حب له ، ومن لا حب له فليس منا ، وليس منا من يقف ايمانه عند ابتغاء السلامة . انى أريد أن أحول بينه وبين ظالميه وهم أقل قدرا من شسع نعله ؛ وسأعترض الجنود الذين يريدون به الشر فأنقذه منهم أو يقضوا على ، فان مت فسأموت راضيا ، وان أنقذته فتلك سعادة الدنيا والآخرة .

وقال آخر :

– ألا ترون أن ظلما كهذا الظلم لو وقع على رجل من عامة الناس لكان خليقا بنا أن ننصره وندفع عنه الأذى . ان ضميرنا يأبى أن يسكت عن هذا الظلم المبين . واذا لم نغضب للعدل فقيم كلامنا عنه وعن الحق والباطل . واذا لم ندفع المنكر باليد واللسان فلن ينفع أحدا أن ننكره بالقلب . ان حب العدل وحده يحتم علينا أن نغضب للمظلوم مهما يكن قدره بين الناس ومهما يكن بغضهم له ، فكيف اذا كان المظلوم خير البشر كلهم وكان أحب الناس الينا وأعزهم علينا . واذا أردتم أن يكون لايمانكم بالحق والعدل قيمة فعليكم أن تدفعوا عنه ظلم الظالمين فان لم تفعلوا فقد حكمتم على أنفسكم أن فى عقيدتكم زيغا وفى ايمانكم ضعفا .

وقال آخر :

كأنى بكم وقد غضبتم له وللانسانية وللعدل قد نسيتم

أن أول ما يدعونا الى انقاذه هو حرصنا على الدين الذى جاء به . فليس منا من يستطيع أن يدعو من بعده كدعوته ، ولن يتبع الناس أحدا منا كما كانوا يتبعونه . ولا ريب أنه اذا قضى عليه هؤلاء السفاحون فسيندثر هذا الدين القيم ، وسيزيد فى عجزنا عن الدعوة اليه هواننا على الناس حين يرون قصورنا فى الدفاع عن نبينا ، ان حياته وحده أجدر أن يتحقق بها أمل العالم فى السلام والهداية من حياتنا جميعا بدونه .

وقال آخر :

— هذا قول جميل وحق لا ريب فيه ، ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول انكم ان كنتم تحرصون على الدين فالرأى أن تنقذوا السيد بالقوة لا بالاقناع والاسترحام ولا بالحديث عن العدل والحب . لقد كنا عبئا ثقيلا على دعوته . ألم يقل الناس لو كان فيه خير لاتبعه غير الأرذلين من قومنا . ويكفينا ما نحن فيه من هوان على الناس . ألم يقولوا اننا حثالة الشعب ، وان الله لا يهدى بنى اسرائيل بشرذمة من صيادى السمك فى طبرية .

ان وجوده بيننا يغنينا عن الدنيا بأسرها ، وما دمنا معه فليقل الناس فينا ما يشاءون . أما اذا غاب عنا فلن نفلح بعده حتى يثبت للناس أننا لم نذل الا له ولم نخضع الا لسلطانه ، وأننا انصرفنا عن مقاومتهم لا خوفا ولا جبنا ،

بل تفانيا فيه ، واستصغارا لشأن الدنيا من أجله ، واخلاصا للدين الذى آمنا به .

وقال آخر :

ان العزة والذلة أمران يتعلقان بما يبدى المرء من استعداد لمواجهة الموت . ألا ترون أن الفارس الذى يرهب النـاس فيسجد له آلاف الأحرار من الرجال انما يرهبهم منه أنه وحده مستعد للموت وبذلك يسودهم وينجو من الموت .

ولا يقولن أحد ان قوتنا أضعف من أن يكون لنا معها أمل فى النجاح ، فاننا اذا أحجمنا عن الدفاع عنه فسينتقم مناأعداؤنايجمعون عليناببين الموت وسبةالجبن ومذلة الهوان، وان عفوا عنا فالحياة بعده نذالة وخضوعنا للضـلال كفر ، وان أقدمنا فسيذكر الناس عملنا بالاعجاب والفخر ، وان متنا فسيذكروننا من بعدنا أجمل الذكر ، ومن أشرف ممن يقتل فى سبيل الحق والعدل وهو عالم بضعفه .

وعلت حمية القوم وكشفت عنهم غمة اليأس ، وخففت قلوبهم لهذه الشجاعة ، وفرحوا بما عزموا عليه بعد أن ذاقوا من التردد والحيرة عذابا عظيما ، وأجمعوا أن يتخذوا الى انقاذه كل سبيل .

وسكتوا مدة ثم قال أحدهم

— الرأى عندى أن نختطفه من سـجنه الليلة فليس حراسه بكثيرين ، وليس من العسير أن نتغلب عليهم ولو

أدى الأمر الى قتل من يقاوم منهم . وقد يكون الرأى أن ننتظر حتى يصعد الجند الى قمة الجبل ثم نهجم عليهم ويكون هربنا به من المدينة أيسر .

وكان طبيعيا أن تغلب عليهم الرغبة فى العمل الجرىء بعد أن صرفوا عنه زمنا شغلوا فيه بالايمان والعقائد ، وكان طبيعيا أن يشعروا بالحاجة الى اثبات ما فيهم من عزم وقوة لم يتبينهما الناس فيهم من قبل ، وأن يشملهم حب التخلص من ماضيهم الذى كان على الناس هينا أو دون الهين . ورضيت نفوسهم حين عزموا أن يعملوا عملا حاسما ، ولم يشك أحد منهم أنهم سيلجأون الى القوة وأنهم قد يضطرون الى التعرض للموت أو لما هو أشد عليهم من الموت وهو قتل الأبرياء ممن سيقاومونهم .

وطفقت حججهم تتابع فتقوى ، يتلو بعضها بعضا فتعلو علوا كبيرا. والأمواج — حتى الضعيفة منها — اذا توافقت والتقت على نظام اشتد أزرها ، على حين أن الأمواج العالية اذا التقت على غير نظام ضعفت وتضاءلت . كذلك تتدافع الحجج فى مثل هذا المجتمع فتقوى الحجج الضعيفة حين تتسق ، وتضعف الحجج القوية حين لا يعين بعضها بعضا .

واشتد عزمهم على الكفاح والمقاومة بالقوة ، وأصبح من الصعب على أى منهم أن يعترض هذا العزم أو يقاومه بعد أن بلغ الذروة ، وكادوا ينفضون وهم على هذا الرأى

وأخذ بعضهم يعد نفسه لحمل السيف ويفرك يديه استعدادا للكفاح .

وهنا تكلم أحدهم فقال وهو خائف وجل :

— انكم لتعلمون أني لست أضعف الناس قلبا ولا أحرصهم على حياة ، ولا أشك ان ما قلناه الليلة صواب وحق ولكنى لا أريد أن أعصى للسيد أمرا وهو لا يزال بيننا حيا ، فانى لا أملك من الدنيا شيئا الا ايمانى به ، ولا أود لنفسى أن أموت وقد خالفته فى صغيرة أو كبيرة ، ولا أستطيع أن أهتدى بغير هديه فى أى أمر من الأمور ، وقد علمتم أنه أمرنا حين تعرض له رجال الشرطة وتألب عليه الناس أن لا نتعرض لهم بشر . وتذكرون أنه زجر أحدنا حين استل سيفه فأصاب به أذن جندى منهم . ان أمره لنا فى ذلك اليوم كان واضحا كل الوضوح ، فلن أعمل عملا مهما يكن عندى صوابا حتى تأتونى بأمر منه . فان غاب عنا غدا فانى عند ذلك أبيح لنفسى أن أحتكم الى عقلى على أن لا أخالف ضميرى ، أما اليوم فهو عقلى وهو ضميرى ، فاذا أردتمونى على أن أضع رأيى فوق أوامره فانى أكون قد وضعت عقلى فوق دينى وهو مالا أراه .

ورد عليه أحدهم فقال :

— أتريد منه أن يقول لنا موتوا دفاعا عنى ، انما يقول ذلك القياصرة وذوو القلوب المتحجرة ، أما هو فلا يليق

به وهو صاحب القلب الرحيم أن يأمرنا أن نموت من أجله . على أننا نعلم أننا على الحق وأنهم على الباطل ، وليس لنا أن نرضى بالذل والخنوع ، وليس علينا أن نطيعه فى أمر انقاذه فان انقاذه خير لا يمكن أن تشوبه شائبة .

— انى أعارض فى انقاذه اذا كان ذلك يلجئنا الى استعمال العنف ، وهو ما نهانا عنه ، ورأيى أن ديننا وضع لضمائرنا حدودا وأباح لنا العمل كما تريد لنا عقولنا على أن لا تتعدى هذه الحدود ، وعلى أن لا نخرج عليها مهما يكن الخير فى أعمالنا واضحا . فالدين هو الحدود والنواهى قبل أن يكون ارشادا وأوامر .

— ان فى هذا الرأى ضعفا يقرب من الخيانة ، وترددا يكاد يكون غباء . أليس فى نصرته نصر للدين ، فما احجامك عن نصرته باسم الدين .

— انى لا أريد أن أرتكب معصية فى سبيل حماية الدين فان للدين ربا يحميه ولا حاجة به — فى سبيل حماية الدين — الى أن يحملنى على ارتكاب معصية ، هذه أوهام يختلقها ضعاف الايمان وأنصاف المتدينين .

— ان الله يتخذ منا أسبابا لتنفيذ ارادته ، وعلينا أن نحرص على حماية الدين .

— أنحن أحرص على الدين منه ، أأنتم أعلم بما يصلح لنشر دعوته منه ، انكم ترون أن فى غيبته عنا قضاء

على الدين ، وهذا رأى نراه ، قد يصدق أو لا يصدق ، ولكن استعمال العنف عصيان صريح لأمره ، وهو أمر الضمير ، وهو من أمر الله ، هذا عندى أكبر الكبائر .

— ان الخروج عن الدين فى سبيل الدفاع عن الدين حلال ، ولا بد مثلا من القضاء على زيغ العقيدة بالقتل اذا كان فى الزيغ فتنة ، فالفتنة أشد من القتل .

— ان الزيغ قد يكون زيغا وقد لا يكون ، أما القتل فخروج عن الدين لا يحتمل التأويل ولا الخلاف ، ولا شك أن الفتنة أشد من القتل ، على أنه يجب أن تكون الفتنة حقيقة وهذا ما يصعب التثبت منه ، أما القتل فاثم لا يحتاج الى التثبت من وقوعه . انكم ترون أن خذلانه فتنة ، ألا يمكن أن يكون خذلاننا اياه اليوم أصلا من أصول الدين يتعلق بالتكفير عن الخطايا . الفتنة أشد من القتل ، هذا حق اذا كانت الفتنة ثابتة ، واثبات الفتنة يحتاج الى برهان وهو ما يجوز عليه الخطأ والصواب ، أما القتل والأذى فأوضح من أن يكون فيهما رأيان ، وفيهما شر لا نزاع فيه ؛ ولا يسوغ ارتكابهما خير محتمل أو شر مرتقب .

— ان الدين لا يأمر بأن نغفل عقولنا الى هذا الحد .

— ان الدين يأمرك أن تطيع العقل حتى يقول لك الضمير قف ، عند ذلك لا بد من طاعة الضمير . وقد نهانا السيد — وهو ضميرنا — عن استعمال القوة ولو كانت فى سبيل نصرته أو نصرة الدين .

— ولكن موسى قاتل الناس وقتلهم ليحملهم على الدين الحق .

— انما حارب موسى ليقى قومه عدوان أعدائهم عليهم . وقد تكون عداوة أعدائهم لهم من أثر اختلاف الدين ، ولكنه على كل حال عدوان ، والدفاع عن النفس مباح اذا كان العدوان محققا ، على أن لا تكون أنت البادىء بالعدوان اتقاء لعدوان متوقع . ان موسى لم يحارب لنشر الدين ، ولا لمقاومة الزيغ فى العقيدة ، فهو لم يقوم عبدة العجل بالقتل الا لخروجهم على النظام وعصيانهم أمره وهو حاكم تجب طاعته ، ولم يحمل أعداءه بعد النصر على الدخول فى دينه . ومثله سائر الأنبياء الذين حملوا السيف ، لم يحملوه الا حماية لأنفسهم وقومهم من عدوان أعدائهم ، ولم يحمل أحد من الأنبياء قوما على الدخول فى الدين بحد السيف ، ذلك أن الدين لا يدعى اليه بالعنف .

— هذا تخريج لا شأن لنا به اليوم فان احجامنا عن نصرته نكبة عليه وعلينا وعلى الدين .

— أليست لديكم وسيلة تنقذه دون حاجة الى القوة .

— ألا تذكرون جنديا رومانيا كان يحضر مجالسنا وكان يبدو عليه أنه آمن بالسلم وعرف الفرق بين الخير والشر ، ألا نلجأ اليه ليمنع اخوانه من جنود الرومان أن يرتكبوا هذا الاثم أو يقنعهم أن يتركوه لنا نهرب به من هذه القرية الظالمة .

— تلك خيانة لقومه لا أرضى أن ندعوه اليها ، وانى لأخشى أن نتزلق فى منحدر الخطيئة حتى نصل الى الدرك الأسفل ثم لا نجد النجاة منها بعد ذلك يسيرة .

— انى سمعت أنه اتهم منذ مدة بخيانة جيشه وقومه فى ميدان القتال وأنه سيحاكم اليوم ، وأكثرهم يرى أنه سيقتل شر قتلة جزاء على خيانته .

وخبت حميتهم وعادوا الى ما كانوا فيه من الاضطراب والتردد ، وذهب فرحهم الذى شعروا به حين أجمعوا أن يعملوا عملا حاسما يردون به ظلما واضحا ، وغضبوا على الذين أثاروا فيهم الشك بعد أن صدق عزمهم على الكفاح . واذا كانت الحجج التى تدعو الى الاقدام فى حاجة الى التتابع حتى تشتد وتقوى ، فان الحجج التى تدعو الى الاحجام تنحدر فى سهولة حتى تبلغ السلبية المطلقة . ذلك أن الدعوة الى العمل الايجابى أسهل على الداعى من الدعـوة الى التبصر ، وان كان حمل الناس على الاستجابة اليها ساعة العمل أصعب . أما الدعوة الى الاحجام فهى أصعب على الداعى وان تكن أسهل على الناس تنفيذا . والموقف الايجابى يجعل النفس أكثر ارتياحا ، وفيه لذة نفسية تشتد عند النقاش ، ومن هنا كانت الدعوة أسهل وأدعى الى رضى الداعى والمدعوين . والموقف السلبى يضع الداعى موضع الاتهام ، والدعوة اليه تحتاج الى شجاعة واخلاص يذهب ببهجتهما أن التنفيذ لا يحتاج الى شىء من الشجاعة .

والناس يختلف أمرهم ساعة الجدل فى ما يجب عليهم عمله، عن أمرهم ساعة القيام بالعمل نفسه. وقد يكون الداعى الى الاقدام أقل الناس اقداما حين يجيء وقت العمل ، ولا يكون ذلك منه جبنا ولا سوء نية . وقد يكون الداعى الى الاحجام أكثر الناس اقداما ولا يكون ذلك منه اقتناعا بصواب ما يعمل ، وانما هى طبيعة الندوات حيث يجتمع الناس يبحثون أمرا جدا . هنالك يكون نصيب الرأى الذى يدعو الى الاقدام — وان كان خطأ — أن يغلب على الرأى الذى يدعو الى الاحجام مهما يكن صوابا ، سواء أكان الداعون الى الاقدام فى طبعهم الاقدام عند العمل أم لم يكونوا . تلك طبيعة الشورى حين تتم على هذا النحو فى مجتمع كبير ، كأنها ليس فيها ما يضمن صواب الرأى أو يعصم من الخطأ ، ولو كان أهلها على ما كان عليه الحواريون من فضل فقد كانوا أحسن الناس نية وأخلصهم للدين وأحرصهم على الايمان ، ومع ذلك لم تكن الشورى بينهم الا كما تكون بين غيرهم — وسيلة لا يؤمن معها الزلل .

وغضب أحدهم على المترددين فقال

— من ذا الذى يفيد من الدعوة الى عدم العنف . ان أكثر الرجال عنفا هم الأشرار ، ويزيدهم عنفا وشرا وجرأة على الطيبين أن يكون هؤلاء ممن يؤمنون بعدم العنف فيفسحوا بذلك المجال أمام الأشرار يؤذونهم وهم لا يخشون

أن يقابل هؤلاء العنف بعنف مثله . ان خيار الناس فى غير حاجة الى هذه الدعوة فهم لن يضعوا العنف فى غير موضعه، والأشرار لن يستجيبوا لها أبدا . إنى لا أرى الا ضررا فى هذه الدعوة الى تحريم العنف تحريما مطلقا .

— انى أفيد من ذلك أن أكون قد أطعت الله وتجنبت ما نهانى عنه ، وهذا عندى غاية ما يراد من الانسان .

— كأنه لا يراد من الانسان الا أن يقبع فى دير أو يسكن فى جبل ثم يترك غيره يعيش ويضل .

— كلا بل أريد أن يعيش الناس مجتمعين عاملين مجدين على أن تكون حياتهم وعملهم — أفرادا — فى حدود طاعة الله، واذا أرادوا أن يضحوا فليضحوا بأنفسهم لا بغيرهم .

— ألم نخجل حين رآنا الناس نفر عندما قبض عليه .

هنا قال عميدهم :

— انى لأخجل من ذلك اليوم خجلى من الكفر ، ولم أذل أمام الناس وأمام نفسى كما ذللت ذلك اليوم ، فقد أردت أن أحمل السيف — ولست من أهله — فأضحكت الناس وأخفقت، ومن عمل ما ليس من طبعه — ولو كان صوابا — تعرض لخطرين ، خطر النفاق وخطر الاخفاق . فمن لم يكن منا من أهل السيف والقوة ، ومن لم يكن من طبعه مغالبة الناس فليبتعد عن ما لا يحسن ، فان الصدق بأوسع معانيه — أى

التوافق بين حياة الانسان وما ركب فيه من طباع — هو أول أسرار الحياة السعيدة الطيبة .

انى كدت أصعق يوم قال لى السيد انى سأنكره ثلاثا قبل أن يصيح ديك الصباح ، وعلمت من نفسى أنى لن أنكره أبدا ، ولكنى حين وقعت الواقعة تبينت ما فى نفسى من ضعف رغم ما كنت أعتزمه من شجاعة .

ان القول والرأى يكذبان ، أما العمل فلا يكذب . والذى يريد أن يبدو شجاعا وهو جبان يبوء بخيبتين ، احداهما فى نفسه والأخرى فى عمله . ان أكثرنا أهل ضمير وايمان ، وعلينا أن نقتصر على ما خلقنا له فلا نحارب قوما هم أهل حرب وكر وفر . وانى أعترف لكم على أية حال أنى لم أخلق لهذا النوع من الكفاح ، على أنى أرجو أن يهيىء الله لى من القوة ما أستطيع به أن أكافح فى سبيله كفاحا من نوع آخر .

انى لأجد فى ضعفا كثيرا ، ألم يعلمنا السيد أن نحب أعداءنا ، ولعلى نجحت فى حب أعدائى ، الا أنى أرى صعبا على أن أحب أعداءه وهم له ظالمون ، ولكنى أعد ذلك ضعفا وأرى أن نطيعه اذا كان أمره لنا واضحا لا لبس فيه،فاذا كان قد نهانا عن نصرته بالقوة فعلينا أن لا نتعدى نواهيه .

— انى لا أرى بيننا اختلافا الا فى الوسيلة ، وفى مدى ما نبيح لأنفسنا من حق استعمال القوة ، ورأيى أن لا نخضع

للغضب ولا للبغض ، فاننا ان نفعل نخرج على ديننا . فلندبر أمرنا على أن لا نرتكب خطيئة العنف .

— حسن كل ذلك ما لم يكن الدافع اليه الجبن أو الخور . فان كان أحدكم يشعر أن رأيه هذا يصدر عن رهبة أو خوف فتلك نصيحة الشيطان ، وان كان يصدر عن ايمان وعقيدة فتلك نصيحة الله . وقد يتفق الفعلان أحدهما يوحى به الله والآخر يوعز به الشيطان ، ولكن بينهما بونا شاسعا وان لم ير الناس بينهما فرقا .

— أترى أن تتبع ما يمليه الخوف وهو من أمر الشيطان اذا اتفق مع ما يأمر به النبى ، أم تتركه ما دام الدافع اليه شرا . أأعصى النبى فى أمره الصالح اذا أحسست فى أعماق نفسى أنى انما يدفعنى اليه الحقد أو البغض .

— عليك أن تطيع النبى على أن تطهر نفسك من دوافع الشيطان .

— وما فائدة طهارة الدوافع ما دام العمل واحدا .

ان الدوافع تستمر فى النفس بعد أن يتم الفعل فتراها تنحرف بنا امد الى الشر ان كانت شرا ، واما الى الخير ان كانت خيرا فترى من عواقب العمل الواحد ما يكون شرا وما يكون خيرا طبقا لما فى القلوب من دوافع .

وكان الحكيم الضيف ساكتا يسمع قولهم ولا يبدى

رأيا ، فلما بلغ حديثهم هذا المبلغ أخذ يقول لهم وهم له منصتون .

— أدهشني كثير مما سمعت وهالني أني تبينت فيكم قصورا عن اتباع موعظة الجبل بعد أن سمعناها ووعيناها ، وكنت أظن أنها بلغت أعماق نفوسكم وأنها طهرت ضمائركم، وأنه لا يأتي أحد منكم عملا الا اذا طابق مبادئها ، ولكنني رأيت أنها لا تزال فيكم موعظة سامية تتبع أوامرها حين يستطاع اتباعها ، وتهمل حين تصطدم وما فى طباع الانسان من ضعف أو شر .

وقد تبينت فى كثير مما قلتم أن العواطف التى تدفعكم الى العمل ليست مما نصحكم به السيد ، ولعلها تعد عواطف سامية جدا عند غيركم ممن لم يستمعوا الى السيد ولم يهتدوا بهديه . أما أنتم فيجب أن تكون دوافعكم خالصة من كل شائبة . والدوافع تكون حسنة أو قبيحة حين تتفق والضمير أو تختلف واياه . وقد سمعت منكم أن حبكم للسيد المسيح هو الذى يدفعكم الى الانتقام من ظالميه ، والواقع أن الذى يدفعكم الى ذلك انما هو بغضكم لأعدائه لا حبكم له ، والأمران مختلفان جدا وان كان الناس يظنون أنهما متلازمان . والناس يختلط عليهم الأمر فيحسبون أن حبهم للصديق لا يكون الا ببغضهم لعدوه ، وأن حب الوطن مثلا لا يكون الا ببغض أعدائه، وشتان بين العاطفتين ؛ فالحب لا يدعو الى الشر أبدا ، واذا رأينه يدعو الى الشر

فاعلم أنه قد استحال فى قلب صاحبه الى بغض لعدوه ، هذا خطأ يقع فيه أكثر الناس ، وعليكم أن تحذروه فان اختلاط الأمرين يسهل فى النفوس حتى لا يتبينه الا من رقت طبائعه وحرص على الخير المحض حرصا شديدا .

ودعوتم الى نصرة الحق بالقوة ، وما ذلك الا لأنه اختلط عليكم موقف الحق من القوة . الحق له حدود طبيعية ، بل هو هذه الحدود نفسها . والقوة من طبعها أن تتخطى الحدود ما استطاعت ، فاذا رأيتموهما يسيران جنبا الى جنب فذلك الى حين ، والذين يدافعون عن الحق بالقوة لا يلبثون الا ريثما يبلغون ما يريدون ثم تصبح القوة وحدها رائدهم ، ودعوى استعمال القوة لبلوغ الحق دعوى قصيرة الأمد لا تلبث الا قليلا ، ثم تصبح الدعوة الى القوة سافرة حين تكون فى غير حاجة الى مسوغ من الحق ، وكل من اتخذ القوة وسيلة الى الحق يجد بعد قليل أنه انما اتخذ الحق وسيلة الى القوة . فلا يكن من دوافعكم أن الحق الواضح يجب أن يدافع عنه بالقوة ، فان مصيركم بعد احقاق الحق أن تعتمدوا على القوة وحدها وهو ما ينهاكم عنه دينكم .

الا فاعلموا أنه ما دام الحق فى المحل الثانى فسيان أن يخضع للقوة أو للباطل .

وسمعت منكم من يقول انه انما يدفعه الى العمل خشيته

مما قد يقوله الناس فيكم ، وكثير من الناس يظنون هـذا النوع من الخشية وسيلة قوية الى حمل الناس على الفضائل، وهو خطأ شائع ، فشتان بين الرغبة فى الفضيلة والخوف من الرذيلة ، فان الخوف كالبغض قد يؤدى الى عمل حسـن يوما ثم يؤدى آجلا الى الشر حتما ، ولا يليق بكم أن تصدر أعمالكم عن مثله .

وسمعت منكم من يفخر بشجاعته وحبه للتضحيه طمعا فى حسن الذكر وطيب الأحدوثة ، ومنكم من قال ان ذلك يدخل بكم فى التاريخ فيذكركم الخلف بأطيب الذكر أبدا ، وهذا دافع غريب من دوافع العمل يحسبه كثيرون مما يدعو الناس الى الخير . لكنه قول الوثنيين ، وهو تفاخر أجوف وتعاظم نهاكم عنه السيد وهو عاطفة خرقاء لا يهتدى بها الا الحمقى فهى لا تصلح دافعا الى الخير ، بل هى الى الشر أقرب .

لا أريد أن أدعوكم الى عمل بعينه أو أحملكم على خطة ، فأنتم أعلم بأموركم وأقدر على تدبيرها ، ولكنى أحذركم أنفسكم فانظروا ما يدفعكم الى ما تريدون عمله ، فان كان شرا فستقعون فى الشر الآجل وان أعجبكم الخير العاجل . وأحذركم القوة وما تحملكم عليـه ، فانـكم ان فعلتم ما تأمركم به فقتلتم أحدا أو آذيتموه فانكم تتعدون بذلك حدود الضمير ، وهو كفر بدينكم مهما يكن له من مسوغ عندكم .

وكأنى بكم تقولون وما شأن العقل الذى وهبنا الله ، وما شأن الاختيار الذى ركب فى الانسان اذا كان الصواب أن نغفل عقلنا فى مثل هذا الأمر الواضح . والرأى عندى أن تهتدوا بالعقل ما لم يتعد حدود الضمير ، واعلموا ان للنفس قوانين يجب أن لا تخرج عليها حتى لا يعتريها المرض ، شأنها فى ذلك شأن الجسم ، غير أن قوانينها أصعب فهما وأدق مقاييس ، والضرر الذى ينشأ من مخالفتها أخفى من أمراض الجسم وان يكن أبعد مدى منها . أما التوفيق بين ما ركب فينا من اختيار وما نرغم عليه من اتباع قوانين النفس وما يقتضيه منا العقل ، فمعضلة المعضلات فى حياة الانسان ، وقد يقربها من أذهاننا أنها تشبه الرجل فى السفينة له حرية التنقل والعمل ، وله أن يحكم عقله وعلمه ، على أن لا يتعدى حدود السفينة وقوانين الطبيعة التى تحيط بها فيغرق .

وهنا دخل عليهم من أرسلوه الى السيد يستطلع رأيه وينقل اليهم أوامره ، فتهافتوا عليه كل يود أن يكون رأيه هو الصواب ، فقال لهم :

— انه يأمركم أن تنصرفوا الى العبادة والصلاة ، وأن تتركوه حتى يتم الله أمره فيه ، وأن تنتشروا فى الأرض تدعون الى الحق . وهو يقول لكم انه سيلقاكم بعد أيام ثلاثة فى قرية من قرى الجليل ، وانه مهما يكن ما يصيبه غدا

من عذاب فذلك أمر الله وليس لنا أن نعترض عليه . وهو يحذركم العنف ويلومكم على ما بدا منكم يوم قبض عليه .

ولما علموا أن ذلك أمره صريحا لا لبس فيه هدأت نفوسهم وعلموا أنهم لن يستطيعوا أن يحيدوا عنه ، ولكنهم حزنوا لذلك حزنا شديدا ، من دعا منهم الى العمل ، ومن دعا الى التريث ، ومن دعا الى العنف ، ومن دعا الى السلم . وثقلت عليهم الدعوة الى الاستسلام واليأس حتى بكى منهم كثيرون .

ولم يعوضهم من فرحة العمل الحاسم ومن لذة التضحية فى سبيل الحق ومن شهوة الانتقام من أعداء الدين ما هم فيه من ايمان وطاعة ، وخضعوا للأمر يائسين محزونين ، وعزموا أن يخرجوا من هذه المدينة الظالمة وهم أشد ما يكونون حسرة وندما وبكاء وأسفا أن يضطروا الى ترك نبيهم بين براثن المجرمين يفعلون به ما يشاءون ، وكادت نياط قلوبهم تتقطع اذ رأوا أنفسهم بين هذا الاحجام المحزن وبين الكفر بأمر نبيهم .

وقال لهم الرسول انى وعيت قوله أشد الوعى ، وأرى أن علينا أن نتفرغ للعبادة والصلاة ، مهما يكن الكرب الذى نحن فيه . وأن نهتدى بموعظة الجبل التى غمت علينا فنسيناها ، أو ثقلت علينا فتناسيناها . ولعلنا نحسن صنعا اذا استمعنا الى هذا الحكيم الذى أشرب قلبه هذه الموعظة

فآمن بها ايمانا أشد من ايماننا ، فعلينا أن نتبع نصحه ونفيد من حكمته .

فلما سمعوا ذلك زاد تعلقهم بهذا الحكيم الذى لم يرتفع اليه الشك أو القلق أو الاضطراب . وتعلقوا به تعلق الغريق بمنقذه . وعلموا أن ايمانه المطلق سيكون عونا لهم يستلهمون منه مايخفف عنهم بعض الألم فى تلك الايام الثلاثة الطوال التى سينتظرون فيها عودة السيد بعد أن رفعه الله اليه . وجعلوا يصلون ويتعبدون لعل فى صلاتهم وعبادتهم ما يخفف عنهم الحزن المرير .

وليس من شك أن ما عمله الحواريون كان صوابا من جهة ما هو وحى ودين ومن جهة ماهو فوق أن يدركه العقل الانسانى وحده ادراكا تاما ، وليس من شك أن ما كانوا يخشون من انهيار الدين المسيحى بعد أن يغيب عنهم سيدهم كان خطأ ، بل انهم بهذا الاحجام عن نصرته خدموا الدعوة المسيحية خدمة كبرى ، فان الدين المسيحى تحددت مبادئه وتكونت فلسفته فى ذلك اليوم ، ومن أحداثه خلقت الصفات الغالبة على هذا الدين الجديد ، ومنها نشأت أروع عقائده فى التكفير والفداء، ومنها نشأ هذا الحزن الغالب على طبع كبار المتمسكين بالمسيحية ، وخوفهم من الخطايا ، وحبهم لتعذيب النفس وارهاقها ، واكبارهم خطيئة آدم ، وايمانهم أنها أصل للعذاب الذى تعرض له المسيح لينقذ الانسانية من

آثارها . ولعل ذلك لم يكن الا صدى لخطيئتهم الكبرى ، حين تركوا المسيح لأعدائه ، كان على المسيحيين أن يكفروا عن هذه الخطيئة الى آخر الدهر .

لكن ذلك كله لم يعلمه الحواريون ، ولم يكن لهم أن يعلموه دون وحى .

أما من جهة ما هو انسانى محض فليس من شك أن عملهم كان خطأ . فقد تركوا الحق الواضح يضام وعرضوا دينهم للفناء ونبيهم للظلم وأنفسهم للهلاك . ولا يدرى أحد ماذا كان يصيب المسيحية لو نجحوا فى انقاذه عنوة ، ولكن الذى لا ريب فيه أن ما دلهم عليه عقلهم ، وهداهم اليه تفكيرهم واحساساتهم لم يكن صوابا .

واذا كان الحواريون — وهم أفضل الناس — لم ينجوا من الخطأ بعد التشاور والبحث وبعد أن تجمعت لديهم كل عناصر الهدى فان بنى اسرائيل لهم العذر اذا ضلوا ، فقد كانوا يحسبون الدعوة المسيحية فتنة لا تلبث أن تقوض أركان دينهم ونظامهم ووطنهم . وكانوا يظنون أن الرجل ساحر وأتباعه مجرمون ، وكانوا يصدرون عن نفوس بشرية وعواطف انسانية لم يصقلها الايمان الملتهب صقلا خاصا كما كان الشأن عند الحواريين . واذا كان هؤلاء وهؤلاء أخطأوا وضلوا فماذا يستطيع الانسان أن يعمل اذا أراد أن يتجنب الضلال ما دام يصدر فى أعماله عن العقل الانسانى وحده .

لم تبرأ المسيحية حتى يومنا هذا ، ولعلها لن تبرأ ا ن هذا الذى علق بنفوس الحواريين من ندم وحسرة عـلى ما فرطوا فى لاحق المسيح حين أحجموا عن نصرته . وقضى عليهم أن يحملوا عبء الخطيئة الكبرى ، خطيئة ترك المسيح لأعدائه يظلمونه ويعذبونه ، وخيل اليهم أنهم لم يؤمروا بالانصراف عن نصرة نبيهم الا لأنهم لا يستحقون الشهادة .

وبذلك أصبحت الخشية من الوقـوع فى الخطيئة ، والرعب من الذنوب ، صفة غالبة على الروح المسيحى ، وستظل كذلك أبد الآبدين ، اذ ليس لهم من سبيل الى التكفير عن ما حدث فى ذلك اليوم .

خروج الحواريين

خرج الحواريون من دارهم مطلع الفجر ، وتفرقوا فى المدينة يبثون بين أتباعهم أن الرأى استقر على أن لا ينصروا نبيهم ، ما دام العنف هو السبيل الى نصرته ، ويأمرونهم بالسكون والهدوء والاقلاع عن الغضب ، ويحذرونهم أن يعصوا أمر النبى فهو صريح لا يقبل التأويل . وتواعدوا أن يخرجوا الى قرية من قرى الجليل أمروا أن يبقوا بها أياما حتى يأتيهم نبأ تستقر به أمورهم . وكانوا أشد ما يكون الناس بؤسا وغما ، فقد حطمهم الحزن حتى لم تكد أرجلهم تحملهم . وأحاط بهم اليأس وصاروا فى غمة من أمرهم لا يهتدون الى الطريق التى يسلكون ، وبرح بهم ألم الندم حتى فقدوا قوة التفكير ، وضاقت بهم أنفسهم ضيقا شديدا . وكانوا يعلمون أن قعودهم عن نصرة السيد لا بد أن يكون صوابا فهو أعلم منهم بالصواب . وكان الحكيم الضيف قد وعدهم أن الله رافع السيد اليه وراده اليهم بعد أيام ، ومع كل ذلك لم ينقذهم أمر النبى من غضبهم على أنفسهم ، ولم يعصمهم وعد الحكيم من مرارة الندم على ما فرطوا فى حق دينهم . وخامرهم الشك أن هذا الوعد انما ألقى اليهم حتى لا تنفطر قلوبهم أسى وأسفا ، وحملهم اليأس على أن يظنوا أن الله حرمهم نعمته وسلبهم رحمته لما اقترفوا من آثام ، وما قارفوا من خطايا ، وأخذ كل منهم يبحث فى أعماق

نفسه عن نياته وأعماله فى ماضيه وحاضره ، غله يجد سببا لانحسار رحمة الله عنه .

وتوارث المسيحيون هذا الاحساس العنيف بالاثم والخطيئة ووقر فى قلوبهم أنه لا يصيب أحدا من الناس أذى الا كان مرجعه الى ذنب اقترفه ولو كان هذا الذنب خاطرا غير ذى بال . وظل هذا الشعور عالقا بالفلسفة المسيحية ، وصار من أخص صفات المسيحيين المؤمنين خوفهم البالغ من الاثم ورعبهم الذى يقعد بالمرء عن كل عمل يمكن أن تشوبه شائبة ، وأى الأعمال يخلو من الشوائب . والمسيحيون المؤمنون أحرص على تجنب الخطيئة منهم على الاقدام على الخير ، وخوفهم الظلم أشد من حرصهم على العدل ، وخشيتهم من النار أكبر من سعيهم الى الجنة . ثم ان النهى عن المنكر أغلب عليهم من الأمر بالمعروف . وهم فى وعظهم الناس يوصون بالبعد عن الشر أكثر مما يوصون بالاقبال على الخير ، وبذلك غلبت السلبية على أعمالهم فى أشد عصور المسيحية تعبدا وتقوى ، تلك صفات طبيعية فى الأديان جميعا ولكنها فى المسيحيه أظهر . وثبت فى عقائدهم أن الانسان منغمس فى الخطيئة حتى يطهر ، وقد يكون منشأ أكثر ذلك ما أكره عليه الحواريون فى ذلك اليوم العصيب .

ولم ينقذ الحواريين من حنقهم على أنفسهم أنهم شركاء

فى الخطأ وأن ما عملوه رأى استقرت عليه جماعتهم ، ذلك أن الجماعة من الناس يختلف موقفهم ازاء الخير والشر اقداما أو احجاما .

فالجماعة تقدم على الشر فى يسر بالغ لأن أفرادها يقتسمون وزر الاثم فلا يشعر أحد منهم أنه آثم حقا . ويعفيه من الندم أن له شركاء وأن نصيبه من الذنب ضئيل ، وأنه لو لم يشترك فيه لوقع على كل حال .

والجماعة تقدم على الخير فى صعوبة لأن كل فرد منها يؤثر أن ينسب اليه الفضل .

والجماعة تحجم عن الخير فلا يعفى ذلك أحدا من أفرادها من الندم وتأنيب الضمير ، ويظل كل فرد منها يعد نفسه آثما اذ لم يقم بواجبه وحده ولو كره غيره أن يتعرض للخطر .

لهذا كان الاقدام على الشر أسهل على الجماعة ، والاقدام على الخير أصعب على الجماعة ، أما الاحجام عن الخير فهو مجلبة للندم سواء أكان الانسان وحده فى هذا الاحجام أم كان له فيه شركاء .

لذلك كان الحواريون عند خروجهم من أورشليم فى حال جعلت كلا منهم يشعر كأنه يحمل وزر الخطأ الذى وقع فيه اليهود والرومان فى ذلك اليوم ، كان كلا منهم كان يرى أنه لو أنقذ السيد لأنقذ الناس جميعا من هذه الخطيئة ، وناء كل منهم بحمل هذا العبء الذى أثقل كاهلهم وأحنى

ظهورهم وعذب ضمائرهم ، وأصبح همهم الأول التكفير عن ذنوبهم ، وقويت عندهم فكرة التكفير الفردى عن ذنوب الناس كافة وهى من أقوى دعائم العقيدة المسيحية . وكان الأمر الذى صدر اليهم سببا فى أن يعتقدوا أن العمل السلبى ان لم يكن فيه رضى النفس البشرية ففيه طاعة الله وتقواه ، والضمان الأكبر للسلامة من المعصية .

وبيناهم يسيرون متثاقلين فى الطريق التى تخرج بهم من أورشليم اذ قدم على هذه الطريق ركب رومانى كبير تتقدمه مركبة ضخمة عالية فيها عظيم رومانى ضئيل الجسم قصير القامة فيه ضعف يبلغ حد السقم ووراءه جنود رومانيون أشداء ، ومن وراء هؤلاء عدد جم من أسرى موثقين بالسلاسل . وكان هذا الركب قد عرج على أورشليم فى طريقه الى الساحل بعد أن فتحوا فتحا عظيما وأسروا الرجال الأقوياء من أهل البلد المغلوب ، وجاءوا بهم الى السفن ليعملوا فيها وليبلغوا بها المدينة الخالدة حاملة اليها ما يأكل أهلها وما يشربون وما به ينعمون ويتسلون ويتزينون .

وكانت أيدى هؤلاء الأسرى قد تقرحت من أثر السلاسل الثقيلة التى حملوها أياما . وحدث أثناء السير أن اضطربت قدم أحد هؤلاء الأسرى فتعثر اعياء أو ضعفا وألما ، فجاءه رجل من الحراس وكان من قبل عبدا مثله — وكان الرومانيون يختارون من العبيد أقواهم فيعنون بهم عناية

شديدة حتى يبلغوا غاية القوة ، فيتخذون منهم حراسا ، ثم يختارون من هؤلاء من يصلح للمصارعة تسلية لغوانى روما وفتياتها ، فيقتل بعضهم بعضا ، وهم الأقوياء وسادتهم الضعفاء — جاء هذا الحارس فضرب بالسوط هذا العبد المتعثر فنشط للسير قليلا ثم أعياه الجهد فاضطربت قدماه مرة أخرى واضطرب معه نظام السير فجاءه الجلاد وأعمل فيه السوط فلم يقو على النشاط وسقط على الأرض . ولما أقامه الحارس لم يقو على الوقوف . هنالك توقف سير الموكب وغضب القائد وأزعج غضبه من يليه من الرومان ، فذهبوا الى حيث يرون ما وقف بالجند عن المسير . ولما أطلعهم الحارس على هذا الذى حدث غضبوا عليه لأن ركبا يترأس عليه قائد رومانى عظيم كزعيمهم هذا يجب أن لا يقف لحادث تافه . وحاول الحارس أن يخلص يدى العبد من السلاسل التى تربطه بغيره من العبيد فلم يستطع ، وضجر الضباط فلم يجد الحارس بدا من قطع يدى العبد . وسقط هذا على الأرض فرفسه الحارس خارج الصف ، وسار الموكب بيدين مقطوعتين معلقتين فى السلاسل . وسر الرومان لهذا الحل البديع ، ولحضور ذهن هذا الحارس . وتضاحكوا وهم يرجعون راضين الى مكان زعيمهم . وسرى عن هذا الحارس بعد أن أفزعه الرعب — على ما فيه من قوة هائلة — خشية أن يغضب عليه هذا القائد السقيم .

صعق الحواريون لهذا الذى رأوه ، واضطربوا اضطرابا شديدا ، وصاح أحدهم من فرط الغضب : « أيها القوم انكم لظالمون » لكن أحدا من الرومان لم يحفل بهذه الكلمة ولا بقائلها ، ولو ألقوا اليه بالا ما فهموا لقوله هذا معنى ، فلم يكن أحد منهم يرى أن العبيد يظلمون بأكثر مما تظام الخيل حين تحمل الأثقال ، وكانوا لا يرون الا أن العبيد خلقوا لهذا ، وأن الناس ليسوا سواء فى جواز العدل بينهم والرحمة بهم . وأقبل الحواريون على هذا العبد يحاولون أن يضمدوا جراحه ، ولكنه فاضت روحه بين أيديهم وواروه التراب .

وسار الحواريون بعد ذلك وهم أشد تثاقلا وأكثر هما ، وشغلهم هذا الذى رأوه عما هم فيه من أمر أنفسهم فترة قليلة ، فأخذوا يتبادلون الحديث فيه ودار حديثهم أكثره حول الشر ووقوعه على الأبرياء ، وبدا لهم أن الدين ليس أمرا نفسيا خاصا ، وأن لا مفر من تعرضه لما بين الناس من علاقات .

وأهمهم هذا الظلم الذى وقع على العبد المسكين وأزعجهم أن يكون الله — وهو مصدر الخير ، وهو القادر على كل شىء ، وهو العادل الرحيم — أن يكون قد أتاح لمثل هذا الشر أن يحدث ثم لا تأخذ الظالمين صيحة تمنعهم أن يقترفوه! وأجهدوا أنفسهم أن يوائموا بين عدل الله — اذ لا يجوز

لهم أن ينسبوا اليه الظلم — وبين ما يقع فى هذا العالم من شر ، وكانوا فى ذلك فريقين : فريق رأى أن ما وقع لهذا العبد واخوانه لا بد أن يكون سببه ما هم فيه من كفر وما ارتكبوه من ذنوب ، وأنهم لو آمنوا ايمانا صحيحا ما حل بهم هـذا العذاب ، فان الله أدرى بذنوب الناس لا يعلمها الا هو ، فاذا حل بأحد عذاب وهو برىء فان براءته لا تكون الا لجهلنا بذنوبه ، وان القول بغير ذلك كفر بالله وزيغ عن التنزيه الواجب له ، أو ليس فى ما حدث لهم ما يدل على ذلك . أيستطيع أحد منهم أن يفخر بايمانه ايمانا حقا وأنه لم يرتكب اثما ، ولو كانوا مبرئين من الذنوب ما عذبهم الله بما هم فيه . ان الشر الذى يصيب الانسان انما هـو العقاب المعجل فى هذه الحياة ، أما الذين يكفرون ويظلمون ثم لا يصيبهم من ذلك أذى فانهم انما يؤجل لهم العذاب الى الآخرة ، الا أن يكون الله قد تاب عليهم لخير عملوه لا نعرفه . واستطاب أكثرهم هذا الرأى لما فيه من ايمان وتواضـع واعتراف بالخطيئة .

وفريق لم يستسغ شيئا من هذا ، اذ كانوا يرون رأى العين أن الظلم فى هذه الحياة يقع على الأبرياء والمجرمين على السواء . وكانوا يرون أنه من العبث أن نلتمس للمعذبين ذنوبا لم يرتكبوها ، وللظالمين توبة لم يعرفوها . ثم ننسب ذلك كله الى الله ، فان الذين يفعلون ذلك انما يشككون الناس فى الله وفى الدين . ولم يقبلوا أن يكون قصاص الله

انسانا ، ولم يكن هذا الذى نفخ فيه الا الضمير ، وهو من الله ، وهو الذى يميزنا من الحيوان ، وهو من طبيعة خلقنا ، لا يكون الانسان انسانا بدونه . أما العقل والذكاء والنطق والمهارة فهى صفات كان يستطيعها الحيوان لو أنه بلغ درجة كافية من الرقى دون أن يصبح بذلك انسانا . ومن الناس من يدعى أن الضمير اختراع انسانى ، وأنه ليس طبيعيا فينا لأن الحيوان لا يعرفه ، كأنهم يرون أن ما لم يكن من طبع الحيوان فهو اصطلاح اصطلح عليه الناس . وهـذا قول أحمق ، لأن الضمير من طبع الانسان كما تكون الحركة من طبع الحيوان ، وليس للنبات أن يقول ان الحركة أو الخوف ليست طبيعية فى الحيوان ، لأن النبات لا يعرفها . ان الانسان لا يكون انسانا بغير الضمير ، وهو الذى يضع لنا قوانيننا التى لا يعرفها الحيوان .

والذى يصيب الانسان من الشر نوعان ، نوع يأتيه من حيث هو حيوان ، كالمرض وما يصـيبه من تعرضـه لأحداث الطبيعة ، وهو فى هذا لا يختلف عن غيره فى شىء ، وليس ما يصيبنا من أذى بأكثر دلالة على الظلم من المرض يصيب الزهرة ، أو الداء يصيب الحيوان ، أو الصـاعقة تصيب الشجرة ، أو الحجر يقع على حمامة وادعة . وليس هذا ظلما ينسب الى الله ، فان الله لم يجعل سننه الطبيعية متعلقة بما ينفع الانسان وحده . فهى أعم من ذلك وليس لها

من الناس فى هذه الحياة مقصورا على الضعفاء وأن يكون قصاصه من الأغنياء والأقوياء مؤجلا دائما الى اليوم الآخر . ولم يكونوا وحدهم حائرين فى هذا الأمر بل ان الناس ما زالوا فى حيرة حين يعرض لهم أمر الشر وعدل الله والتوفيق بين هذا وذاك .

ولم يجد حتى الحواريون حلا لما أشكل على المؤمنين منذ القدم ، وودوا لو وجدوا حلا لا يحتاج الى تأويل شديد ، ثم احتموا بالايمان المطلق ، وبعظم علم الله ، وعظم جهل الانسان ، ودعوا الله أن يقيض لهم من يدلهم على رأى يجمع بين عدل الله ووجود الشر وكيف يكون الخير كله من الله والشر كله من أنفسنا .

والواقع أن هذا الذى أشكل على الناس فهمه فى كل عصر وفى كل مكان ليس بالأمر الذى يستحيل شرحه ، لولا ما فى الناس من غرور ، وما فى فهمهم لسنن الله فى خلقه من قصور.وأصل الخطأأننانظن أننا خلقناأولا ثم خلق العالم كله بعدنا ومن أجلنا . وكأن قوانين حياتنا وجدت أولا ثم ركبت عليها قوانين الحيوان والنبات والجماد والنجوم لتتفق وقوانين الانسان . وقد علموا من الكتب المنزلة أن الانسان آخر ما خلق الله ، وهم يعلمون ان العالم يستطيع أن يقوم ويسير سيره الطبيعى ، خلق الانسان أم لم يخلق . الواقع أن الانسان حيوان خلقه الله من تراب ثم نفخ فيه ما جعله

أن تتغير اذا حدث أن أصيب من جرائها من لا يستحق عقابا .

والنوع الآخر من الشر يصيب الانسان من عمل غيره من البشر ، وهذا تركه الله لنا وجعلنا عنه مسئولين ، ولم يجعل الضمير جدارا عاليا يمنع الانسان أن يتخطى حدوده ، ولم يجعله نارا تحيط بنا فتحرق من يحاول أن يخرج وراءها ، بل جعله هاديا ووعظنا أن نتبعه ، ولكنه لم يعلق على تخطى حدوده عقابا محتوما ، ولا يمنع ذلك أنه من طبعنا . فالأخلاق والدين والضمير منا بمنزلة الماء من السمك لا بد لنا منه ولكنا نستطيع الخروج على الضمير كما تستطيع السمكة أن تخرج على حد الماء ويصيبنا ما يصيبها ان خرجنا عليه . والذين يظنون أن كل ذلك ليس من طبعنا وأنه من عمل قوم منا همهم التضييق على حريتنا ، يخطئون فهم الكون خطأ فاحشا ، كما يخطىء الحيوان البرى اذا ظن أن بقاء السمك فى الماء خنق لحريته ونقص فى عقله لا أصل له من طبيعته .

ولن يحدث أبدا أن يقع حجر رأسا على الأرض ثم ينحرف عن طريقه لئلا يقع على رأس متعبد مؤمن أو طفل برىء ، لأن مثل هذا الانحراف عن سنن الطبيعة يقضى على نظام العالم كله كما نعرفه . ولن يحدث أبدا أن يمتنع السيف فى يد العملاق الظالم عن قطع يد المظلوم لبراءته ، ولن يحدث أن يمحق الله عمل عالم يقظ لظلمه ، أو أن يربى عمل

جاهل مكسال لبراءته . كل ذلك لا يتعلق بقدرة الله وعدله ، فانه ليس بين هذه الأمور وبين عدل الله سبب ولو ساد رأى الناس فى عدل الله فى هذه الأمور ما بقى على الأرض من قانون طبيعى يسير عليه نظام السماء أو الأرض .

أما ما يصيب الناس من شر يجلبه بعضهم على بعض فالمؤمنون يودون لو أن عقاب الشر يكون عاجلا ويكون حتما حتى يؤمن الناس بالله وبالضمير . وهذا أيضا جهل بسنة الله فى الكون كما نعرفه . ذلك أن النتيجة لا تتبع مقدماتها فورا وعلى طريق الحتم الا فى القوانين الطبيعية التى يخضع لها الجماد ، كانحدار الماء الى الغور من الأرض . أما الكائنات الحية فهى أعقد من أن تظهر فيها نتائج المقدمات لساعتها ، والحياة فيها مرونة وقدرة على التحول ، وفيها تعقيد فى قوانينها يجعل بين السبب والمسبب فرجة من الوقت ، وقدرة على تجنب كثير من النتائج ، فلا تكون الحتمية واضحة . وتزداد هذه الفرجة ما ارتفع الكائن الحى فى حيويته ، والفرجة فى الحيوان أكثر منها فى النبات ، وهى فى الانسان من حيث هو انسان واسعة جدا . كل ذلك يجعل الربط بين الخير وجزائه والشر وعقابه بعيدا ، ولم يكن لسنة الكون أن تجعله قريبا ، وأن تجعله حتما ، لأن تعقد قوانين الحياة — وهو سر كونها حياة — لا يجعلها مطابقة فى هذا الشأن لقوانين الجماد . وهذه الفرجة بين السبب

والمسبب فى الحياة الانسانية للانسان قد تجعل من الصعب أن تتبين الجزاء فى عمل الفرد ، ولكن البحث فى أمور الانسانية كلها لا يدع مجالا للشك فى أن الذين يتبعون الضمير يفشو فيهم الخير ، والذين يتعدون حدوده يفشو فيهم الشر .

لهذا يجب أن لا يكون فى وجود الشر والظلم فى العالم ما يقلق المؤمنين ، وليس فى ذلك ما يدعو الى الشك فى وجود الله كما يظن الكافرون ، ولا ما يدعو الى الشك فى قدرة الله أو عدله وحكمته كما يخشى المؤمنون .

وبلغ الحواريون مأمنهم وفرغوا للعبادة والصلاة والدعاء وما كان دعاؤهم الا توسلا لله أن لا يتركهم يضلون فهم من الضلالة قاب قوسين . وأخذوا يضرعون الى الله .

اللهم انك أنعمت على الناس فوهبتهم الضمير وهو روح منك ، وجعلت أمره أمرك ونهيه نهيك ، فمن أطاعه فقد أطاعك ومن عصاه فقد عصاك . وتركت أمر اتباعه لنا ، فاجعل أعمالنا فى حدود هذا الضمير . اللهم لا تجمع علينا من أمور الدنيا ما يحملنا على تعدى حدود الضمير . اللهم ألهم الناس أن لا يهتدوا بغيره ، وأوزعهم أن لا يتغاضوا عنه لأمر مهما يكن جللا ، وأن لا يقيموا أوثانا يعبدونها من دونه يحسبونها خيرا ، فانه لا خير وراء الضمير . اللهم واهد الذين يتولون أمور الناس الى أن لا يضعوا نظما تضطرهم الى تعدى

حدود الضمير ، وأن لا يوقعوا بغيرهم أذى عاجلا محققا فى سبيل ما يحسبونه خيرا آجلا ينفع الجماعة ، فان هذا أصل بلاء الناس ومصدر الشر فيهم . اللهم انك لم تجعل للضمير قوة مادية تحمل الناس على اتباعه مرغمين ، فاجعل فيهم من القوة الروحية ما يجعلهم يتبعونه مختارين راضين . ان هذا يمحو الظلم ،ومحو الظلم والشر يقوى ايمان الناس ويهديهم سواء السبيل.اللهم فاهد عبادك انهم يكادون يضلون ضلالا لا رجعة فيه . انك أنت السميع المجيب .

عِنْدَ الرُّومَان

قائد حازم

كان الجيش الروماني فى أورشليم من أكبر جيوش القيصر وأشدها بأسا ، وكان على امرته قائد من خيرة رجال روما شجاعة وحزما . وكان له رأى معروف فى ما يجب أن يكون عليه الجندى الرومانى . وكان لا يرى شيئا فى الحياة أعز عليه من مجد روما وعزة أهلها .

وكان يرى أن العظمة التى بلغها الرومان لم يكن أصلها قوة خاصة فى أجسامهم أو قدرة خارقة فى قواد جيوشهم بل كان مرجعها الى ما جبلوا عليه وتعودوه من تقديس للنظام ، فكان عليه حريصا أشد الحرص . وحمله ذلك على الاسراف فكان يتلمس أخطاء من هم تحت امرته كبيرهم وصغيرهم ، ويتتبع زلاتهم فينزل بهم أشد العقاب . ولم يكن ذلك لقسوة فى طبعه ، ولكنه كان يرى أن قسوة النظام أحفظ للجيش وأدعى لنصرته ، وأحقن للدماء فى آخر الأمر ، ولو ظلم فى سبيل ذلك عدد قليل . وكان يرى أن التهاون يؤدى الى الهزيمة فيقتل من الجنود عدد يزيد على من يمكن أن يعذبهم النظام . وكان يعلم ان الجنود لا يحبونه ، ولكنه كان يعتقد أنه يؤدى واجبه كاملا ، وكان بذلك راضيا .

خطر له ذات يوم أن النظام بين جنوده لم يعد قويا كما يريد أن يكون ، ورأى أن شيئا من الفوضى أخذ يدب فى صفوف الشباب من جنوده فمنهم نفر هموا أن يعصوا أمر كبارهم ، وأن يجادلوهم فى صواب ما يؤمرون به ، ومنهم من كانوا غضابا لأنهم لم يعودوا يستمتعون بألوان اللذات التى كانوا يؤملون أن ينعموا بها والتى لم يحترفوا الجندية الا من أجلها . وهاله هذا الذى سمع ، وعزم أن يضرب لجنوده مثلا لاينسونه أبدا ، مثلا يردهم الى الصواب فلا يجرأون بعده أن يناقشوه ما يعمل لخير روما ومجدها . وخيل اليه أن حياة الامبراطورية كلها معرضة للخطر اذا لانت شوكته أو ظهر فى أعماله ضعف أو رحمة . ومثل هذا الرأى اذا تملك قائدا أو حاكما أو قاضيا ضاع صوابه وفقد اتزانه وأصبحت أعماله كلها مسرفة .

جاءوه بشاب يافع من أصغر جنوده سنا ، كان كل ذنبه أنه بقى خارج المعسكر بعد موعد العودة ليلا ، فلما سأله رئيسه عن سبب ذلك أعرض عنه وهز كتفيه ، فلما انتهره وأعاد عليه السؤال فى غضب وشدة رد عليه هذا الجندى ردا مقذعا ، وكان ثملا . والجيوش تعد كل ذلك خروجا على النظام لاتستطيع أن تتهاون فيه . وعزم القائد على محاكمته فى الصباح التالى وجمع أعوانه وبعض الجند ليشهدوا المحاكمة . وكان الأمر واضحا فقد اعترف الجندى بما اقترف ولم يكن له دفاع الا أنه كان ثملا . وسكت الحاضرون

انتظارا لحكم القائد عليه ، وكان هذا الحكم أن يجلد الجندى خمسين جلدة أمام اخوانه ، ودهش الحاضرون لقسوة الحكم وامتقع لون الجندى المتهم ، ولم يكن فى الحاضرين من لم يمتعض لهذا الحكم . وهمس الجنود همسا خفيفا دل القائد على أنهم غير راضين ، فزاده ذلك اصرارا ، وعزم أن لايجعل لغضبهم أثرا فى تخفيف حكمه الصارم على من يخالف النظام . ولم يرض عن الحكم الا الجلاد الذى نيط به أن يجلد الجندى ، فقد أشرق وجهه وتهلل .

ومد الجندى وربط بحبل ، ونزلت عليه الضربة الأولى ، وسال الدم تحتها وصرخ صرخة اضطرب لها القائد نفسه ، ولكنه لم يفكر فى العدول عن هذا الحكم فان تاريخ الجندية ، وتاريخ روما ، وتاريخه هو ، معلق على ثباته فى هذا الموقف ونسيانه كل عاطفة انسانية .

واستمر الضرب حتى خفت صوت الجندى المضروب ، وحسب الناس أنه قد مات ، والجلاد يقوم عليه لا ينقصه واحدة ولا يخطىء العد حتى أتمها خمسين جلدة ، ثم حمله رفاقه الي حجرة دافئة وحملوا اليه نبيذا وشرابا ساخنا وتعهدوه وهو فى حال بين الحياة والموت .

وأقبل عليهم الجلاد غير آسف ولا نادم على ما فعل ، وتلقوه غاضبين ساخطين ، وقالوا له كنت تستطيع أن تكون أقل قسوة وعنفا ، انك كنت أقسى من القائد نفسه ، فقد كان على وجهه من مظنة الرأفة ما لم يكن على وجهك ،

وماذا كنت فاعلا لو مات بين يديك اذا لقطعناك اربا اربا .

— كنت أظن أول الأمر أن الضرب سيقتل منهم كثيرين، ثم امتدت بى الخبرة وضربت المئات فلم يمت منهم أحد .

— وهل أمنت أن يقتلك أحدهم بعد ذلك .

— انهم خير أصدقائى ، وأنا أحب الناس اليهم ، ذلك أنهم جميعا يبلغون غاية المجد بعد هذا الجلد ، فهو الذى يجعلهم أبطالا ، أليس من أكبر صفات البطل الفاتح أن يكون قادرا على ظلم الناس ظلما لا سبب له ، وأن يفتك بهم عن غل وحقد وهو لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وليس بينهم وبينه عداوة ، وليس شىء أدعى الى تقوية هذا الشعور من أن يظلم الناس فى أول حياتهم ظلما شديدا لا مسوغ له . وأكثر أبطال الجنود الرومان فى ظهورهم أثر الجلد . والمظلومون لا يمقتون الظلم ولا يحنقون على الظالمين بل يشعرون بالرغبة فى ظلم غيرهم وايقاع الأذى بالأبرياء انتقاما لما حدث لهم من قبل . هذه خير صفات الجندى الفاتح ، أو على الأقل هذا ما أعلمه عن الجنود الرومان ، كأنهم حين يقع عليهم الظلم يستبدلون طبيعة الحيوان المفترس بطبيعة الانسان العاقل ، وهذه خير مرانة على البطولة كما يفهمها القـواد الفاتحون . وسترون أن ضحية الظلم هذا سيكون عما قريب مضرب الأمثال فى الشجاعة والعظمة .

الخائن

سارت الأمور فى المعسكر الرومانى على هـذا النحو زمنا ، وأصاب القائد الحازم من النجاح ما أثلج صـدره وأرضى أولياء الأمر فى روما . وأخذ القائد يمنى نفسه أنه قد يبلغ الصدارة فى المدينة العتيقة جزاء على ما بذل من جهد وما أبدى من قوة وصرامة . ثم أنمى اليه أن فى جنده عصبة من الشباب لا يخالفون النظام ولكنهم يهـزءون به وأنهم يتبعونه مكرهين ، وانهم يجترئون على مجد روما ويتحدثون عنه فى كثير من السخرية ، وأنهم يبثون الدعوة الى السلام ، وأنهم يقولون أن الجندى يجب عليه أن يفهم ما يؤمر به وأن يناقش فيه وأن لا يطيع الا ما يعتقده صوابا . فأحفظه ذلك عليهم وحنق حنقا شديدا ، وخيل اليه أن فى ذلك قضاء على روح العسكرية الطامحة ، وأن آراء من هذا الطراز لا تلبث أن تؤدى الى الهزيمة ، وأن ذلك قد يفوت عليه مـكان القنصل فى روما . وعزم أن يجعل لكل ذلك حدا .

رأى أن كثيرا من هذا الفساد يرجع الى بعد عهد جنده بالقتال واخلادهم الى الدعة والراحة ، وأن خير ما يعمله اذا أراد أن تعود اليهم حميتهم أن يرمى بهم فى حرب مأمونة العاقبة مكفول لهم فيها النصر . فأعلن فى الجيش أنهم سائرون

الى احدى المدن المتاخمة لفتحها ، والتمس لذلك عذرا تافها ، أن أحدا من أهلها سب القيصر فى سوق المدينة ، وأنه لا بد من تأديبهم حتى لا يقع منهم شيء من ذلك مستقبلا . ولم يصدق أحد أن ذلك يكون سببا حقا لاعلان حرب ، ولكنهم فرحوا بها ، وقليل منهم من فرح بها لأنه يرى فيها فرصة يظهر فيها الفضائل التى ما فتىء الرؤساء يحدثونهم عنها ، أما أكثرهم فكان اغتباطهم لما يرجونه عند فتح المدينة ونهبها من الغنائم والنساء ، فهم يعلمون أن المدينة المفتوحة تظل نهبا لهم أياما معدودات ثم تصبح آمنة فيحاسبون على ما يرتكبون . وفرح كبار الضباط لما كانوا يعلمون من أن طول عهد الجنود بالسلم يفسد خصالهم ، ويهيىء لهم من أسباب الضجر والسأم ما قد يدعو الى انتقاضهم عليهم ، ولما كانوا يرجون من مجد حين يتم لهم النصر .

أعد القائد جيشه خير اعداد ، ونادى فى الجند أن ساعة المجد قد حانت وأن عليهم أن يسيروا يومهم هـذا الى تلك القرية الجاهلة ليقتصوا من أهلها وليعلموهم كيف يوقرون روما الخالدة ويجلونها .

ووقف فيهم خطيبا ، فألقى عليهم كلمة قال مثلها قبله كل من دعا الناس الى حرب أو حملهم على عدوان ، وكلهم يحسب نفسه مبتكرا لها مبدعا فيها .

— ان روما تنتظر من كل رجل من أبنائها أن يقوم

بواجبه ، ولا شك أنكم قائمون بهـذا الواجب نحـو وطنكم الذى أظلتكم سماؤه وحملتكم أرضه ، ذلك الوطن الذى تغذينا بناتج أرضه وارتوينا بماء أنهاره . ان علينا أن نحميه من كل من يجترىء عليه بالقول أو العمل ، فاننا بذلك نحمى آباءنا وأمهاتنا ونساءنا وأبناءنا ، نحميهم ونجعلهم كراما على أنفسهم أعزة على الناس . سيقتل منكم فى الميدان عدد وسيبكيهم أهلهم ، ولكن ميدان الشرف هو ميـدان الخلود ، واذا كانت الأمهات لا تفهم ذلك فانهن نساء وأنتم رجال تضعون المجد فوق الحياة . ألا أن الجبن مسـبة للرجال تلصق بهم فتعرضهم لاحتقار الناس جميعا ، والحرب تخلق فضائل الشجاعة والتضحية والولاء والأخوة بين الجنود ، أما الدعة والسلم فيذهبان بالرجولية ، والرجل لا يكون رجلا حتى يرمى بنفسه فى حومة الوغى ، فان مات فتلك غاية الفضيلة ، وان عاش فهو البطل المغوار . وستحيا أمتكم بموتكم وسيتقرر مصيرها عدة قرون بما تعملون اليوم فى ميدان القتال . فلا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تجلبوا عليكم وعلى أمتكم عار الهزيمة . اننا نموت ليعيش أبناؤنا سعداء ولتصبح روما سيدة العالم ، فاضربوا أهل المدينة الغـاشمة ضربة لايستطيع بعـدها أحفادهم أن ينظروا الى أحد من هل روما دون أن ترتعد فرائصهم .

واندفع فى حماسه يتكلم عن المجد والتضحية والرجولية

والشجاعة ، وظن كما يظن كل من وقف موقفه أن قوله هذا سيكون الدافع الأكبر للجنود على القتال ، وأن كلماته ستعمل فيهم عمل السحر فتحملهم على أن يستميتوا فى الجهاد ، وأن جنده سيحفظون خطبته عن ظهر قلب ، وأنهم سيذكرونها حين تنهل الرماح من دمهم ، وأنهم عند ذكرهم اياها سيرتخصون الموت ، وأنه لولاها ما حمل أحد منهم سيفا لقتال ولا تعرض أحد منهم للموت .

لكن الواقع أن الجند ضجروا من هذا الكلام وسئموه ، وبدا ذلك السأم فيهم فأخذوا يتهامسون ، ثم زاد هرجهم كأنهم يهمون بالسير ، وهو يحسب ذلك من فرط الحماسة التى أذكتها فى قلوبهم خطبته البليغة ، فصرفهم وهو مؤمن أن النصر سيكون حليفه وأن مستقبله سيكون باهرا حين تعلم روما بهذه الحرب الخاطفة وانتصاره فيها .

أما العصبة الثائرة وكان عددهم قليلا جدا فقد ساروا جنبا الى جنب يسخرون من هذا الذى قيل لهم ، ولم يكونوا ناقمين على القائد ولا كارهين له ، بل كانوا يضحكون ويمرحون وهم يتبادلون الحديث .

— منطق معكوس هذا الذى يحبذ به الحرب . اننا لا نموت فيها ليعيش أبناؤنا سعداء ، انما يرمى هو وأمثاله بنا نحن أبناءهم ليستمتعوا هم بالحياة الرغيدة ولذاتها بعد أن يوارونا التراب ، ولا يكلفهم ذلك الا قليلا من الدموع يسكبونها أياما قليلة عند ذكرهم من مات منا .

وقال آخر

— وأعجب من ذلك قوله ان الحرب تخلق فى المحاربين الفضائل كلها . ألم يسأل نفسه فى من تخلق هذه الفضائل ، أفى الذين يموتون ، أتراه سأل أحد الذين ماتوا فى الحرب ، هل حقا تكونت فيه أخلاق الأبطال ، أم تتكون هذه الفضائل فى الذين لا يموتون ، أليس معنى ذلك أننا نقتل أشجع الناس لنخلق الشجاعة فى من تنقصهم هذه الفضيلة . انما تخلق الحرب شجاعة زائفة فيه وفى أمثاله ممن هم أبعد الناس عن التعرض لأخطارها ، فهم يشجعون ولكن بدمائنا، ويضحون ولكن بحياتنا ، ويقال عنهم ان فيهم شجاعة وتضحية . ولا يضحكنى شىء مثل الاعجاب بشجاعة الرجل يأمر جنوده أن يقاتلوا حتى يموت آخر رجل منهم ، وهو أمر لا يحتاج من الشجاعة الا الى القدر الذى يتبلد فيه احساس القائد حتى تبلغ قسوته أقصاها فلا يرحم أحدا من رجاله ، وأكثر هؤلاء ينجون فى آخر الأمر ، وهم حين يؤسرون يكرمهم زملاؤهم الفاتحون على حين لا يكرم أحد من الجنود القتلى . ان فى الجنود فضائل سامية ولكنها لا ترجع الى الجندية . كما يكون فى الفلاحين صفات فنية ولا يكون ذلك راجعا الى فلاحة الأرض .

وقال آخر .

— واذا كان يرى أن قتل المئات منا ضرورى لمجد روما فلم لا يكون هو أول من يموت ، أيقبل أن نتركه

للأعداء يرشقونه سهامهم فيموت وحده قبل أن يموت منا المئات ، اننا نقسم مؤكدين له أنه لو فعل لقاتلنا قتال الأسود من بعده ، ولو أن الذى يعلن حرباً على قوم آمنين يكون على يقين أنه سيموت لساعته من جراء هذه الحرب ما أعلن أحد حربا أبدا ثم ان الحروب تقوم اثر خطأ يرتكبه رجال الحكم . وليس من العدل أن يموت الأبرياء والعلماءوأصحاب الرأى الراجح وكل ذى كفاية فى شتى نواحى الحياة فى الأمة لخطأ يرتكبه زعيم سياسى ، ثم لا يصيب هذا الزعيم شر من جراء خطئه . ان الذى يسوق قومه الى الحرب مقامر حقير يقذف بالناس الى الموت وهو عالم أنهم ان انتصروا فالغنم له وان خذلوا فهو بمنجاة من كل عقاب . لتقم الحروب اذا شئتم ولكنها يجب أن تبدأ بقتل من يدعون اليها .

— ويدهشنى قول الذين يرون أن الحرب تخلق الفضائل فى الجماعة . وهو قول لا يستقيم عقلا . ان الجماعة فى هذا الشأن فكرة تصورية لا حقيقة واقعة ، فالفضائل لا تكون الا فى الأفراد . والحروب تقتل أكثر الأفراد شجاعة وتضحية وتترك غيرهم ينعمون بالحياة دونهم .

— ويقولون ان الأمم لا بد لحياتها من المجد الذى تحرزه من جراء النصر ، أكذوبة جوفاء . وخرافة المجد هذه يجب أن يقضى عليها قضاء تاما . واذا كان فى النصر مجد فلا بد أن يكون فى الهزيمة خزى . وأى الأمم دام لها

النصر والمجـد . واذا كانت الأيام دولا ، وكانت الأمم معرضة للنصر حينا وللهزيمة أحيانا ، فماذا يفيدها أن تحرز المجد يوما وتتعرض للخزى أياما .

الا انه ليس فى النصر مجد ، ولا فى الهزيمـة خزى . انما هى تخرصات اخترعها ذوو الأغراض ، وشجع عـلى بقائها ضعاف العقول .

ثم ان هذا المجد انما يتشدق به الأحياء الذين لم يكن لهم أثر فيه ، أما الموتى الذين أقاموه فلا يتحـدثون عن شجاعتهم وتضحيتهم . قسمة ضيزى بين الأحياء والشهداء .

وقال آخر

— ان نظرية الحروب تقوم على أن رجلا أو بضـعة رجال أعز على الأمة من آلاف الجنود ، وقد يقبل ذلك حين يكون الجنود نكرات لا قيمة لهم ، أما اذا أصبح الجنود قوما يفقهون فماذا يمنعهم أن يناقشوا فى أمر الحروب . وكيف يقبلون أن يموتوا من أجل رأى رآه رجل لم يعد أعظم منهم الى حد أن يسوقهم الى الموت وهم صاغرون . ان الجندى المثقف يجب أن لا يكون لقائده عليه هذا السلطان ويجب أن يكون له الحق اذا أمره قائده أن يتقدم ، أن يقول له : لماذا أتقدم ، عند ذلك تنهار أكذوبة الحرب انهيارا تاما .

— كل هذا صحيح اذا كانت الحرب حربا عدوانية كالتي نسير اليها اليوم . أما الحرب فى سبيل الدفاع عن النفس فواجب لا شك فيه . وقد يكون الهجوم خير وسيلة للدفاع.

— هذا ما يقوله كل معتد ، وحد الاعتداء عندى أن يوجد الجندى خارج حدود بلاده ، فمن وجد خارج حدود بلاده فهو المعتدى مهما يكن سبب هذا الخروج .

— ان أولى الأمر والقواد يعلمون أن عليهم أن يخدعوا قومهم فيصورون لهم الاعتداء دفاعا وهى خدعة طال عليها الأمد ولا يجوز أن يخدع بها أحد بعد اليوم . ومما يخدعون به الجند دعواهم أن للحرب قوانين تخفف من ويلاتها وتذهب بأكثر فظائعها وعندى أن الحرب يجب أن لايكون لها الا قانون واحد هو أن كل من خرج من بلاده ليحارب قوما آمنين فى ديارهم فهو المعتدى ويحل لهؤلاء أن لا يرعوا فيه قانونا ولا عهدا وأن لا تأخذهم فيه رأفة ولا رحمة . وليس له أن يطلب اليهم ذلك ما دام قد خرج من بلاده ليقتلهم ويؤذيهم .

— لو أن الأمم كلها أخذت بهذه الآراء لكان فى ذلك القضاء على الحروب وأهوالها ولكن من الخطر أن تأخذ بها أمة واحدة فتكون هى وحدها ضحية هذه الآراء .

— لمثل هذه المبادىء قوة تؤدى الى ذيوعها فلا تلبث أن تعم جميع الأمم اذا أخذت بها أمة واحدة .

بهذا كان يتحدث الجندي المسيحي ورفاقه أما الجند الآخرون فكانوا فرحين بهذه الحرب الجديدة وكانوا يمنون النفس بالانتصار والنهب والغنائم والأسرى .

وبلغ الجيش أسوار المدينة وأحاط بها ، وأخذ الجنود الرومان يحاولون أن يتسلقوا أسوارها فوقع منهم من وقع ومات منهم خلق كثير ، فارتدوا عنها أياما ، ثم عاودوا الكرة فباءوا بالخيبة ، ووقع لهم ذلك مرارا فعلموا أنها لن تؤخذ عنوة وأنه لابد من حصارها حتى تنفد مؤونة أهلها فيذعنوا.

وأرسلوا جنودا يستطلعون الأسوار حتى لا تكون فيها ثغرة يدخل منها المدد الى المدينة من حيث لا يعلمون . ولما اطمأنوا الى ذلك أخذوا يعدون عدتهم لحصار طويل الأمد . وقام منهم عسس يسير كل ليلة حول الأسوار حتى لا يبغتهم العدو وهم غافلون .

وكان وراء المدينة جبل يحميها من جهة واحدة ، وكانت فيه ثغرة تصل الى داخل المدينة ، يسدونها بالحجارة فلا يستطيع العدو أن يتبينها الا أن يدلهم عليها دليل . وكان المدد يأتيهم عن طريق هذه الثغرة ، وكانوا يعلمون أن لا صبر لهم على حصار طويل ما لم يأتهم المدد الكثير ، كما كانوا يعلمون أن هذه الثغرة طريقهم الوحيد ، فحرصوا أشد الحرص أن لا يطلع عليها أحد من أعدائهم ، وكانوا يبثون جنودهم ليلة المدد حتى لا يقربها أحد من عسس الرومان .

وحدث ذات ليلة أن أقبلت عير تحمل ميرة كثيرة وأناخت بجانب تلك الثغرة ، وأخذ أهل المدينة ينقلون ما حملته اليهم وهم آمنون ، اذ كانوا قد عهدوا الى بعض جندهم أن يحولوا بين الجنود الرومان وبين هذه الثغرة لا يقربونها . ثم حدث أن كان العسس الرومان فى تلك الليلة ثلاثة ، أحدهم ذلك الجندى المسيحى،وكانوا يسيرون حول الأسوار على عادتهم كل ليلة ولم يعترض سيرهم أحد ، ثم ما لبثوا أن شاهدوا العير أمام الثغرة وعلموا أن المدد يأتى المدينة من هذا المكان . وقفلوا راجعين مسرعين ليخبروا جيشهم بما رأوا ، وأبصرهم عسس العدو فجروا وراءهم وأدركوهم، وكان حتما أن ينشب بينهم قتال عنيف فقد كان المدافعون يعلمون أن الجيش الرومانى اذا علم بأمر هذه الثغرة فلابد من أن تسقط مدينتهم بعد حصار قصير ، واستماتوا فى الحيلولة بين هؤلاء الجنود وبين الجيش الرومانى ، وقتل اثنان من الرومان واثنان من المدافعين ، وجرح أحد المدافعين جرحا بالغا ، ولم يصب الجندى المسيحى بسوء . ولو أنه سارع الى اللحاق بجيشه وأخبرهم خبر هذه الطريق الخفية الى المدينة لأصبح من أبطال روما ، ولتم لقومه النصر ، ولكان له فى ذلك مجد كبير .

لكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل وقف على رأس هذا الجريح وكان الناس يعلمون أن الرومان لا تأخذهم بالعدو

رأفة ولا رحمة ، ولم يشك هذا الجريح أن عدوه سيذبحه ذبحا ، فلما رآه يحنو عليه يسأله عما أصابه اطمأن اليــه وقال له .

— ماذا تريد أن تفعل بي ، أتراك عزمت أن تحز رأسي فتحمله الى قومك دليلا على شجاعتك .

— لم يخطر لي ذلك ببال ، بل اني أود لو علمت ما تريد ، فقد أستطيع أن أخفف عنك بعض ما بك .

— كل ما أرجوه أن تتركني وشأني فان ورائي أما وزوجة وبنات ، هن في حاجة الى لأعولهن .

— ولكنك ميت لا محالة اذا بقيت في هذا المكان ولن تستطيع اللحاق برفاقك ، فقد كسرت ساقك وسينزف الدم من جرحك حتى يقضي عليك .

— وما حيلتي في ذلك

— سأحملك الى قومك يتولون أمرك ، فهم قريبون ، ولا أستطيع أن أحملك الى جيشي فهو بعيد .

— هذا كرم لم نسمع بمثله من قبل ، أيمكن أن يكون في جنود الرومان هذه المروءة وقد ذاع أمر قسوتهم البالغة على الأعداء .

— ان كنت تعده كرما ومروءة فذلك شأنك ، أما الذي أعلمه فهو أني فاعل ذلك بك .

— ألا تخشى أن يصيبك قومي بسوء ، فان عودتك

الى قومك تؤدى من غير شك الى فتح المدينة وقتل رجالها وسبى نسائها . وقد لا يسمح لك قومى بالعودة ، وأنت الآن حر طليق ، فماذا يدفعك أن تتعرض للأسر بمحض ارادتك .

— ان يفعلوا بى ذلك جزاء على ما سأفعله من أجلك فلن يكون ذلك خطأ منى .

وحمل الجريح الى قومه وأنبأهم نبأه وأعانهم على العناية به . وعجب أهل المدينة اذ رأوا جنديا رومانيا يحمل اليهم جريحا منهم ، وأخذوا يتداولون بينهم ما يفعلون بهذا الجندى العجيب .

قال قائل منهم

انا لانستطيع أن ندعه يعود الى جيشه بعد أن اطلع على ما علم من أمرنا ، تلك حيلة بارعة استطاع بها أن يعرف عنا كل ما يهمه ويهم جيشه أن يعرفه ، فان خدعكم بهذا المعروف وتركتموه يعود الى قومه فسيعود اليكم على رأس جيش فاتح ، يعمل فيكم السيف كما يشاء جزاء على مافرطتم فى شأنه ، وليس عجبا أن يخدعكم جندى رومانى هذه الخدعة فى سبيل بلوغه مراتب الأبطال الفاتحين .

وقال آخر

— ما كان أغناه عن حمل جريحنا الينا لو أنه أراد التجسس لقومه ، فقد كان يعلم كل ما يريد أن يعلم حين

اختار أن يأتى الينا بجريحنا ، وان من أكبر الجرائم أن نجزى الاحسان الواضح بغير الاحسان .

ولما عزموا أن يتركوه وشأنه جـاءوا به وقالوا له اننا سنتركك وشأنك ، تذهب الى قومك ، ونحن نعلم أنك تستطيع أن تعين جيشك على فتح المدينة ، وأن عوامل الطمع أو الخوف قد تدفعك الى ذلك ، على أنك ان تفعل تكن جزيت احساننا اليك بسـوء ، ونحن لا نريد أن نجـزى احسانك الينا بسوء .

ولما تركهم أحس أنه سعيد بما فعل ، فان أول تجربة له فى عمل الخير لوجه الله آتته خيرا كثيرا ، واطمأن قلبـه الى الايمان بما كان يسمعه ويعيه حين أقام بين الحواريين .

ونسى شيئا واحدا هو أنه انما فعل ذلك تحديا للشر ، وأن الخير الذى فعل وان كان عظيما لم يكن طبيعيا بل هو مقصود مصطنع ، كأنه نوع من المرانة الخلقية كما تكون المرانة الجسمية عند الذين يستعدون للنزال . وأن عمله هذا ليس أجمل أنواع الخير بل أجمله ما كان الدافع اليه طبيعيا.

واستعصى على الفاتحين أن يأخذوا المدينة عنوة ، وطال حصارها ، فسعت الرسل بين الفريقين وتصـالحوا على ما يصون كرامة المدافعين والمهاجمين ، وتعاهد الجيشان على أن يحمى أهل المدينة مؤخرة الرومان حين يرتدون عنها ، وعلى أن يقدموا لهم الهدايا ، وأن لا يظاهروا عليهم عدوا ،

ولا يخذلوا لهم حليفا . وعاد الرومان بصلح شريف ، الا أن قائدهم ثار ثورة عنيفة ، ولم يعجبه أن يرتد الرومان عن مدينة دون أن يبلغوا منها مأربا ، وأسف أشد الأسف على ما أصاب هيبة روما من هذا الذى عده هزيمة نكراء ، وزاد من حزنه أن المجد الذى كان يحلم به أصبح بعيد المنال .

ومرت الأيام ، وعادت الأمور بين المدينة وأورشليم الى حالها من قبل ، وكثر التزاور بين أهل البلدين واطمأن كل منهم الى حسن طوية الآخرين . وأخذ أهل المدينة يتحدثون الى أصدقائهم من بنى اسرائيل والرومان عن ذلك الجندى الرومانى العظيم الذى جمع بين فضيلة الرحمة والانسانية وفضيلة حفظ العهد والولاء ، وأخذوا يطنبون فى مدح الخلق الرومانى الذى يدعو أهله الى مثل هذه الفضائل ، وهم يحسبون أنهم يشيدون بذكر روما ويمجدون أهلها بهذا الحديث . وعجبوا أنهم لم يجدوا من أصدقائهم من الرومان من سمع بهذه المكرمة من قبل .

كان وقع ذلك على الرومان شديدا ، فانهم لم يروا فيه نبلا ولا كرامة ولا خيرا ، بل رأوا فيه خيانة للنظام وللوطن ، وعونا للأعداء ، وحرمانا للامة من نصر كان محققا ، لولا هذا الضعف الذى اعترى ذلك الجندى . ولم يعجبوا بهذه الانسانية فهم يرون أن رقة القلب أليق بالنساء منها بالجندى الرومانى . وجن جنون القائد الحازم حين علم

بالأمر تفصيلا ، ولم يكن عسيرا عليه أن يعرف الجندى الخائن الذى كان سببا فى اخفاق جيش روما وضياع هيبتها ومجدها وضياع آماله فى رياسة روما ، ولم يتردد لحظة فيما يجب عليه عمله ، اذ صمم على أن يعاقب هذا الجندى عقابا لم يسمع به أحد من العالمين .

وأخذ يجمع أدلة الاتهام حتى تجمع لذيه منها مالا يدع مجالا للشك فى خيانة هذا الجندى خيانة صريحة لا تنفع فيها شفاعة .

وكان يوم الجمعة هذا يوم المحاكمة .

وبات القائد ليلته مطمئنا الى أنه سيستأصل هذا الداء حتى لاتنهار عظمة روما ومجدها . وأخذ يناجي نفسه

— ان النظام أجمل شىء فى الحياة ، بل هو سر هذه الحياة ، ومن حسن حظى أنى رب هذا النظام ولست عبدا له، وهو الذى يجعلنى أتحكم فى الرجال ولم يجعلهم يتحكمون فى ، وكان يصح أن أكون أنا ضحيته . ان النظام هو القوة التي تقهر أكبر الرجال ان كانوا تحت أمره . وترفع أصغر الرجال ان كانوا على رأسه ، وقد يسلب العدد من الرجال حياتهم وهم له خاضعون ، وهو مع ذلك شىء غامض لا يقوم الا على أساس ضعيف من الخوف . ومن السهل أن ينهار ، ولكنه حين ينهار يقوم على أنقاضه نظام آخر يتحكم فى الناس تحكم النظام الأول . والناس مهما يكن مبلغهم من المدنية يفعلون ما تفعله القبائل البدوية بآلهتها ، يعبدون

حيوانا بعينه يخشونه وترتعد فرائصهم لذكره ، ويقـدمون له القربان والضحايا ، ثم يعدون له حفلا صاخبا يذبحونه فيه. ويأكلونه ، ثم يعبدون حيوانا غيره يفعلون به وله ما فعلوا بالأول .

وقد يفعل الجنود بى وبأقرانى مثل هذا . فهم يخشون بأسى ويرهبوننى ما دمت أمثل النظام . ومن السهل عليهم — اذا شاءوا — أن يقتلونا ويذبحونا فى ثورة صاخبة ، ظنا منهم أنهم بذلك يتخلصون من النظام حين يتخلصون من ممثليه ، ولكنهم بالطبع لا يلبثون الا قليلا ثم يقوم فيهم حكام غيرنا يسيرون فيهم سيرتنا ويظلمونهم كما نظلمهم ، ويعسف بهم النظام الجديد عسفا لا يقل عن ما عهدوه منا ، ولكنهم لا يقدرون هذا عند ما ينتقمون منا ، وهم لا يعلمون أننا فريسة النظام لا مدبروه ، وأين لهم أن يعلموا أن خلاصهم منا لا يعنى خلاصهم من النظام ، وأن الذى يظلمهم انما هو النظام لا ممثلوه وأنه ليس لهم منه فكاك .

انى فى حيرة لا أدرى ما أفعل بالناس .

كنت أود أن أعاملهم بالعدل والرأفة أملا فى ان يدوم حكم النظام . ولكن الرحمة والقسوة كلاهما لا ينقذ النظام من ثورة الناس عليه . فالرحمة تغريهم به وبأهله فينقضون عليه بعد وقت قصير ويقع ذلك فى عهدى وأكون أنا أول الضحايا أما القسوة فانها تؤخر انتقاض الناس على النظام ، وقد طال

عهد قومى به حتى كادوا يثورون عليه . لذلك آرانى فى حاجة الى تأخير انتقاضهم عليه الى ما بعد عهدى وذلك لا يكون الا بمزيد من الارهاب . ان الارهاب يؤخر ثورة الناس على النظام وان كان يجعلها أمرا محتوما .

انى لا أجد من ذلك كله مخرجا . وليس لى الا أن أدع النظام يحمى نفسه بوسائله وخير وسائل حمايته القمع والعنف . ذلك لا يمنع الثورة عليه ولكنه يؤخرها الى ما بعد عهدى فيجنى شر عملى من يأتى بعدى حين أكون قد نجوت . أما الرحمة والعدل فانها تضعف من النظام وتقضى عليه فى أسرع وقت بل تقضى على ما هو أهم منه وهو مبدأ الرعب الذى لا يقوم بدونه نظام .

وليس لى أن أقف لأتدبر أمر النظام وأمرى ، فان الذى يسير على حبل مشدود بين جبلين فوق هوة عميقة لا يجوز له أن يقف ليتدبر أمر هذا الحبل والغرض من وضعه والضرورة التى تحمله على أن يسير عليه والمقصد من هذا السير ، كل ذلك خليق أن يؤدى به الى السقوط لو استباح لنفسه أن يفكر فيه . ومن المصلحين المفكرين من يظن أنه يجب أن يكون على رأس النظام مفكرون مصلحون ، وأن الرجل العظيم على رأس النظام خير من الرجل الحقير ، وأن عقل القائم بأمر النظام وحكمته يضمنان العدل والخير . وهو قول خطأ يليق برجال الفكر وحدهم . أما رجال الحكم فيعلمون ان النظام

قوة جبارة يخضع له القائمون به ولا يخضع هو لهم وأن قدرتهم على زيادة خيره وتجنب شره قليلة جدا . ألا ترى أنه اذا وقف رجلان أحدهما قزم والآخر عملاق على رأس جبل شاهق فان اشراف كل منهما على ما تحته يستوى واشراف الآخر . ان قدرة النظام على الخير أو الشر عظيمة جدا لا يغير منها شيئا ما فى القائم بأمره من خير أو شر . لذلك كان الحكام الصالحون والفاسدون . والعادلون والظالمون سواء فى آثار حكمهم ما دام النظام واحدا .

وما الذى يرغم هؤلاء الجنود الأشداء — وهم عديدون — أن يخضعوا لأمرى . انهم يخشوننى أشد من خشيتهم الموت. وكل منهم يفضل أن يرمى بنفسه أمام الخيل فتدوسه بسنابكها ، وأن يقف أمام الفيلة فتقتله كما يقتل العصفور ، وأن يهجم على الرماح المشرعة فى صدره فيتلقاها بشجاعة عجيبة ، انه يفضل ذلك على أن يعصى لى أمرا . انما يحمله على ذلك أنه يفضل موتا محتملا على موت محقق ، فانى قاتله حتما اذا خالف أمرى — أو أمر النظام ، فانى والنظام فى هذا الشأن شيء واحد — أما اذا تقدم للقتال فقد يكون له أمل فى النجاة .

انما يدفع الجنود الى المخاطرة بحياتهم ظنهم أنهم قد ينجون من الموت فى الحرب ، وعلمهم أن النظام لن يسمح لأحد يخالفه أن ينجو من الموت . وكل منهم رأى قوما

يعودون من الحرب ، فهو يحسب أن سيكون من الناجين ، وأن زملاءه هم الذين سيموتون ، على حين أن أحدا منهم لم ير جنديا خالفني ونجا من الموت . فالجندي شجاعته جبن وأنا أصورها له على أنها المجد كله ، واقدامه خوف وأنا أصوره له على أنه بطولة وتضحية والنظام يؤكد له أنهـا وطنية وكرامة ، وطاعته غباوة والنظام يصورها اخلاصـا . وهو الذي يدفع اخوانه الى الموت وأنا أصور له ذلك على أنه أخوة وولاء . وأنا أزين له ذلك كله على أنه غاية المجد والفخر ، وهو يعلم انى كاذب وان ادعى رياء أنه يؤمن بما أقول ، وهو يعلم أنى لا أحمله على ذلك الا لأنى أضعه بين أمرين ، اما التعرض للموت فى الميدان وهو أهون الأمرين ، واما أن يقتل على يدى وهو الشر الذى لا مفر منه .

ونحن نقول للجنود ان الجبان الذى يفر من الموت مع اخوانه فى الميدان يلقى الموت وحيدا معصوب العينين عند الفجر ، وهو خداع لأن قتلنا للجبـان ليس نتيجة طبيعية للجبن ، بل هو من عمل النظام فهو عمل غير طبيعى ولا يدل على شيء .

انى معهم كصاحب العمل وعماله ، ما دام له عليهم حق الطرد والحرمان من القوت ، فسلطانه عليهم لا حد له ولو كانوا آلافا مؤلفة . أما اذا اتفقوا على أن يحرموه هـذا الحق وحده فان أكثر ظلمه لهم يصبح عليه مستحيلا ويبقى

من النظام ما هو ضرورى للعمل نفسه . كذلك الحال فى الجيوش ، لو أنها تألبت على قوادها فحرمتهم حق قتل من يرفض القتال لذهب أكثر ما فيها من الظلم ولما بقى من النظام الا ما هو ضرورى للدفاع عن النفس . عند ذلك لايحارب الا من يريد الحرب عن اقتناع أو رغبة ، وقليل ما هم .

ان الذين يموتون فى الحرب من الجنود يزيدون شأنى علوا وهم لا يعلون على أحد ، ونحن نقول للجنود ان اسمهم يعيش بعد موتهم فى سبيل المجد ، ولا أعلم أن جنديا واحدا ذكر اسمه بعد موته ، أليس من تمام الخداع أن نكرم الجندى المجهول . هذه فكرة رائعة تمثل أكبر خدعة يضعها النظام أمام الناس لأن أحدا من الأحياء لن يضيره أن يرفع جندى مجهول بعد موته فوق الملوك والأمراء ، وهؤلاء لايضيرهم أن يكرموا ميتا مجهولا ، ولعل الميت المجهول نفسه لا يعبأ كثيرا بهذا التكريم . أما الجنود الذين يعيشون فلا يكرمهم أحد ، وسواء أكانوا أصحاء أم عجزة مشوهين فانهم لا يعلون على أحد بل يظلون فى طبقتهم لا يرتفعون عنها . انما يتحدث عن مجد الحرب الأحياء وحدهم لأنهم لا يعنيهم شىء من موت من يقتل من أقرانهم .

أما أنا والنظام فنظل الأعلين ، وأنا أعلو على جثث الموتى من الجنود ، وربما أزعجنى أحيانا أن أرتفع على جثث

آدميين قتلوا ليرفعوني ، ويساورني أحيانا شعور غريب ، كأني أريد أن أخفض من شأني حتى لا تزكم أنفي رائحة الموتى الذين أعلو فوقهم ، ثم لا ألبث أن أضحك من هذا الشعور السخيف ، اني ان أفعل ذلك أعرض نفسي لأن أكون جثة مثلهم يعلو غيري عليها .

هذا هو النظام ، وأنا أول من يفيد منه ، فلأحافظ عليه سواء أكان ظالما أم عادلا ، معقولا أم غير معقول ، وليمت من يموت من جراء محافظتي عليه . ان النظام وحده هو الذي يقتلهم ، وأنا وحدى الذى أرتفع به ، والذين يموتون هم الذين يفضلون الموت الذي يسوقهم اليه النظام على أن يعترضوه فيسحقهم سحقا . كل ذلك يرفع من شأني ، الغرم عليهم والذنب على النظام ، والمجد لي .

المحاكمة

بدأت فى الصباح المبكر من يوم الجمعة . وجيء بالجنود يشهدونها حتى تكون لهم فيها عظة فلا يجرؤ أحد منهم بعد ذلك على أن يكون سببا فى هزيمة جيش من جيوش روما القاهرة .

وجيء بالمتهم فأقبل رفاقه عليه قلقين واجمين ، يسألونه كيف سولت له نفسه أن يرتكب جرم خيانة الوطن وهو يعلم أنه ليس لها عقاب الا الموت . وقالوا انهم يعلمون ما فى قائدهم من قسوة ، وأنه لابد منزل به أقصى العقـاب ، وانهم كانوا يريدون أن يغضبوا له ، ولكن عظم الذنب لم يدع لهم مجالا للدفاع عنه أو الغضب له .

وشهد المحاكمة رجل من أهل أثينا كان قد وعى الفلسفة اليونانية ثم تبين له أن فيها نقصا يرجع الى طبيعتها العقلية ، وضعفا يرجع الى وسيلتها المنطقية التى لا تعترف الا بما يقوم عليه برهان عقلى ، وسمع أن فى الهند حكمة عالية ، وأن فى فلسطين دينا قيما ، وأن فى مصر نظاما محكما وعلمـا غزيرا ، فرأى أن يرحل الى هذه الديار يتقصى أخبارها لعله يبلغ الحقيقة التى عجز عنها التفكير اليونانى . ولم يكن قد أدرك حقيقة هذا العجز ، اذ كان لا يزال على رأى الفلاسفة

من قومه أن الحقيقة شيء محدد يبلغه الباحث اذا علم كيف يبحث ، حتى اذا وجدها أصبحت يقينا لا يتطرق اليه الشك ، كأن الحقيقة شيء يبحث عنه الانسان كما يبحث عن الذهب ، فالانسان لا شأن له بماهية الذهب أو وجوده وانما عمله مقصور على البحث عنه واستخراجه ، وحسبوا أن موقفنا من الحقيقة يكون على هذا النحو .

وفاتهم أن ذلك قد يصدق على الحقيقة فيما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان . أما الحقيقة فى ما يتعلق بالانسان فأمر معقد جدا لأن الانسان جزء لا يتجزأ من الحقيقة التى تتعلق به ، وهو عنصر ضرورى لتكوينها ولا يمكن بحثها بحثا موضوعيا مستقلا عنه ، فهو صانع هذه الحقيقة وباحث عنها . ولعل ذلك أكبر ما اعترض العقل الانسانى حين بحث عن الحقيقة فى ما يتعلق بالأمور التي اختص بها وحده ، كالضمير والدين والخلق .

وكان ذلك الأثينى قد قدم أورشليم منذ مدة وأحاط علما بما يجرى فيها وعزم أن يشهد هذه المحاكمة ، كما عزم أن يذهب ظهرا الى قمة جبل «كالفارى» ليرى ما اعتزم الرومان عمله تنفيذا لما أراد بنو اسرائيل بالنبى الجديد .

وجاء القائد وهو مطمئن الى ما سيعمله ، عازم عزما لا رجعة فيه أن يقضى على الفتنة التى يمثلها هذا الجندى .

ووقف رجل الاتهام يقول

— كنت أود أن تغوص بى الأرض قبل أن أقف موقفى هذا أتهم فيه جنديا رومانيا بالخيانة ، وكنت أفضل أن تحل بروما أكبر النكبات ، وكنت أفضل أن تفقد روما نصف دولتها ، على أن تقع بين جنودها فضيحة الخيانة للجيش والوطن .

هذا الذى نحاكمه اليوم خان أمته وخان جيشه ، وكانت خيانته سببا فى هزيمة جيش كان خليقا أن ينتصر نصرا مبينا ، وكانت خيانته سببا فى موت من مات منكم دون أن تعوض روما عنهم نشوة النصر وعظمة المجد ، فكأنه قتل بيده الذين قتلوا منكم ، وكأنه جرح بيده الذين جرحوا منكم ، ولولا خيانته ما مات منكم الا القليلون ولكتب لكم النصر فلا تضيع دماء أبطالكم عبثا .

ولو أنه أحجم عن خطر فعرض جيشكم للهزيمة لكان جزاؤه منا الاحتقار ، ولو أنه جبن فاستسلم لكان نصيبه أن تنكره روما وينبذه أهلها ، ولو أنه أخطأ عفوا أو عن جهل فحرمكم بخطئه النصر لكان علينا أن نلتمس له الرأفة ، ولكنه خان عن عمد ، وعرض نفسه لخطر الموت فى سبيل هذه الخيانة ، وأبدى شجاعة خارقة فى تنفيذها ، لذلك كان أمره عندى عجبا ، وبذلت جهدى أن أتفهم كنه ما دفعه الى هذا العمل العجيب .

سمعت منه أنه لا يؤمن بالحرب ولا يعترف بعظمة قيصر وأعوانه ، ولا يرى فى النصر مجدا ولا فخرا ، وكأنه نسى أن تلك طبيعة البشر منذ خلق الناس ، وكأنه لا يعلم أن الناس يجب أن يغلب أقواهم أضعفهم ، وان ذلك أمر لا بد منه . وسمعته يقول ان الذين أمر بمحاربتهم ليسوا أعداء له ، فهو لا يعـرفهم ولم يؤذوه فى شىء ، وان القتـل لا يسوغه الا الدفاع المباشر عن النفس ، وان ما يراه القواد سببا يجعل الجندى يقتل غيره ويقتله غيره لا يعد مسوغا لجريمة قتل الأبرياء ، الى غير ذلك من حديث الخرافات التى تدل على عقل مريض مضطرب ، كأنه يريد أن يغير من نظم العالم كله بفعلته هذه المنكرة . وليس من شك أن لوثته حملته على آراء لا يمكن أن تكون الا وسيلة لهدم النظام وتقويض أركان جيشكم ودولتكم . ولم أفهم كيف أصابته هذه اللوثة .

وما زلت أبحث عن سـبب اضـطرابه حتى علمت — ويا لهول ما علمت ! — أن سر خياناته يرجع الى فتاة من بنى اسرائيل من أحط أهلها قدرا . وقع هذا الشـاب فى حبائلها فقادته الى قوم لا هم لهم الا أن يهـدموا روما ويقوضوا أركان امبراطوريتها ، وفيهم من الدهاء مالا يتسع له ذهن هذا الشاب المسكين ، فصوروا له الأمر على أنه دعوة الى السلام فى العالم كله ، وزينوا له أن الناس لو

اعتنقوا مبادىء السلام والمحبة لعاشوا جميعا سعداء لا يبغى بعضهم على بعض ، ولم يقنعه بقولهم الا هذه المحتالة « دليلة » العصر الحاضر ، فقد أصبح عبدا طائعا لها ارضاء لأحط شهواته . ولذلك خانكم وخان قومه . عند ذلك علمت أنى سآخذه بأقصى الشدة فليس خطؤه مما يمكن أن يغتفر وهو خطأ يرجع الى آراء لو انتشرت لقضى علينا فى أكثر بقاع الأرض ، فان سر نجاتنا يرجع الى الرعب الذى ألقيناه فى قلوب الأمم ، والى الرهبة التى لنا فى قلوب الناس ، ولو ضاعت هيبتنا لذبحنا عبيدنا ذبحا .

وأخذ يسرد على الحاضرين ما عمل هذا الجندى ، ولم يكن منهم من عرف الحقيقة كاملة ، ولم يكن منهم من أعدته نشأته أو تفكيره أو طبعه لفهم شىء من المبادىء التى ذكرها المتهم والتى تعلمها على يد الحواريين ، فلم يكونوا ليعلموا عنها شيئا ولم تحرك منهم ساكنا ، وعجبوا أن يكون فى هذه المبادىء ما يحمل عاقلا على خيانة جيشه وحرمانه نصرا محققا ، واقتنع الحاضرون بعظم جرمه وأنه يستحق من العذاب أكبره .

وقال رجل الاتهام

— كنت قد عزمت أن لا أدعه يدافع عن نفسه فان فى ذلك دفاعا عن الخيانة لا نسمح به ، ولكنى بعد أن علمت من أمره ما علمت أرى أن دفاعه عن آرائه سيكون أكبر دليل على ذنبه ، فليتقدم للدفاع اذ كان له دفاع .

فقال الجندى

— انى لا أعلم أنى خنت أحدا من الناس ، فهل لكم أن تدلونى على رجل واحد خنته . تقولون انى خنت الذين ماتوا تحت أسوار المدينة عبثا ، ولكنى أعتقد أنه لو تم لنا النصر لكان موتهم عبثا أيضا ، فأى خير يجلبونه لنا ، انهم يجلبون لأنفسهم الموت ولأهلهم اليتم والثكل وللآمنين فى ديارهم موتا ويتما وثكلا ، ولا يفيد من ذلك أحد فى روما أو فى المدينة المهزومة الا نفر قليل من الذين لا يتعرضون لخطر ولا أذى بل ينعمون بعد ذلك بكل لذة ومتعة . وحتى المجد الذى يتحدثون عنه لا يصيبه الا قليل من الأحياء . ولو أن الموتى يصيبون من هذا المجد وينعمون به لكان أمرهم مفهوما . أما أن يموت من يموت لينال المجد غيره من الأحياء فأمر لا أفهمه عقلا ولا أرتضيه نفسا .

— ألم أقل لكم انه أصابه نوع من الجنون جعله يهذى كما ترون . دعوه يتكلم حتى تتبينوا جنونه وخيانته وأنه لم يرتكب ما ارتكب الا بعد تفكير طويل ونية مبيتة . يريد أن يغير نظام العالم فيجعلكم والعبيد الأذلاء سواء .

— اننا والعبيد الأذلاء سواء فى العبودية لك ، أنت سيد العبيد تأخذ منهم حريتهم وعملهم . وأنت سيدنا تأخذ منا حياتنا وسعادة ذوينا . ولا يقولن أحد ان علينا أن نستمع الى ساستنا وأولى الأمر منا فى شأن الحروب ، فانهم

أجهل الناس بما يعملون ، وهم ان صدقونا القول لا يريدون الحرب وانما تقع على الرغم منهم ، فوقوع الحرب خطأ من الساسة وليس علينا أن ندفع بدمائنا ثمن أطماعهم وأخطائهم وسوء تدبيرهم وما فى تفكيرهم من التواء وما فى خلقهم من نقص وما فى نفوسهم من أدواء نفسية . اننا لا نقبل منهم أن يدبروا لنا أموالنا دون رقيب . فكيف نقبل منهم أن يتحكموا فى حياتنا دون رقيب ، أليس معنى ذلك أن الأحياء أشد حرصا على أموالهم منهم على حياة الأبطال الذين يموتون دفاعا عنهم . أليس من كبار القواد من يفخر بمهارته والنصر الذي يحرزه ، وتكون خطته قائمة على تضحية أكبر عدد من الرجال ، أليس منهم من ينال المجد بأنه قاتل الى آخر جندى من رجاله ويعد ذلك منه شجاعة ، وهو يعلم أنه انما يعلو بموت غيره ، ويجود بأرواح من هم تحت امرته ، ويكاد يكون على يقين أنه لن يقتل حين يؤسر ، الا أن يغلبه الحياء أو الخوف آخر الأمر فينتحر .

أيها الاخوان انى لم أخنكم ولم أخن أحدا ، ولكنى خنت الظلم والعدوان واستغلال الأقوياء للضعفاء أمثالنا ليزيدوا قوتهم قوة وطغيانهم طغيانا . انى لم أوذ أحدا منكم ، ولكنى حرمتكم أن تقتلوا عددا أكبر من أهل المدينة الأبرياء الذين نصبتموهم لكم أعداء وأنتم لا تعلمون عنهم شيئا ، وحرمتهم أن يقتلوا منكم عددا أكبر ، وحرمت

قادتكم أن ينعموا بأكثر مما ينعمون به من قوة وسلطان عليكم ان كان هناك مزيد من ذلك ، ولا أرى في ذلك خيانة لأحد . ولم أحمل وزرا الا وزر عدم مساعدتهم على ظلم الأبرياء وظلمكم ، ابقاء على ما لهم من سلطان عليكم ، انى بذلك أخدمكم لأنى أخدم الانسانية كلها ، فلو أن كل جيش مهاجم باء بالخيبة لقضى على الحروب كلها من غير شك .

وتهامس الضباط أنه قال أكثر مما يجب ، وأن قوله قد يصيب هوى في نفوس اخوانه ، ولكن القائد سمح له أن يستمر في قوله ، قائلا لهم ان هذا القول قديم منذ قامت الحرب الأولى في العالم ، قاله آلاف المفكرين من قبله ، وسيقوله عشرات الآلاف من المصلحين من بعده ، ولن يستمع الى ذلك أحد وان اقتنعوا به ، فان طبيعة الانسان وقوة النظام لن تجعل هذه الآراء مهما تكن قوتها تمنع حربا ، ولن تحمل جنديا على أن يفضل الموت المحقق خيانة على موت محتمل في الميدان ، ان هذه الآراء لا تقف في سبيل النظام وجبروته الا كما يقف الرجل أمام السيل الجارف الذى يقتلع الصخور والحجارة فان نصيبه الموت حتما مهما يكن في موقفه من بطولة وتضحية .

— قد تقولون ان الحروب ستقع حتما وانه ما دام مثل هذا القول لا يمنعها فمن الخيانة أن نعمل بها ساعة القتال فهى آراء لا تنفع الناس الا اذا أدت الى منع الحروب ، أما

أن يكون كل أثرها أن تفت فى عضد جيش واحد وهو يحارب فان ضررها يكون محققا وخيرها محالا . ويكون النصر كله للمعتدين الظالمين . هذا قول حق ولكن ألا ترون أن الآراء والمبادىء على ضعفها لها قوة ليست للسيف وأنها وحدها تستطيع أن تغلب النظام القاهر الذى لا يقف فى سبيله انسان . وأنا أقدم هذه الآراء بدءا للهجوم على النظم التى ضل بها الناس لعلها أن تتغلغل فى نفوسهم وتؤتى ثمارها وقد لا يكون ذلك الا بعد ألف عام أو يزيد . سيحدث حينذاك أن يبلغ الجندى من الرقى الفكرى ما يسمح له أن يعلم ما فى الحروب من خدعة الحاكمين للمحكومين ، وأن يتبين أن حياة كل فرد أكبر شأنا من أن تضحى لغرض تملونه عليه . سيحدث أن يقف شباب العالم كلهم كتلة واحدة ، يقولون لأولى الأمر ان لكم حدا لا تتعدونه ولا نطيعكم بعده وهو حد الحياة والموت ، ونطيعكم فى ما دون ذلك ، وليس لكم أن تقولوا انكم مخلصون ، وليس لكم أن تحتموا وراء المصلحة العامة والكرامة القومية والمجد ، وليس لكم أن تضحوا بأرواحنا فى سبيل آراء ترونها ، كلها جهل وخطأ ، ولو أنها كانت صوابا واضحا ما جاز لكم أن تبلغوا فى سبيل تحقيقها حد ازهاق أرواحنا .

سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم — أن

لا تعلنوا حربا الا أن يؤخذ فى أمرها رأى الجنود فهم الذين سيقتلون ، وأن يقسم الجنـدى عند التحاقه بالجيش أن لايتعدى حدود بلاده لأى سبب كان ، وأن تحرموا على القادة تحريما باتا أن يتعرضوا لحياة الجنـدى الذى لا يرى أن يحارب خارج بلاده . وان شئتم المزيد فلنعمل ما يعمله بعض أهل البلاد البعيدة الذين يضعون من بيدهم اعلان الحرب تحت قبة خاصة يتشاورون فاذا قرروا اعلان الحرب خدمة للأمة هدموا عليهم القبة وساروا الى الحرب قائلين انها خدمة للامة يجب أن يشترك فيها أولو الأمر والجنود سواء بسواء . ولم تعلن فى تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا القرار .

عند ذلك رأى القائد أنه قال أكثر مما ينبغى وأعلن أن خيانته أمر لم يعد فيه شك وأن الرأفة به أصـبحت مما لا يمكن التفكير فيه .

وكان رأى الحاضرين أن شيئا أصاب عقل هذا الجندى الشاب ، وأنه لا سبيل لتحقيق آرائه هذه على ما فيها من صدق واخلاص ، لأن الأعداء لم يتهيئوا بعد لقبولها ، ورأوا أن من يتمسك بها يكون نصيبه أن يهلكه من حوله من الأقوياء . واستعدوا جميعا لسماع الحكم عليه بالموت ، ولكنهم أصابتهم صدمة عنيفة حين سمعوا الحكم فقد حدد القائد طريقة الاعدام ، وهى أن تربط قدماه ويـداه الى

أربعة من الخيل ويجره كل منها الى جهة . فوجمت وجوه الحاضرين واقشعر جسم المحكوم عليه حتى كاد يسقط على الأرض .

وأخذ الجلادون يعدون العدة لتنفيذ هذا العقـاب ، وجاء أربعة من الفرسان الأشداء ممن ذاع صيتهم وعرفت بطولتهم وشجاعتهم وأخذوا يركضون حول الميدان حتى تنشط خيلهم ، ثم وقفوا وسط الميدان وربطت ذراعا الرجل وساقاه الى الخيل القوية ، ثم ألهبت السـياط ظهورها فاندفعت فى قوة ، وبذلك تمزق جسم هذا الخائن وتناثرت أعضاؤه وسقط جسمه عـلى الأرض ، وكان لذلك كله صوت فزع منه الحاضرون جميعا وأغمض بعضهم عينيه خشية أن يرى ما حدث وكان من أشدهم جزعا القـائد الذى أمر بالقتل ، فقد علق بذهنه هذا الصوت وهـذا المنظر واضطرب له عقله فأصابه خبل خفيف زاد على مر الأيام .

ورأى الناس كيف تكون عاقبة الخائن ، وعرفوا الفرق بين البطولة والخيـانة وبين الشجاعة والجبن وبين القـوة والضعف . عرفوا كل ذلك حين قارنوا بين هذا الخـائن الذى أصيب بمرض الضمير وبين هؤلاء الأبطال الأربعـة الذين قتلوه ممن تفخر بهم روما لما قتلوا من الأبرياء ولمـا ألقوا من الرعب فى قلوب أمم بأسرها .

وانصرف الناس كل الى عمله الذى تعوده كل يوم ، ومنهم الغاضب والحانق ومنهم الراضى والمحبذ . وكلهم يتحدث عن ما وقع أمامهم فى يومهم هذا . ولكن ما لبثوا أن اطمأنوا الى الحياة التى ألفوها من قبل فنسوا ذلك كله وكأنما لم يغير هذا الظلم الفادح من حياة أحد منهم شيئا .

أقبل بعض رفاق الجندى القتيل ممن شاركوه فى أكثر آرائه ، يجمعون أشلاءه من أنحاء الميدان الفسيح ، وأقبلت الكلاب تحدوها رائحة الدم المسفوك . وكادت تأكل من هذه الجثة المقطعة لولا أن ردها هؤلاء الرفاق . فلما حيل بينها وبين ما تأكله منها علا نباحها وهى تنصرف واستجاب بعضها لنداءات الطبيعة المختلفة على مرأى من هؤلاء الجنود فقال أحدهم :

— أيكون من الناس من لا يزيد مقتهم للظلم أو حرصهم على العدل على ما تفهم هذه الكلاب . أيكون من بين من شهدوا هذا القتل من يتمتع الآن بلذاته كما تتمتع هذه الكلاب . أيكون من علية القوم من لا يرى فى قتل هذا الرجل البرىء شيئا أكثر مما تراه هذه الحيوانات العجم . انه انما أطاع ضميره . فعمل خيرا . ولو عملنا جميعا برأيه لقضى على الحروب ولعاش الناس آمنين . انه رأى أن من لم يستطع منع القتال فعليه أن يعمل على أن لا ينتصر فريق على الآخر . ان عمله لم يؤذ أحدا الا من

كانوا يحلمون بالنصر . وهؤلاء المنتصرون يعملون عمل هذه الكلاب فتراهم يقومون على أشلاء الموتى الأبرياء يمرحون وينعمون بثمرة النصر ونشوة النعيم . فهم وهذه الكلاب الضارية سواء . أحق أن من أولى الأمر من يزين للناس هذه الوحشية المنظمة فيقول لهم ان قتل رجل فى سبيل نصر جماعة أو مجد أمة أمر واجب تحتمه النخوة والشجاعة . انى لأرى أن قتل رجل واحد ظلما يعدل مجد أمة بأسرها وعظمة امبراطورية بأجمعها ونعيم سراة الأرض كلهم . ان الجماعة من عمل الانسان ولا ضمير لها . وهى دون الفرد الذى هو من عمل الله وله ضمير يرفعه فوق المخلوقات كلها . وتضحية الفرد فى سبيل الجماعة كفر بالله وسنته والنظام الذى يدعو الى هذه التضحية شر لاشك فيه .

اصعدى روما على جثث الأبرياء من أبنائك وأبناء غيرك . تمتعوا أيها الأحياء بثمرات موت أبنائكم . وهنيئا لكم النظام الذى أباح لأمثالكم أن تقتلوا مثل هذا الانسان الطاهر . وكفاكم رياء ما تدعون من حزن على موتاكم وعطف على جرحاكم . انما تقضون عليهم لتبقوا على ما تتحقق به لذاتكم وتقوى به شهواتكم . وتدعون كذبا أن ذلك خدمة للجماعة وما هو الا خدمة لكم . ألا بئس ما تعملون فى سبيل خرافة المجد التى تدعون اليها .

بيلاتوس

كان بيلاتوس ، حاكم اقليم أورشليم فى ذلك العصر ، رجلا فيه حكمة وسداد رأى . وكان قد ألم ببعض فلسفة اليونان فاستقام تفكيره ، واستمع الى أحبار بنى اسرائيل فطابت نفسه . واهتدى ببعض تعاليمهم فعرف طريق الخير والحق . واعتدل مزاجه فلم يشتط ولم يسرف على من ولى أمرهم من الرومان واليهود . ولكنه مع ذلك ظل متمسكا بما فى خلق الرومان من صلابة وبأس ، فلم يكن ليلين حيث تحسن الشدة ، ولم يكن ليدع رقة قلبه تلهيه عن أخذ رعيته بالحزم حين لا يكون عن ذلك مناص . وكان فى ذلك اليوم مرهق النفس بعد أن حمله بنو اسرائيل على أن يستجيب الى ما طلبوه من قتل رجل لايعلم عنه الا خيرا . وكان يعلم أنهم مخطئون وأنه مخطىء . ولكنه لم يكن يرى أن يعترض على رأى أقروه فى أمر يخصهم وحدهم ، ولم يشأ أن يجعل لهم عليه سبيلا ينتقضون به على حكمه . ولم يكن يرى أن يدع حبه للعدل يعرض ولايته لفتنة يعود شرها عليه ، فاضطر أن يجيبهم الى ما طلبوه ، وهو عليهم ساخط ، ولم يكن عن نفسه راضيا ، وأقلقه الحرج الذى وقع فيه من جراء عنادهم وظلمهم ، وحنق عليهم حنقا بالغا .

وكان بيلاتوس يقدر قائد جيشـــه حق قدره ، وكان يعجبه منه اخلاصه وحماسته فى القيام بما يراه واجبا عليه . وكان يعلم أنه ضيق الفكر محدود الذكاء قليل الحظ من العلم ، وأنه لم يهذب طبعه أدب ولا فلسفة . ولم ينقص ذلك من تقديره اياه ، لأنه كان يعلم أن عظمة جيش الرومان لم تقم الا على ما فى رجاله من صلابة وشدة وقوة ، ولعله كان يرى أن قدرا من الغباوة وجفاء الطبع ضرورى لنمو هذه الصفات ، وأن الذكاء والعلم ورقة النفس قد تذهب بخير صفات الجندى المقاتل .

جاءه رسول من المعســكر ينبئه بما تم فى ذلك الصباح من محاكمة الخائن وقتله ، وقال له ان القائد عاد الى داره فاعترته حمى عالية جعلته يهذى . وان كثيرين يظنون أن ما فعله بالجندى كان سببا فى ما أصابه من حمى مخية ، وان كان بعضهم يقولون انه انما اعترته الحمى التى تعــترى الجنود حين يقاتلون فى المستنقعات وانه لاعلاقة لها بوخز ضميره أو اضطراب نفسه .

وبينا هــو فى قصره يفكر فى أعبــاء الحــاكمين وما تضطرهم اليه حياتهم من ظلم وقسوة اذ قدم عليه صديقه الفيلسوف اليونانى وأخذ يحدثه .

— أرأيت ما فعله قائد جيشك اليوم . علم عن رجل من جنده خيانة فحاكمه وقتله . ولا يعنينى أن يكون حكمه خطأ

أو صوابا ، ولكنه اختار له قتلة شنيعة دلت على غلظةعجيبة وقسوة بالغة . وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أوتى حظا من الفلسفة ، اذن لرق طبعه ، وتهذبت نفسه ، وأصاب القصد فى عمله .

— دعنى من فلسفتك هذه ، فقد وقر فى نفسى منذ اليوم أننا نحن رجال العمل لانجد فيها غناء حين يحز بنا أمر جلل . ان الفلسفة قائمة بذاتها شىء جميل . ولكنا حين يجد الجد لانجد فيها هداية ولا رشدا ، واذا أراد رجل العمل أن يفيد من علم أهل الفكر قامت دون ذلك صعاب كثيرة أصلها مالابد منه من نقل لغة الفكر الى لغة العمل ؛ فان المطابقة بين الألفاظ ومدلولاتها فى كل منها أمر عسير . ذلك أن الفلسفة تقوم على تعريف الأشياء وحكم الفلاسفة على الأشياء فرع من هذا التعريف . ولكن رجل العمل لايدرى ما تعريف عمله قبل أن يقوم به . ولهذا أخفقت الفلسفة فى هداية رجال الحكم الى الصواب ؛ فالشجاعة عندكم مثلا وسط بين التهور والجبن ، وهذا حق لامراء فيه ، ولكنى لا أدرى ولا يدرى قائد جيشى هل ما عمله كل منا فى يومنا هذا يعد تهورا أو جبنا أو شجاعة . والفلسفة لاتدلنا على حقيقة ما نعمل ولا تهدينا يقينا الى التعريف الحق لما نعمل الا بعد أن يتم العمل ، وأكثر أحكامها على الأعمال تحليلية، وعمل رجال الحكم بناء لاتحليل . لذلك كانت هدايتكم لنا ضئيلة جدا .

وليس رجال الدين بأهدى لنا منكم فى حياة العمل . ان حديثهم عن الحق والباطل والخير والشر حديث بديع ما ظل حديثا وعقيدة وايمانا . حتى اذا حان وقت العمل صار كل ذلك غامضا مبهما . ألا ترى أن اليهود وهم أحرص الناس على اتباع تعاليم دينهم القيم يرونأن ايقاد شمعة يوم السبت ذنب كبير ، وأن صلب صاحب الدعوة الجديدة واجب يحتمه الاخلاص للدين والوطن ! ورجال الدين فى نصحهم لنا لايفرقون بين المهم والأهم . والأمور عندهم حلال أو حرام. وليس فى مبادئهم ما يساعدنا على الاختيار بين حلالين أو التفضيل بين أمرين كلاهما حرام حين لايكون عن أحدهما مندوحة .

ان فضائلنا مدنية ، وفضائلكم عقلية ، وفضائل اليهود دينية ، وقد ثبت عندى أن الجمع بين هذه الفضائل محال ، فدعونا ندبر أمرنا على ما تقضى به فضائلنا فنحن أدرى بما يصلح لنا ، أما ما نحاوله من الاهتداء بفضائلكم فلن نجنى منه الا بلبلة الفكر واضطراب النفس وخور العزيمة .

— لا أريد أن أبحث فى الجرم الذى قتل به الجندى، ولا أريد أن أبحث هل كان الحكم عليه ظلما أو عدلا . ولكنى كنت أود أن لا أرى فيكم من تبلغ به القسوة هذا المبلغ من الفظاعة . وكنت أود أن أرى رجالكم أرق قلبا من أن يقطعوا الناس اربا اربا على نحو ما رأيت ، سواء أكان ذلك

عدلا أم ظلما ، ومهما يكن الذنب الذى جنوه . ان عاطفة الرحمة لاتذهب بشيء من قوة العدل ان كان الحكم عدلا . وهى تخفف من وطأة الظلم ان كان الحكم ظلما .

ــ هذا الذى تسميه فظاعة لايعنينى انما يعنينى أنأعرف العدلفأتبعه والظلم فأجتنبه . أما الرقة فىالظلم فهىكالانسانية فى الحرب . كلاهما خداع للناس حتى لايزعج ضميرهمالظلم أو الحرب . كيف يستقيم عقلا أن تظلم رجلا ثم تكون رحيما به حين يقتل ، وتسوق رجلا الى الحرب ليقتل فان جرح أخذتك به الشفقة والحنان . أليس ذلك رغبة منا فى أننخفف عن الناس وقع الظلم أو الحرب عليهم . أليس ذلك كله رياء يخدع به الأحياء أنفسهم حتى لاتثور عليهم ضمائرهم . أنى انما أبغى وسيلة تمنعنى أن أظلم الرعية فان لم أهتد الىذلك فسواء فى الظلم والحرب أن أكون رقيقا أو غليظ القلب .

ــ انك ترغب أن تهديك الفلسفة والعقل هداية محددة فى ما يعرض لك من مشكلات الحكم . ولا أحسب ذلك مستطاعا لأن أمور الحياة والعقل والدين أشد تعقيدا من أن تساس بهذه السهولة ، وتقدير الصواب فيها أصعب من أن يقاس بمعايير بسيطة . والمعايير فيها مختلفة دائما متناقضة أحيانا . ولا يعنى ذلك أن الفلسفة عقيمة حيث يستهديها رجال العمل . ان الفلسفة تهيىء العقل للتفكير الصحيح ، وتقوى فيه صفاته الهادية ، حتى اذا حان وقت العمل كان

الانسان أصوب حكما وأعدل رأيا . فهى مرانة عقلية تعد العقل للعمل الحسن ، وأثرها فى ذلك أكثر من أثرها فى تحديد نوع العمل الذى ينبغى .

— ليس فى ذلك ما يؤكد لى أنها تهدى الى الحق ، فالفلسفة تقوى فى العقل صفاته كلها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وكثيرا ما يكون الشر أغلب . ورجال الدين لهم عليكم أيها العقليون فضل أنهم يرغبون رغبة صادقة فى هداية الناس وتحديد ما يجب أن يعمل وما يجب أن لا يعمل .

— انى لا أنكر عليهم هذه الرغبة فى هداية الناس . ولكنى أعيب عليهم أمورا تتعلق بطريقتهم فى التفكير ، فانهم يلمونه على شعث كثير لا يتعلق بأصول الدين بل هو من عدم مرانتهم على الطريقة المثلى التى حدد معالمها وبين أركانها التفكير الفلسفى ، فهم يقولون بأمور لا يقوم عليها برهان ، وهم يفرضون فروضا كبرى لا مقدمات لها ، وأكبر فروضهم فرض وجود الله فان ذلك حل مشاكلهم كلها . ولكنه لا يزال عندنا فرضا . ثم هم يخلطون بين ما هو عقيدة وما هو حكمة وحسن بصيرة ، ويخلطون بين ما هو دائم وما هو موقت . وهم يحملون ما هو عقلى بحت على ما هو دينى خالص وهم يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرها على أنها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا .

— أتظن أن أثبت علومكم لا يقوم على فروض لم يقم عليها برهان . ان خير العلوم عندكم وأثبتها هو الهندسة وقد بناها اقليدس كلها على فرض لم يقم عليه برهان ، وهو أن المتوازيين لايلتقيان ، ولم يثبت ذلك بل اكتفى بقوله انهما اذا التقيا لا يكونان متوازيين ، وعلى هذا الأساس الواهى قام علم هو عندكم أثبت العلوم ألا ترى أن هذا الأساس أوهى من خيط العنكبوت ، وأنه فرض طفلى اذا قيس بعظمة الفرض الدينى الأول وهو وجود الله ، فان له أصلا ثابتا فى النفس الانسانية ولنا من شعورنا النفسى ما يدل على صدق هذا الفرض ، وليس للفروض العلمية شيء من ذلك ، واذا كان الفرض الهندسى يثبته صدق نتائجه والخصب الذى جعله يثبت حقائق عدة لايمكن أن تقوم على باطل ، فان فرض وجود الله فرض خصب جدا يرجع اليه كل ما فى الانسانية من خير وجمال وروعة تجعل صدق الفرض أمرا محتوما عقلا .

— انى لا أعيب عليهم فرض وجود الله ولكنى أعيب عليهم خلطهم بين أمور العقيدة وامور الفعل .

— سمعت من قيافا أن رجال الدين مضطرون أن يملأوا فراغا فى نفوس الناس أصله نقص فى نمو عقولهم وأنهم لايرون بأسا أن يدعوا للعقل كل ما يتعلق به حين يستطيع أن يحمل العبء وحده .

— انهم وضعوا للناس بعملهم هذا مشكلة كبرى سينوءون بحملها قرونا طويلة حين يضطرون الى التمييز بين الأمور العقلية والدينية التى خلط بينها أمثال قيافا حين رأوا هذا الرأى ، وسيسمون ذلك مشكلة الدين والعقل . وليس لها من أصل الا هذا الخطأ فى التفكير . ان الحقيقة فى غنى عن كل هذا الاضطراب .

— أراك لاتزال تسعى الى معرفة الحقيقة ولا أريد أن أجعلك تعدل عن هذا البحث ، أما أنا فانى أبحث عن الهداية، وقد كنت أحسبنى سأبلغها عن طريق الدين ، أو الدين والعقل. ولكن ما فعله بنو اسرائيل اليوم باسم الدين قضى على كل أمل لى فى الهداية . ولن أسعى اليها بعد اليوم وسأظل رومانيا خالصا أعمل ما تمليه على مبادىء قومى وتاريخهم واجماعهم

— ولم كل هذا اليأس ؟ ان الحياة والعقل والدين ميادين للانسان كلها حق وكلها جميلة رائعة ، واذا كان التوفيق بين ما يتطلبه كل منها محالا . واذا كان أحد لم يستطع حتى الآن أن يجعل منها وحدة تمثل الانسانية فى أرقى مظاهرها . فلعل العصور القادمة تستطيع ما لم نقدر عليه فى عصرنا هذا .

— هذا حلم جميل أرجو أن يحقق وكنت أحلم به قديما ولكنى اليوم غيرى بالأمس . فاعلم عنى أنى سعيت الى الهداية جاهدا فأخفقت ولم أعد أرى سبيلها واضحا . أما

أنت فانك لاتعنى الا بالبحث عن الحقيقة وانى لأرجو أن لاتبوء بمثل ما أصابنى من الخيبة والقنوط .

ورأى الفيلسوف أن بيلاتوس نكب فى نفسه نكبة كبرى حين أطاع بنى اسرائيل وأن محنته هذه حملته على اليأس ، وأنه لم يعد يرى الا ما يراه الرومان من الايمان بالحياة ولذاتها ، وأنه لم يعد يؤمن بقوة الدين ، ولم يعد يؤمن بقوة العقل على هداية الناس .

وذهب من فوره الى جبل كالفارى ، ليرى نهاية هذا الأمر الذى حمل صديقه على الكفر بكل ما كان يؤمن به ، وبلغ قمة الجبل قبيل الظهر .

وبعد قليل أظلمت الدنيا .

ثم أظلمت الدنيا

كان الوقت ظهراً وكانت السماء صافية . ثم تجمعت السحب الثقال من كل صوب فى دقائق معدودات ، وخيم الظلام على أورشليم واشتد حتى أصبح الرجل لايرى يده اذا مدها أمامه ، ونزل البرد وهبت رياح هوج عصفت بالمدينة فاقتلعت بعض أشجارها . ولم يكن لأهل أورشليم عهد بمثل ذلك فى هذا الوقت من السنة ، ولم يذكر أحد أنه رأى عاصفة مثلها الا قليلا من المعمرين قالوا — وما أكثر ما يقول المعمرون — انهم رأوا مثل ذلك من قبل .

أظلمت الدنيا ساعات ثلاثا .

وحسب الناس هذه الساعات الثلاث دهرا لاينقضى ، وسادهم الخوف والاضطراب ،و جزعوا من أمر هذا الظلام وكان بنو اسرائيل يعلمون أن الله أهلك أمما قبلهم بمثل هذه الريح وهذا الظلام ، فظنوا الساعة قائمة ، وذكروا حينذاك أنهم اقترفوا من الذنوب ما يصح أن ينزل بهم غضب الله من أجلها ، وذكروا أنهم حين لم يحل بهم عقاب على ذنوبهم أسرفوا وازدادوا اثما ظانين أن عذاب الله بعيد ، وأيقنوا أن اليوم يوم الجزاء الأكبر .

وعبثا حاول الجنود الرومان أن يخففوا من وقع هذا

الحادث الغريب ، وقالوا لهم انهم يعرفون بلادا نائية يقع فيها مثل هذا الظلام كثيرا ، وانه أمر مألوف عندهم لايعدونه نذيرا بعذاب ولا علامة من علامات الساعة ، وان كانوا لم يعلموا ما هى الساعة . وأخذ الرومان يضحكون ويسخرون من هؤلاء القوم الرعاديد الذين يرون فى كل شىء خطرا يؤرقهم ، وفى كل حادث طبيعى نذيرا يزعجهم ، كأن أسرار العالم كلها لم تخلق الا لبث الرعب فى نفوسهم .

والواقع أن الناس حين يفجؤهم حدث طبيعى يجهلون مداه وكنهه فريقان ، فريق لا يضطرب ولا يجزع ولا يهرب، وهم الأقلون . وفريق يجزع جزعا شديدا وهم الأكثرون ولا يرجع موقف هؤلاء وهؤلاء الى الشجاعة أو الجبن ، ولكنها طبيعة الانسان حين يواجه بمجهول عنيف ، ويختلف ذلك اختلافا تاما عن موقفهم من خطر معروف . فقد يكون أشجع الناس وأشدهم اقداما على قتال أضعفهم قلبا حين يلم به ظلام دامس أو خطر غير معروف ، ويتبين ذلك واضحا عند الأطفال ، فمن صغارهم من لايخشى ما يجهل ويقدم عليه ، على حين يكون أخوه أشد ما يكون رعبا ، وكلاهما طفل لا يفهم شيئا مما يعمل . وقد شاهد الناس كثيرا من ذلك فى أطفالهم عندما توالت الغارات الجوية فى الحرب الأخيرة .

ثم اشتدت الرياح وثارت العاصفة وسمع لها صوت

أرهب أهل أورشليم فلزموا بيوتهم ، وخلت الشوارع من الناس . وكان الظلام على أشده فوق جبل كالفارى ، وكان عند قمته التى تسمى الجلجوتا أى الجمجمة خلق قليل ، كان هناك عدد من الجنـود الرومان يمرحون ويضـحكون ويتسامرون قبل أن ينزل عليهم الظلام ، وكان هناك قليل من النسوة الصالحات اللائى آمن بالمسيح جئن تنظرن الى سيدهن ونبيهن قبل أن ينتقل الى غير هذه الدنيا ، وكان هناك رجل من أهل أورشليم أهمه أمر دينه فجاء يرى نهاية البدعة ، ويشهد القضاء على الفتنـة وصاحبها ، وكان قد سبق له فى الصباح أن جادل التاجر المصاب وخرج من عنده غاضبا على الطغمة الكافرة ، وكان هناك الحكيم الماجى الذى آتاه الله من العلم ما لم يؤت غيره وكان قد ترك الحواريين يرحلون الى الجليل وجاء يشهد أفول النجم الذى اهتدى بنوره الى بيت لحم منذ نيف وثلاثين عاما ، وكان هناك الفيلسوف اليونانى وتلك الراعية الصغيرة وأغنامها ، وكانت أشـد الحاضرين قلقا واضطرابا حين حل الظلام فجاءة فصرخت صرخة عالية وأجهشت بالبكاء ، ودل ذلك الحاضرين على مكانها فأقبلوا صوب هذا الصوت يستطلعون خبره .

وكان أقربهم اليها الفيلسوف اليونانى ، فسـألها عن سبب بكائها فقالت انها لن تستطيع العودة الى خيامها بعد أن حل هذا الظلام ، وان أباها سيضربها حين يرى أنها لم

تعد اليه قبل مغرب الشمس . فلما قال لها ان هذا الظلام ليس ظلام الليل لم يهدأ روعها وقالت اذن هذا الظلام هو ما كانت تخبرني به أمي ، وكنت اذا خالفت لها أمرا تقول لى ان العفاريت ستخرج على فى ظلام حالك ثم تنقلنى الى أرضها التى تسكنها ، وكنت أعصيها فلا يقع شيء مما تقول ، وكنت أيقنت أن قولها تهديد لا أصل له ، ولكن ها هو ذا الظلام الذى حدثتنى عنه وستأخذنى الجن الى حيث لا أعود .

وأقبل الجنود الرومان . فلما سمعوا هذا الحديث ضحكوا سخرية من هذه الطفولة الساذجة ، وقالوا انهم يعرفون هذا الظلام معرفة تامة ، وانه سينقشع عما قريب ، فيعودون جميعا الى منازلهم على خير ما يكونون .

وجاءت النسوة المؤمنات الى هذه الفتاة التى كانت ترتعد رعبا ، ولما أحست بهن اطمأنت اليهن أكثر من اطمئنانها الى رجال غرباء ، وأخذن يهدئن من روعها وقلن لها ان هذا الظلام لا شأن له بالجن ولا بمخالفتك أمر أمك ولن يصيبك منه ضرر . وكان قد وقع فى نفوسهن أن سبب هذا الظلام ما ارتكبه الناس من ظلم فادح للرسول الطاهر الذى حكم عليه فى يومهم ذلك ، وكن لا يشككن أن الله يسخر الظواهر الطبيعية ليتعظ بها الناس فلا يقدموا على الشر ، وأنه لولا ذلك ما ارتدع أحد عن ارتكاب المنكر ، وأن هذه سنة الله وطريقه الى الابقاء على بعض الخير بين الناس فتستقيم أمورهم.

وكان اليهودى الذى معهم يظن أنه فعل خيرا حين قاوم البدعة الجديدة بقوة وعنف ، وفرح لأنه سيشهد القضاء عليها بنفسه ، فلما أظلمت الدنيا اضطرب وجزع جزعا شديدا ، لأنه كان يعلم أنه من الذين أرهقوا النبى الجديد بالتعذيب والتكذيب ، وقال لنفسه : انى من الآثمين الذين أراد الله عقابهم فأرسل لهم هذا الظلام نذيرا . وناهيك بالنبى الذى يرسل الله الصواعق على الناس من أجل ظلمهم اياه . ان بنى اسرائيل قتلوا الأنبياء من قبل فلم تنزل عليهم آية كهذه الآية . وأخذ يفكر فى أمر هذا النبى وأنه لابد أن يكون فوق أنبياء بنى اسرائيل قدرا . وحل بقلبه الايمان ، وندم على أنه لم يكن أكثر حصافة وحكمة من قبل .

أما الجنود الرومان فلم يحاولوا أن يفهموا مغزى هذا الظلام ، فهو عندهم سحاب يغطى الشمس لاحاجة بهم الى أن يبحثوا عن مغزى له .

أما الحكيم الماجى والفيلسوف اليونانى فقد استمعا الى كل ذلك وسأل ثانيهما أولهما عن رأيه فى هذا الظلام ، وأخذا يتجادلان فيه ، وطال أمد الظلام وامتد بهما النقاش

قال الحكيم الماجى :

— انى أعلم من احداث هذا اليوم مالا تعلمون . أن الله رافع السيد المسيح اليه . وهو نور الله فى الأرض فلما أبى أهل أورشليم الا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا . وهذا

الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم نور الايمـان وهدى الضمير .

— هذا شعر ورمز . ولا علاقة له بالحقيقة وليس عليه برهان .

— أى حقيقة تعنى وأى برهان تنشد . أتريد أن آتيك برجل أو جماعة ثم أقتلع منهم الايمان والضمير فيحل عليهم الظلام . أتريد أن لاتقتنع الا بهذا النوع من البرهان .

— أريد من كل انسان دليلا على صدق ما يعتقد وصواب ما يرى . ولا يقولن لى أحد أن الحقيقة نسبية أو متغيرة أو أن هناك حقيقـة لاتثبت بالبرهـان . تلك فوضى التفكير . وهى تؤدى حتما الى حال تستوى فيها الخرافات والعقـل والدين وأنت تفرض وجود عامل معنوى فى حادث هـذا الظلام وهو أمر مادى بحت . وليس لك ذلك الا أن يعجز التفسير المادى عن ايضاح أصله وعلته . وهـذه الراعية المسكينة تفرض وجود عامل معنوى آخر . ولا بد لى من مقياس العقل أعرف به أن رأيك يرجح رأيها فانى لا أريد أن أومن بخطأ .

— يعنينى أولا أن تكون من المؤمنين سواء أكان ماتؤمن به خطأ أم صوابا . فالايمان هو الاحساس الذى يستطيع به الانسان أن يتبين معنويات ما يحدث حوله ومغزى ما يقع له. فان كنت ممن يرون أن بين المنوبات والماديات صلة ما فأنت

من المؤمنين والمؤمنون وغير المؤمنين يكادون يكونونجنسين مختلفين من البشر بصرف النظر عن ما يؤمن به المؤمن وما يكفر به الكافر .

— أني لا أرى صلة ما بين المعنويات والماديات ولا أستطيع أن أفهم عقلا كيف يكون الكفر سببا فى تجمع السحب فى السماء .

— الايمان بوجود الأشياء لايتعلق بفهم كنهها وحقيقتها عقلا . وليس لك أن تنكر ما لايدركه العقل . ألا ترى أن بين البرق والرعد وانهمار المطر سببا وأن لم تفهمه وقد تفسره الخرافات خطأ وقد يفسره العلم خطأ أو صوابا وقد يكون غاب عنا أصل ذلك كله ولكن وجود السبب أمر لاشك فيه .

ثم ان عمل المعنويات فى الماديات أمر مألوف على نحو ما. ألا ترى أن الخجل وهو أمر معنوى خالص يسبب حمرة الوجنتين وهى أمر مادى بحت يحدث فى الخجل وغير الخجل كالحمى وقد يكون طبيعيا أحيانا . والتفسير المادى كاف جدا لشرحه ولو وقفنا عند منطقك لأنكرنا علاقة الخجل بحمرة الوجنتين . والخجل أثر من آثار التربية والعادات والصلة بين هذه وتمدد أوعية الدم فى الوجه بعيدة جدا . ولو انك حاولت أن تقنع فتاة من عادتها العرى أن العرى يسبب حالة نفسية عند الفتيات الخفرات من قومنا تؤدى الى حمرة

الوجنتين لعدت ذلك رمزا وشعرا ولحسبته لايكون حقيقة

ألا يمكن أن تكون المعنويات والماديات نتيجة لحالة واحدة كما يكون الرعد والبرق والمطر نتيجة لحالة واحدة وهل تجد من المستحيل أن تتصور أن تجمع السحب واشتداد العاصفة مرجعه الى ارتفاع المسيح الى السماء كما يكون صعود الدم الى الوجنتين مرجعه الى نشأة الفتاة وتربيتها . أن انكار الأسباب المعنوية لما هو مادى قد يفوت علينا فهم أهم عناصر الحقيقة فيه .

— أن ايمانى بوجود صلة ما بين ارتفاع المسيح الى السماء وحلول هذا الظلام لا يزيد فى علمى بحقيقة هذا الظلام . ذلك أنى لا أرى لرأيك فضلا عن رأى هذه الفتاة الجاهلة ما دمت لاتقبل العقل حكما بينكما . ولا أعرف مقياسا للخطأ والصواب غير العقل . وأراك لاتحتكم اليه فى امور الايمان ولم تستبدل به حكما آخر . وأراك تلجأ الى الرمز فى تفسير الحقيقة والاسراف فى الرمز يدعو الى الشطط ولو تركنا لخيالنا العنان يتصور من العلاقات بين الامور ما يشاء لعمت الفوضى وضاع الحق .

— كل ما أريده أن تؤمن أن هناك قوى تعمل فى حياتنا لانفهم كنهها ولا نستطيع أن نفهمها الا اذا استطاع الحيوان المذبوح قربانا الى الله أن يفهم أن سبب ذبحه التعبد والتقوى والتكفير عن ذنوب من ذبحوه .

فاذا آمنت بوجود هذه القوة المعنوية وأنها تؤثر فى حياة الناس فأنت عندى أشد ايمانا من الذين لايؤمنون الا تقليدا. أما تحديد الخطأ والصــواب فى ما نؤمن به فانه يرجع الى المؤمنين وحدهم يقيسونه بمقياس الايمان نفسه . ولو أن الايمان دخل قلبك لسهل عليك أن تعرف الخطأ والصواب فى ماتؤمن به .والأيمان لا ينقص من فضله شيأ أن يكون موضعه خطأ .

ألا ترى أن الحيوان غاية فهمه الالهام ولما كان العقل فوق الالهام فان الحيوان لايستطيع بالهامه أن يتصور العقل أو يفهم كنهه . كذلك الانسان غاية فهمه العقــل ولما كان الايمان فوق العقل فان الانسان لايستطيع بعقله أن يتصور الايمان أو يفهم كنهه .

— ومن الذى وضع الايمان فوق العقل .

— هذا واضح . ان الايمان لايكون الا فى العقلاء . أما العقل فيكون فى المؤمنين وغير المؤمنين وهذا يعنى فى الترتيب الطبيعى أن الايمان فوق العقل . وهذا لايعــنى أن الأول يمحو الثانى بل يدل على أنه قد يكون فى الايمان مالايستطيع العقل أن يكون حكما فيه .

— كل هذا يزيد الامور غموضا . ألا ترى أن ما حدث أمامنا اليوم من الصلب وحلول الظلام أمور محددة يجب أن تكون الحقيقة فيها واحدة واضحة محددة .

— كيف يكون ذلك . لو أنك ســألت كل واحد ممن

شهدوا هذه الأحداث لأكد لك حقيقة كاملة ثابتة تختلف عن الحقيقة الكاملة الثابتة التى يؤكدها الآخرون .

لو سألت جزئيات هذا الحجر وذراته عن ما حدث اليوم لأخبرتك أن شيئا لم يحدث مطلقا . وذلك لأن القوانين التى تخضع لها الجزئيات والذرات لاتؤهلها لمعرفة وجود الظلام أو الموت . فهى حين تقرر أن شيئا لم يحدث تقرر الحقيقة كاملة ولو قررت غير ذلك لكان تخيلا وكذبا .

ولو سألت أوراق الشجرة عن الظلام لأخبرتك به فهى تتأثر بالنور والظلام ولكنها لاتعرف شيئا عن سببه. ولو سألتها عن الصلب لاخبرتك أن شيئا لم يحدث لأنها لاتفهم قوانين الحيوان وهى فى كل ذلك تقرر الحقيقة كاملة ثابتة .

ولو سألت الأغنام لقالت لك ان هذا الظلام هو الليل . وها هى ذى قد أعدت نفسها له . ولو سألتها عن المصلوبين لقالت انهم ماتوا وعلقوا كما مات اخوة لها من قبل وعلقوا . فهى ترى أن ما أصابهم هو الموت المألوف . ولا تستطيع أن ترى فى أمرهم شيئا غير ذلك لأنها لاتفهم العقاب ولا الظلم وليسا عندها من الحقيقة فى شيء .

ولو سألت الجنود الرومان عن الظلام ما رأوا فيه الا ظاهرة طبيعية . ولو سألتهم عن الصلب لقالوا انه عقاب على جرائم ارتكبها المصلوبون فمنهم لصان وثائر على قومه . فهم يفهمون الجريمة والعقاب ولكنهم لايفهمون التكفير أو الفداء .

ولا يغرنك غزارة علمك وقوة تفكيرك فانك لاترى فى ما حدث الا ما يستطيع أن يراه هؤلاء الجنود وان كنت أسلم منهم تفكيرا وأنفذ بصيرة . ولاشك أن رأيك أقرب الى الصواب مما يراه هؤلاء لجهلهم ولكن الجهل والعلم والذكاء لاتعين نوع التفكير الذى يحـدد ما يستطيع كل انسان أن يبلغه فى تقريره الحقيقة .

أما أنا وهؤلاء النسوة المؤمنات وهذه الراعية الصغيرة فلنا شعور خاص يدفعنا الى البحث عن مغزى ما حدث وعن معنويات ما وقع . وقد نخطىء ونصيب وقد نكون دونك فى كل ما يتعلق بالعقل ولكن قدرتنا على الشعور بالمعنويات تكسبنا قوة ليست لك وليس لك أن تحكم على ما نؤمن به أنما يكون ذلك الينا نقيسه بمقياس الايمان وحده .

ــ كأنك تريد أن تقول ان الحقيقة مرهونة بما فى طباع المقررين لها من القدرة على التأثر بالقوانين المختلفة طبيعية كانت أو حيوانية أو انسانية . وان ذلك لا يتعلق بالذكاء أو العلم أو صواب مذهب التفكير . هذا رأى لم أسمع به فى ما بين يدى من المذاهب الفلسفية .

ــ ان المذاهب الفلسفية حق حين تتناول ما تفهم ومن عادة العقليين الانكار وهو خطأ .

وأشد من هذا خطأ أنكم لاتريدون أن يؤمن الناس بالله حتى يفهموا صفاته عقلا . ولا تريدون أن يهتدى الناس بشىء

حتى يتبينوا ماهية هذه الهداية . وهذا منكم عجيب ، كأنكم تريدون أن لايستخدم الناس النار للدفء حتى يعلموا طبيعتها . وأن لايهتدوا بالنور حتى يفهموا حقيقته . وأن لايستخدموا السفن حتى يعرفوا قوانين « آرشميدس » . أليس ذلك يكون خبالا . أترى أن البحار الذى ينظر الى السماء فيقول هذا يوم نوء لا أخرج فيه يعد مخطئا لأن قوله ليس عليه برهان . انه يبنى حياته على خبرته . والخبرة الانسانية برهان صدق فى الأمور الانسانية . البحتة ونحن المؤمنين نقول للعقليين دعوا الناس يهتدوا بالله ، ولا تقفوا بهم دون هذه الهداية حتى يفهموا عقلا كنه الصلة بين الله والناس . ولاتشككوهم فى المعنويات الى حين يتبين الناس عقلا ما بين المعنويات والماديات من علاقة . ولا تحرموهم مزايا الأخلاق الى أن يفهموا كنه العلاقة بينها وبين قوانين الحياة كما نراها فى الحيوان . ومن العقليين من ينكر كل ما هو انسانى محض لأنهم لايعدون شيئا طبيعيا الا اذا كان له مثيل عند الحيوان . وهو قول واضح البطلان . مثلهم مثل الشجرة تعد الحركة فى الحيوان شيئا غير طبيعى لأنه ليس له مثيل فى النبات . ان الانسان من أخص صفاته الاحساس بالمعنويات والايمان بها وهو الجزء من الانسان الذى هو فوق الحيوان ، وليس لنا أن ننكر المعنويات اذا كان سبب انكارها أن الحيوانات لاتخضع لها ولا تعرفها . ولعل التوراة حين قالت عن آدم انه أول انسان لم تقصد الى أنه أول من مشى على رجلين بل

لعلها تعنى أنه أول من أدرك الخطيئة وأول من أحس بأثر الضمير فأصبح بذلك انسانا . هذه روح الله التى نفخها فيه فأصبح بنعمته قادرا على الايمان وعلى أن يخلف الله فى الأرض . هذه أخص صفات الانسانية .

— لو انكم قصرتم الايمان على التصديق بالمعنويات والضمير والله ما وجدنا ذلك علينا عسيرا ، ولكنكم تريدوننا على أن نجعل بين ما هو فوق الانسان وما هو دونه صلة ، وتؤكدون أن بين خلق القمر والنجوم وبين الضمير والأخلاق سببا ، وترجعون ذلك كله الى الايمان ولا يتم الايمان عندكم الا بهذا الجمع بين ما هو مادى وما هو معنوى وبين ما هو من عمل العقل وما هو من عمل الضمير .

— لعل أصل ذلك موسى عليه السلام فقد بلغ من صفاء النفس أن يتحدث الى ضميره حديثا صريحا لا لبس فيه فتجلت له حقيقة ما فوق الانسان على نحو لم يسبق لغيره من الناس. ولكنه لم يكن نبيا فحسب بل كان حكيما وكان حاكما . فهداه عقله الجبار أن بين هذه الحقيقة العليا وبين الحكمة وبين الشرائع التى يجب أن يسير عليها الناس صلة . ورجح فى نفسه أن أصل ذلك واحد هو الله . ولم يجد عقله فى ذلك غضاضة . فقد رأى النور والدخان والبخار والانفجار والدوى وذوب المعادن على اختلافها ترجع الى أصل واحد هو النار . ودعا الناس الى الايمان بالله فهو أصل كل ما نراه فى الكون .

— أراك تعود الى الرمز والتشبيه ولهما حد فى تبيان الحقيقة . والاسراف فيهما يعرضنا للخطأ .

— ليس الرمز عيبا فى التفكير فهو السبيل الوحيد الذى يستطيع به الانسان أن يعبر لنفسه ولغيره عن المعانى التى لاتقع تحت حسه .

— انى ما زلت أبعد ما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم .

— لا عليك من ذلك ! ستظل أحداث هذا اليوم موضع جدل بين الناس قرونا عديدة . وسيظل الخلاف قائما بينهم فى فهم حقيقتها ومغزاها وسيظل الايمان بها أو الكفر بهـا حدا فاصلا بين طائفتين من الناس احداهما مؤمنة والأخرى كافرة . ولست وحدك عاجزا عن فهمها .

ورأى هذا الفيلسوف أن العلم بالحقيقة فى أبسط الأمور عسير جدا . وأصابه من اليأس ما أصاب بيلاتوس . وعلم أن الحقيقة والهداية كلاهما بعيد المنال . واضطربت نفسه وحزن حزنا عميقا حين أدرك أن سعيه وراء الحقيقة انما هو سعى وراء سراب صوره له عقله وأن الواقع أنه ليست هناك حقيقة من النوع الذى كان ينشده .

وأخذ الظلام يخف رويدا رويدا حتى ظهرت الشمس ثم سطعت على ما كانت عليه قبل الظهر .

فرحوا جميعا حين عادت الشمس ، وأسرعت الراعية الصغيرة الى أغنامها ، وسارت مسرعة الى دارها ، وكانت

فرحة أن الجن لم يختطفوها حين أظلمت الدنيا ، وعزمت أن لاتعنى كثيرا بتهديد أهلها .

وانقضت الساعات الثلاث ، وبقى كل من الحاضرين على ما كان عليه من عقيدة ، ولم تغير هذه الآية شيئا من موقف أحد منهم ، فبقى الكافر على كفره ، والمؤمن على ايمانه ، والجاهل على جهله . ظل الحكيم الماجى على رأيه أن الظلام له بالضمير صلة ، والمؤمنات على أن الظلام مرجعه الى ظلم اليهـود للنبى ، والرومان على أن ذلك كله شيء طبيعى ، والفيلسوف على أن انقشاع الظلام يمنع أن يكون سببه الظلم ، فان الظلم قائم والظلام قد انقشع ، وظلت الفتـاة الراعية على شكها فى أن الجن سيخطفونها يوما . ولم يغير أحد من عقيـدته الا ذلك اليهودى الذى حضر ليشهد مصرع الضلالة ، فقد آمن أن الدين الجديد ليس بدعة ولا فتنة ، وعاد الى داره وهو مؤمن بالسيد المسيح .

هكذا آيات الله لاتهـدى الا من به اسـتعداد نفسى للمؤثرات الدينية فهو مؤمن بطبعه ، ومن السهل أن يخرج من الايمان بالخطأ الى الايمان بالصواب . أما حيث يكون الرجل غير معد للايمان فان الآيات لاتؤثر فيه . هكذا نرى آيات الله لا تصلح الا من فى طبعهم الايمـان ومن تكون أنفسهم مهيأة للاحساس الدينى والشعور بالمعنويات .

عود الى موعظة الجبل

أسرع الحكيم الماجى الى الجليل ليلقى الحواريين حيث واعدهم . ولما جاءهم قبيل المغرب وجدهم يتعبدون ويصلون وهم لا يكادون يعلمون ما يفعلون ، ووجدهم على أشد ما يكون الانسان من اليأس والألم ، وزاد حسرتهم ماشاهدوه فى طريقهم من الظلم وما غشى المدينة من ظلام . ولم يكن من شأن هذا الظلام أن يخفف عنهم ألم الوزر الذى حملوه عن أنفسهم وعن الناس جميعا حين تركوا المسيح يعذبه الجاهلون .

وأقبل عليهم يقول :

— ما بالكم لايزال الحزن يفتت أكبادكم ، ان كنتم تحزنون من أجله فان الله قد رفعه اليه ، ذلك أمر لاريب فيه ، وسيأتيكم نبؤه عما قريب ، وان كنتم تحزنون لما وقعتم فيه من تقصير فاعلموا أن الله غفر لكم ذلك من أجل طاعتكم ، ولأنكم لم تعترضوا أمر الدين بالدعوة الى السلام . واعلموا أن الله ادخركم للتبشير بالدين الجديد . وان كنتم تحزنون خوفا أن ينقرض هذا الدين من بعده فاعلموا أنه سينتشر على أيديكم أنتم ومن يأتى بعدكم حتى يبلغ أقصى الأرض . واذا بقيت فيكم بقية من هذا اليأس فانكم ستعجزون عن القيام بواجبكم المقدس ، وتكون معصيتكم أكبر وأخطر .

ان السيد المسيح يأمركم أن تنتشروا فى الأرض ، تدعون الى الدين الذى علمكموه وعليكم أن تستمدوا منه القوة الخارقة التى أنتم فى أشد الحاجة اليها للقيام بهذه الدعوة . وأنتم فى حاجة الى ما يهديكم الحكمة ، ويعلمكم الصواب فى ما أنتم قادمون عليه . وانكم لتجدون الهداية كلهـا فى موعظة الجبل ، فعليكم أن تعوها حق الوعى ، وأن يكون ايمانكم بها وطاعتكم لأوامرها أسمى مما يراه عامة الناس ، وستظل الموعظة عند أغلب المؤمنين مثلا أعلى لايتفق تحقيقه الا للقليلين ، وسيلتمسون الأعذار للخروج على أوامرها حين تثقل عليهم وطأتها . والواقع أن الله علم ما فى الناس من ضعف فخفف عنهم ، ولو كان فيهم جميعا صفاء النفس الذى أراه فيكم لحملهم على خطة أهدى ، ولأمرهم بما هو عليهم أشد وأقسى . أما أنتم فيجب أن يكون ايمانكم بها أعمق وأقوى مما هو فرض على عامة الناس ، وعليكم أن تفهموها الفهم الحق ، وأن تتبعوا تعاليمها فى أسمى ما تدعو اليه ، وأن لاتقنعوا بما تستطيعه طباعكم . وانكم لتذكرون يوم سمعت معكم أنا واخوانى هذه الموعظة فوق الجبل أول مرة. فلما عدنا الى بلادنا محصناها تمحيصا ودرسناها درسـا عميقا فتبينت لنا فيها عبر ومواعظ ، وأريد أن أحدثكم اليوم عن ما أدى اليه بحثنا فيها .

يأمركم الشرع أن لاتقتـلوا ، وتأمركم الموعظـة أن

لاتغضبوا فان الغضب يدعو الى البغضاء والشر ويؤدى الى القتل والأذى . الا أن عليكم أن تعلموا الناس أن من ساق رجلا غيره الى قتل رجال آخرين فقد قتله وقتلهم ، والقتل أو الايذاء لا يكون خيرا أبدا ولايسوغه مقصد مهما يكن ساميا . سيقول الناس ان القتل حلال حين يكون قطعا للفتنة والفساد ، ألا فاعلموا أن الله ورسله وحدهم يعلمون ما هو فتنة وما هو فساد ، وليس لرجل لا يوحى اليه أن يحكم على أمر أنه فتنة تدعو الى القتل ، وليس لأحد من التفوق على غيره ما يجعل أمره بالقتل صوابا ، وليس لأحد من الحكمة والعلم بالغيب ما يحل له أن يحمل الناس على الموت من أجل رأى رآه .

سيحل الناس القتل والايذاء بدعوى الدفاع عن الدين وحماية العقيدة حينا ، وبدعوى الدفاع عن الوطن والنفس حينا آخر ، ألا فاحذروا الأمرين . ان من حمل السلاح أو آذى الناس دفاعا عن الدين فقد وضع الدين فوق الله الذي يأمر بالحب لا بالقتل ، والله كفيل بحفظ دينه وليس فى حاجة الى عبيد خاطئين ينقذونه ، وليس لأحد من العصمة ما يجعل رأيه فى زيغ العقيدة صوابا لا يأتيه الباطل الى حد يسوغ فيه القتل . ان الذين يدافعون عن الدين بايذاء الناس انما يدافعون عن رأيهم وحدهم ، بل أكثرهم انما يدافع عن حقوقه ومزاياه ، ويتخذ الدفاع عن العقيدة عذرا يعتذر به .

أما الدفاع عن الوطن بالاعتداء على الأعداء فهو باطل يزينه للناس رجال أخطأهم التوفيق ، ولو كانوا أكثر حكمة لجنبوا قومهم الموت فى سبيل أخطـاء ارتكبوها . والذى يسوق قومه الى الحرب انما يقتل قومه قبل أن يقتل أعداءه، وكلا المتقاتلين يظن أن عدوه المعتدى ، وأنه هو الذى يدافع عن نفسه وعن وطنه ، وهو وهم يخدعهم به رجال بين أمرين اما أن يكونوا لا ضمير لهم ولا رادع . واما أن يكونوا جهلاء مخطئين . والقتل يدعو الى الثأر والمتقاتلان أحدهما مهزوم حتما فالشر جزء منه لا يتجزأ ، فان الظلم يقع على المهزوم لامحالة ، والمنتصر لا يستطيع العدل ، وظالم العدو تقوى شهوته الى الظلم فيظلم أهله بعد النصر . ولن تجد قوما ظالمين لأعدائهم ثم يظلون عادلين بين قومهم . ومن أراد أن يعود ساسته العدل فليمنعهم أن يتعودوا الظلم بالاعتداء على من يظنونهم أعداء . والدفاع عن النفس لا يكون حلا للرجل الا اذا وقع عليه الاعتداء مباشرة ، أما دعوى الاعتداء العام على أمة أو بلد فهى دعوى باطلة لاتسوغ حمل الناس على القتل الجماعى كما نراه فى الحروب .

ان لله وحده الحق على الانسان أن يسلبه الحياة أو يلحق به أذى فى نفسه ، وليس لانسان أن يكون سببا فى موت أحد أو ايذائه كائنا ما يكون السبب ، فذلك اعتداء على حق ليس لغير الله . واذا كان الانسان لايستطيع أن يرد

الحياة الى أخيه اذا فقدها ، ولا يستطيع أن يهبه الصحة اذا حرمها ، فليس له أن يعترض حياته أو صحته ، ومن يفعل ذلك يتعد حدود الله وينسب لنفسه علما وحكمة ليست الا لله وحده .

وقد بينت لكم الموعظة أمر مملكة السماء فقالت لكم انها للفقراء والبسطاء والمحزونين والمتواضعين والساعين الى الحق والرحماء وطاهري القلوب والداعين الى السلم. وعليكم أن تبينوا لغير هؤلاء من الأغنياء والأذكياء والأقوياء طريقهم الى مملكة السماء ، ذلك بأن الفقر والبساطة ليس لهما فضل الا ما يصحبهما من طهارة النفس . فالغنى يشحذ الشهوات الجامحة ، والقوة والذكاء يغريان بالظلم . والنجاح يقضى على صفاء القلوب بما يحمل الناس عليه من خضوع لنظم الحياة التى يضعونها لأنفسهم وما فيها من نقص وسوء . والذين يستطيعون أن يحافظوا على طهارة نفوسهم من الأغنياء والأذكياء والأقوياء يكونون عند أهل مملكة السماء فقراء من غير فقر بسطاء من غير بساطة . ولهم أن يدخلوها آمنين . فليس الغنى وليس الذكاء بمانعى أحد من أن يدخل مملكة السماء فان العبرة بطهارة النفس وصفاء الضمير .

ويقول لكم الشرع لاترتكبوا الفحشاء ، وتقول لكم الموعظة من نظر الى امرأة فاشتهاها فقد ارتكب الفحشاء . ومن الناس من يظن أن هذا وحده مظهر الفحشاء ، وأن

شرور العالم كلها أصلها عقـاب من الله على ما يكون بين رجـل وامرأة لا تحـل له ، وان أكبر الذنوب الشـهوة الى النسـاء . ألا فاعلموا وعلموا النـاس أن هـذا ليس الا مثلا للشهوة الجامحة ، اختارتها الأديان مثلا لما فيها من قوة غالبة ، ولأن من كبح جماحها استطاع أن يكبح جماح كل شهوة غيرها . حقيقة التحريم فى شأن النساء أن الله يحرم كل شهوة جامحة تدعو الى اعتداء الناس على حق غيرهم ، ومن الشهوات الأخرى ما هو أبعد أثرا وأشد ضررا وأدعى الى الفتنة والقتل . وفوضى الشهوة أمر يأباه الضمير الانسانى سواء أكان ما يشتهيه الانسان امرأة أم مالا أم جاها . ومن الخطأ أن تقولوا للناس ان التحريم يرجع الى حفظ الانساب وحماية الأسرة ، وقد تتغير النظم الاجتماعية فلا يكون ذلك رادعا ، والنهى عن الفحشاء على كل حال أعمـق من ذلك كثيرا . ثم انى أوصيكم أن لاتسرفوا فى تركيز الاثم كله فى الشهوة الى النساء ، فقد يظن الناس أن غيرها من الشهوات مباح وبذلك تفوتون عليهم حقيقة التحريم فان الشرع أراد تحريم كل شهوة غالبة . علموهم أن كل من نظر الى ما فى يد غيره فاشتهاه شهوة تجعله يفكر فى ايذائه ليبلغها فقـد ارتكب الفحشاء .

قيل للناس قديما أحبوا جيرانكم واكرهوا أعداءكم ، والموعظة تقول لكم أحبوا أعداءكم وادعوا للذين يسبونكم. ألا فاعلموا أنه يجب أن لايكون لكم أعداء ، فان العداوة

لا تقوم بين الناس الا حين تقوى شهوتهم الى ما عند غيرهم فيريدون أن يسلبوهم ما عندهم غنوة ، وأكثر ما يشتهون أمور لا تتعلق بها السعادة ولا الهناء ، وأكثر ما يحسد الناس بعضهم بعضا من أجل ما يكون فى المأكل والملبس ومظاهر الترف وما يبلغه الغنى بماله ، وكل ذلك لايدل على السعادة ، فأطباق الذهب لاتقوى الشهية ، ولباس الحرير لايجلب الصحة . كل ذلك لا يستحق عداوة ولا بغضا ولا حسدا . ولو تعلم الناس أن ينعموا بما حولهم من جمال وما فى نفوسهم من خير ، وما فيهم من قوة وصحة ، ما حقد فقير على غنى . وليست العداوة والبغضاء والحسد طبيعة فى الناس ، وانما هى أمور أصلها عجز الناس عن تذوق ما فى الحياة من جمال ، وظنهم أن لا خير الا ما عند غيرهم، وسوء تنظيم العلاقة بين الناس .

ولقد نهت الشرائع كلها عن عبادة الأوثان والشرك بالله، وجعلتها أكبر الذنوب وأخطر المحرمات ، ولو أن المراد من هذا التحريم أن لايعبد الناس الحجارة ما حفلت بها الأديان وما جعلتها على رأس الكبائر كلها . ذلك أن عصر عبادة الحجارة يزول من تلقاء نفسه حين يخرج الناس عن طور البداوة الأولى . وسيأتى يوم قريب لا يكون فيه على وجه الأرض انسان يرى أن يعبد حجرا أو حيوانا ، والعقل الانسانى وحده كاف لهداية الناس الى أن الحجارة لاتعبد

ولا تقدم لها القرابين . وما كان أغنى الشرائع عن كل هذا التأكيد فى تحريم عبادة الأوثان والشرك بالله لو أن الأمر مقصور على عبادة الأصنام . وانما أرادت الشرائع النهى عن أمر أخطر من ذلك كثيرا هو أصل الشرور كلها .

ألا فاعلموا وعلموا الناس أن من الأوثان التى يعبدونها ما ليس حجارة ولا أصناما ، وسيصنع الناس لأنفسهم أصناما ليست من الحجارة يعبدونها من دون الله فيضلون بها ضلالا أبعد من ضلال عبادة الأصنام ، وسيسمونها مبادىء ، وسيضفون عليها من الاجلال ما يزيد على اجلالهم الضمير ، وسيقدمون حياتهم لها قربانا على مذابحها ، وستلهيهم عن الهدى حتى يقشعر الناس من ضعف ضمائرهم وضلال عقولهم وفساد أحلامهم ، كل ذلك تضحية لأوثان يعبدونها من دون الضمير ، وكلما قضى على معبود مما يخلقون صنعوا غيره ونبذوا الأول واحتقروا من عبدوه قبلهم . ومن هذه الأوثان التى سيعبدها الناس الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والحرية ، والطاعة لأولى الأمر ، والقانون ، وسيسمون ذلك الفضائل المدنية وهناك أوثان أخرى يسمونها الفضائل كالشجاعة والتضحيةوالصالح العام . وسيعكفون على تقديس النجاح والتفوق ، وستبلغ بهم عبادة الأوثان أن يقتلوا أنفسهم دفاعا عن أعلام جيش أو حدود دولة أو ردا لكرامة ملك . كل هذه أوثان يعبدها

الناس ، وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله ، عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفرا وشركا وضلالا دون اثمها ما تكون عليه عبادة الأصنام . ان من يعبد الدين نفسه عبادة تحمله على أن يتخطى حدود الضمير فيؤذى الناس فى سبيل حماية الدين يكون قد أشرك بالله . وسيضل الناس حين يعتقدون أن الجماعة أعظم من الفرد ، وأن خيرها أعظم من خير الفرد ، وأن نفعها يسوغ الاغضاء عن ضمير الفرد . انما الجماعة صنم يدعوكم الى عبادته من تنفعهم هذه العبادة . ويزينون لكم أن الجماعة تسعد وان لم يسعد أفرادها ، وهو وهم يقول به من يعنيه أن يشقى عدد كبير من الناس ليسعد عدد قليل منهم ، ان الصالح العام لأخطر الأوثان وأشدها ضررا حين يعبد فيطغى على أوامر الضمير .

قولوا للناس « لايغرنكم ما يقوله الذين يدعون الى هذه المبادىء ويزينونها لكم كأنهم لايبغون لكم الا الخير ، وليس عليكم أن تطيعوا أمرهم اذا كان أمرهم أن تخالفوا ضمائركم ، فان هذا طريق الضلال واضحا » .

والشريعة تأمر الناس أن لايسرقوا ، وليست السرقة ما اصطلح عليه الناس عادة ، انما الواقع أن كل من كسب شيئا لم يبذل فيه جهدا فقد سرق ، ولو كانت طريق هذه السرقة مما يبيحه القانون الوضعى ، ومن أحرز شيئا بذكائه

ودهائه دون جهد بل ابتزازا ممن بذل فيه غاية جهده فقد سرق . والموعظة تقول لكم انكم لاتستطيعون أن تعبدوا الهين ، وانكم لا تستطيعون أن تجمعوا بين عبادة الله وعبادة المال .

وعليكم أن تؤكدوا للناس أن خير ما يعبدون به الله ، أن يحب بعضهم بعضا ، فان الشريعة الموسوية أكدت العدل أكثر من تأكيدها الحب ، واذا رأيتم الناس لايستطيعون هذا الحب وحدهم فاهدوهم أن يحب بعضهم بعضا فى الله ، ذلك سر التقوى وأصل الخير . ولن يجد أحد شيئا يفرح به طول حياته فرحا لاتشوبه شائبة من ندم أو أسف أكثر من أن يتاح له اسعاد غيره ، ولن يندم الانسان على شيء ندمه على ايذاء غيره فى سبيل نجاح موقت أو شهوة طارئة . ان سر السعادة أن يسعد الانسان انسانا آخر ولا يكون هذا الا بالحب .

أما الدعوة الى الدين بين أهل الأرض فعمل مرهق لكم، ولا أخشى على الدين شيئا مما حدث اليوم ، انما أخشى عليه أمورا من أنفسكم وممن سيحملون عبء الدعوة من بعدكم، ومن الصدام بينه وبين حياة الناس ، وبينه وبين العقل الانسانى حين يشتد ويقوى .

أخشى عليه حماستكم فى حمل الناس على الايمان به جملة وتفصيلا ، لاتفرقون بين أصله وفروعه ، ولا بين ما هو دين وما هو حكمة وما هو رأى صائب ، وبين ما هو حق دائم

وما هو صلاح موقوت ، وبين ما يرجع الى طبيعة الانسان ، وما يرجع الى نظم وضعية من عمل الناس — هذا الخلط سيزعجكم ويزعج كثيرا ممن تدعونهم اليه .

والرأى عندى أن تقيموا دعوتكم على أصــول ثلاثة للدين لاتعدونها ، أن لايعبد الناس الأوثان على اختلاف أنواعها ، وأن يحب بعضهم بعضا ، وأن يجتنبوا الشهوة الجامحة حين تخرج بهم عن حد الضمير . هــذه الأسس الثلاثة ، الايمان والحب وكبح الشــهوة هى التى تدعون اليها على أنها دين ، وادعوا الى ما عدا ذلك على أنه حكمة وسداد رأى ، فقد تتغير الحكمة ويتغير الرأى . اجعلوا رقعة الدين واسعة حتى لايصعب على الناس أن يظلوا داخلها ، واتركوا لهم حرية العمل الذى يعرض لهم كل يوم ، اجعلوا الدين أوامر ونواهى كبرى لها قيمة دائمة فذلك أدعى الى احترامها .

وأخشى على الدين أن تسرفوا فى السمو به عن طباع الناس فلا يتبعونه . ان عليكم أن تجعلوه مقبولا لكل من فى طبعه الايمان . وأخشى على دينكم أنه قام بينكم على عقائد لا يصدقها الا المتصوفون ، وعلى مبادىء لايفهمها الا خيار الناس ، وعلى أخلاق ليست سهلة الا على البسطاء والفقراء والزهاد . وسيأتى يوم يقل فيه المتصوفون فلا يفقه أحــد عقائده ، ويقل فيه خيار الناس فلا يفهم أحد مبادئه ، ويقل فيه الزهاد والبسطاء فلا يتبع أحد أخلاقه .

ولتحدثوا الناس بما يفهمون ، ولا تسرفوا فى الرمز ، فان ذلك يصلح للساميين ومن فى طبعهم الايمان ، واعلموا أن لغتكم السامية لغة زاهية براقة ، فيها ضخامة فى التصوير وشدة فى التخيل تجعل الرمز حقيقة والخيال واقعا ، منتفخة الأوداج ، محتقنة الأسلوب ، أما لغات الذين تدعونهم الى الدين الجديد ففيها دقة وحدة ونفاذ ، لغة لا يكون الحديث فيها رمزا ، فلو أنكم قلتم لفلاسفة اليونان أن القوة الحيوية فى الناس تدفعهم الى الشر وتسوقهم الى ايذاء بعضهم بعضا، وان فى طبائع الناس ضميرا يمنعهم أن تطغى عليهم هذه القوة فيهلكوا ، فالضمير أصل الخير ، والقوة الحيوية الكامنة فينا أصل الشر ، لو قلتم ذلك لفيلسوف يونانى لفهم عنكم ذلك حق الفهم ، ولعله بعد ذلك يطمئن اليكم فيفهم العبادات والصلاة والتحريم والخطيئة . ولو انكم ألقيتم اليه ذلك كله فجاءة لوجدتم منه أحجاما ونفورا لاختلاف أسلوب تفكيره عن ما نشأتم عليه .

وأخشى على الدين ، بل على الأديان كلها ، عامل الزمن وعامل الرقى ونمو العقل ، فان للدين صفة الدوام ، وعليكم أن لاتجعلوه يعرض لما يستطيعه العقل ، فان الرقى العقلى يغير من فهم الناس لهذه الأمور ، ولا يجوز على الدين أن يتغير معها حتى لايفقد قدسيته .

ولا يدعون أحدكم الناس الى اتباع الدين لأن فيه صلاح أمورهم الدنيوية ، فانكم ان تفعلوا تجعلوا للناس سبيلا

الى انكار الدين كله حين يرون أن اتباعهم لأوامره يعرضهم لخطر أو يحرمهم متعة فى الحياة . وانما يدعى اليه على أنه ايماز ، وأن الايمان جزء لايتجزأ من تكوين الانسان ، وأن الانسان بدونه يظل بالطبع حيوانا .

سيطلب الناس اليكم أن يمنع الدين الظالم أن يظلم ، وسيطالبونكم أن تقفوا للظالمين بالمرصـاد ، وأن تضعوا للناس نظاما يقضى على الظلم ، وليس ذلك من عمل الدين ، فان الدين يحكم الضمير ، والجماعة لاضمير لها ، انما يؤثر الدين فى النظم والجماعات وسياستها على طريقة غير مباشرة، فهو يؤثر فى الجماعة حين يؤثر فى الأفراد . فلو أن كل فرد حرص على أن لايخرج على ما يوحيه اليه ضميره لامتنع الشر عند الأفراد وعند الجماعات ، يستوى عند ذلك النظام الحسن والسيىء والنظام القديم والحديث . أما أن يحاول الدين أن يغير نظاما بنظام فعمل لايتعلق به ، ثم ان النظام الجديد لايلبث أن يصبح فى حاجة الى التغيير لأن هـذه النظم تتكون وتقوى ثم تنهار لأسباب خارجة عن الدين ، خارجة عن سلطان الفرد . ولو أن الدين وضع للناس نظاما للحياة ثم رأوا أن يعدلوا عنه الى غيره لذهب ذلك باحترام الدين وطاعة الناس له فى ما هو من أخص أوامره .

ان النظم الاجتماعية تتغير دائما ، وهى فى حاجة الى هذا التغير ، والدين لايتغـير ، فهما أمران يجب أن لايتعلق

أحدهما بالآخر . وقد درست أنا واخوتى أسباب الضلال بين الناس فوجدناها عبادة الأوثان ، والشهوة الجامحة ، وانعدام الحب . وقد لاينفع الناس كثيرا أن نهديهم تفصيلا الى الخير بل قد يكون أنجع لو علمناهم الايمان والحب وكبح الشهوة ، وتركنا لعقولهم أن تنظم أمورهم فى حدود مالا يحرمه الضمير .

كان كثير من قوله يتعلق بأمور لاعهد للحواريين بها ، فهم لم يكونوا قد خبروا التبشير بعد ، ولم يكونوا قد علموا شيئا من صعابه وطرق النجاح فيه ، ولم يكونوا قد علموا من دينهم الا ما هو نفسى فردى . فلما تبين لهم ما هم قادمون عليه دبت فيهم الحياة ، وشملهم فرح الرجاء ، وأحسوا أن أمامهم جهادا طويلا ينجيهم من ألم الحسرة ، وذل الضعف ومرارة الاستسلام . وعلموا أن هذا هو الجهاد الحق الذى ينفع الناس ولا يضر أحدا ، وعزموا أن يضربوا للناس فى ذلك مثلا لم يعرفه التاريخ من قبل ، وانتشروا فى الأرض يدعون الى الحق .

خاتمة

لو كان الناس متعظين بشيء لكانت لهم فى أحداث ذلك اليوم عبر وعظـات . ولكنهم لايتعظون أبدا . وقد علموا كيف ضل أهل أورشليم ضلالا مبينا ، حين عصفت بهم قوى متباينة ، فيها الخير والشر ، فغلب الشر الخير وغلب الضلال الهدى وهم لايدرون ما يفعلون . ولا يزال الناس فى مهب هذه القوى تعتورهم فيضلون بها كما ضلت أمم كثيرة من قبل ، وهم لايقدرون على توجيهها وجهة تكفل لهم العصمة من الخطأ .

القوى التى تعمل فى حياة الناس ثلاث: القوة الحيوية وما فيها من غرائز وشهوات ونزعات . وقوة العقل وما فيها من قدرة على المعرفة . وقوة الضمير وما فيها من ادراك للحق وللباطل. وفى كل من هذه القوى خير وشر . أما القوة الحيوية فالخير فيها أنها تحفز الى العمل ، وتدعو الى بذل الجهد ، وهى مصدر النشاط ، ولولاها لخمدت الحياة الجسمية والنفسية، وشرها أنها عنيفة ملحة وأنها قوة عمياء ، لاغاية لها الا الابقاء على الحياة لاتسمو فوق ذلك ولا تعرف لنفسها حـدودا ولا هداية . أما العقل فالخير فيه أنه نور يضيء للناس سبل الحياة بما يهيىء لهم من علم وما يزيد فيهم من قوة وخبرة

ومهارة ، والشر فيه يأتى من الغرور وايمان أهله أنه ليس وراء العقل مذهب يعلو عليه . أما الضمير فخير كله ، الا أن الذين يقومون بأمره يكثر فيهم ضيق الصدر والضجر بما يخالف عقائدهم ، والرغبة فى حمل الناس جميعا على واجبات محددة يفرضونها عليهم لايقدرون فى ذلك ما فى الطباع من تباين وما فى العقول من اختلاف .

ومن عجب أن أوجه الخير فى هذه القوى الثلاث تتعارض وتتصادم فيمحو خير كل منها خير الأخرى وينجم الشر ؛ على حين أن أوجه الشر فيها تتساند وتتعاون فيشتد بأسها . ذلك أن النشاط فى القوة الحيوية يصطدم بالعقل فيأبى أن يخضع لعلمه أو يهتدى بحكمته . ثم تعترضه أوامر الضمير وحدوده فلا يأبه لها . والعقل لايريد أن يعبأ بقوة الغرائز ، ولا يريد أن يحفل بالضمير أوامره ونواهيه ، والقوامون على أمور الضمير يرون أن يكبتوا القوة الحيوية وأن يسخروا العقل حتى لايشذ عن سلطانهم . هذا التصادم كفيل بالقضاء على الخير فى هذه القوى . أما فى الشر فان طغيان القوة الحيوية يتفق وغرور العقل ، وكلاهما يوافق ما فى مذاهب التفكير الدينى من ضيق صدر وضجر .

كيف السبيل الى المواءمة بين أوجه الخير فى هذه القوى حتى تشد كل منها آزر الأخرى فى الخير فتستقيم حياتنا على الحق .

لكل من هذه القوى فريق من الناس يؤمنون بها ويدعون اليها ويرون أنها منفردة تؤدى الى استقرار الحياة وأنها لاتخفق الا لأن القوى الأخرى تعترض سبيلها وتضعف من شأنها فرجال الحياة يرون أن الغرائز قوة لاتقهر وأن العبث بها يؤدى الى أمراض نفسية متعددة ، وأن محاولة القضاء عليها مقضى عليها بالاخفاق حتما . وهم يرون أنها تدعو الى الكفاح وتنازع البقاء وذلك يؤدى الى بقاء الأصلح وأن شرها يأتى من مقاومتها وكبتها . ورجال العقل يريدون له السيطرة على كل شىء يستبد بقوى الحياة فيقهر منها ما يشاء ، ويتجاهل من الدين ما لايتفق وعلمه وخبرته . وهم يرون أنه كفيل بهداية الناس لو ترك وحده يدبر أمورهم وأنه انما أخفق لأن قوى الحياة تطغى عليه أحيانا ولأن الضمير يعرقل سيره ويفت فى عضده . ورجال الدين يريدون أن يكون الأمر أمرهم فى شئون الحياة كلها صغيرها وكبيرها، ما يدخل منها فى العقائد وما لايدخل . وهم لايعبأون باختلاف الطباع ، واختلاف العصور ، ولا يريدون أن يقبلوا من الغرائز أو العقل شيئا يخالف رأيا رأوه .

يرى كل فريق أن تسود القوة التى يؤمن بها . وهذا التفكير خطأ وهذه الأثرة أصل الداء والنمو البالغ لأحدى هذه القوى يزيد فى طغيانها فيشتد التصادم بين خيرها والتساند بين شرورها ، والناس على كل حال يختلفون فى قبولهم

للتـأثر بكل منها ولا يفيدون الا من هـذا الذى يقبلونه ولا يؤثر فيهم الا خيره .

كلا . ليست هذه وسيلة الاصلاح . وليس سبيل الخير أن يتعصب كل فريق لرأيه وليس الاصلاح أن نحدد للنـاس أعمالا مفصلة دقيقة من اتبعها أصاب ومن خالفها أخطأ . وليس الاصلاح أن تقوى احدى هذه القوى فتطغى على الأخرى مهما يكن فيها من خير ، فان الضمير نفسه — على ما فيه من خير — لم تصلح به وحده حال النـاس الا فى العصور الأولى لكل دين ، حـين يكون الدين قويا نقيـا طاهرا ، وحين تكون الحياة بسيطة والعقول هادئة حتى اذا امتد به الزمن وقع الخلاف بينه وبين الحياة والعقل ، ويكون من أثر ذلك أن يصيبه الضعف حتى لا يتأثر به أحد ، أو يشتد بطشه فيذبل العقل ويضعف النشاط . أما سـلطان القوى الحيوية وحدها فشر لاشك فيه ولا يقنع به الا أهل البداوة والجهل ، وان كان علماء الحياة يسرفون فى التحدث عن روائع نظامها . وأما العقل فانه حين يعظم سلطانه وحده — كما هى الحال فى عصرنا — يصبح الناس منه فى رعب مستمر وخوف دائم . ونحن اليوم فى قبضة هذا السلطان وجبروته ويروعنا منه قوة الشر التى تكمن فيه . والناس يلهجون اليوم بالحديث عن هذا الشر ويرون أنه من الضرورى أن يصحب نمو العقل نمو فى قوة الضمير وما فيه من خير ،

وذلك قول لا غناء فيه . واذا كان الضمير لم يستطع فى أوج قوته أن يمنع الشر وهو ضعيف فهو على منعه بعد أن عظمت قوته أضعف .

طبيعة العقل أن يكون دليلا هاديا وطبيعة الضمير أن يكون رادعا ونذيرا ولو بقى كل منهما على طبيعته لسلم خيرهما . أما أن يكون الضمير هاديا والعقل رادعا فهو خروج عن طبيعة كل منهما .

انما يكون الاصلاح فى تهذيب هذه القوى وتحديدها ورياضتها على أن لاتطغى احداهما على غيرها حتى فى الخير ، فان الخير حين يتعدى حدوده يصبح شرا لما يؤدى اليه من اختلال التوازن . والاعتدال وحده هو الذى يجمع هذه القوى على الحق فتكون القوة الحيوية مصدر النشاط وتكون قوة العقل دليلا ، وتكون قوة الضمير مانعة لهما من الشطط على أن يكون لكل منها ميدان واسع تعمل فيه ، يتسع لاختلاف مشارب الناس وطباعهم ومدى قبولهم للتأثر بما فيها من خير .

وقد جرى أكثر المفكرين والمصلحين على أن يحددوا غايات الخير والصواب ووسائلهما ، وأن يعدوا كل ما عدا ذلك شرا وخطأ ، وهذا وهم لم يتحقق به صلاح حال الناس فى أى وقت . انما علينا أن نحدد للناس الشر والخطأ وأن نعلمهم أن كل ما عدا ذلك خير وصواب ، وأنهم اذا لم يخطئوا

فى حق القوى التى تعمل فيهم فهم بمنجاة من الشر . فخطؤهم فى حق القوى الحيوية يكون بالخمول ، وخطؤهم فى حق قوة العقل يكون بالجهل ، وخطؤهم فى حق قوة الضمير يكون بعبادة الأوثان — مهما يكن نوعها — والشهوة الجامحة والبغض بين الناس . ولنعلمهم أنهم أحرار فى حياتهم بعد ذلك ما داموا يجتنبون هذه الأخطاء فكل ما عداها خير وصواب .

فى أحداث يوم الجمعة ذلك كل عوامل الضلال والخطأ ، وفى كل يوم من أيام الحياة تتكرر مآسى ذلك اليوم . فليتدبر الناس هذه العوامل ، وليجتنبوها ، وسيجدون بعد ذلك أمامهم مجالا واسعا لعمل الخير ، يسعدون به فينعمون بحياة طيبة جميلة .

فهرس

عند الرومان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧٩٩ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5383 - 4

■ محمد كامل حسين

هذه رواية متفردة في نوعها وأسلوبها وطريقة كتابتها، صدرت أول مرة عام ١٩٥٤، أودعها مؤلفها الدكتور محمد كامل حسين خلاصة رسالته الفكرية وذوب ثقافته الإنسانية. اختار لها يومًا واحدًا من التاريخ القديم ليصب فيه عصارة وعيه ونضارة فكره وصواب رؤيته، عندما اقترف بنو إسرائيل جرمهم الأكبر بإدانة السيد المسيح وحمله إلي الصليب، فأحالوا «أورشليم» القرية الوادعة التي احتضنت رسالة السماء إلي جحيم ظالم مثلما يقترفون اليوم في القدس ذاتها علي مشهد من العالم أجمع، وقد استحال بدوره إلي قرية لاتزال بعيدة عن العدل والمحبة والسلام. يدعونا المؤلف في هذه الرواية العميقة للتأمل الهادئ والجدل الحر حول أخطر قضايا البشر على مر العصور، فيوظف طاقته الشعرية الفذة على تدفقها السردي في بعث روح الفكر المستنير والحوار الخصب لدى قرائه، مما يجعل عمله الأدبي يتجدد بالمطالعة ويكتسب بعد نيف وأربعين عاماً من الأبعاد الدلالية والتاريخية ما لم يتوفر له عند إنشائه، فكأن الزمن يعطيه بقدر ما يسلبه ويثريه بما يستحثه.

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب